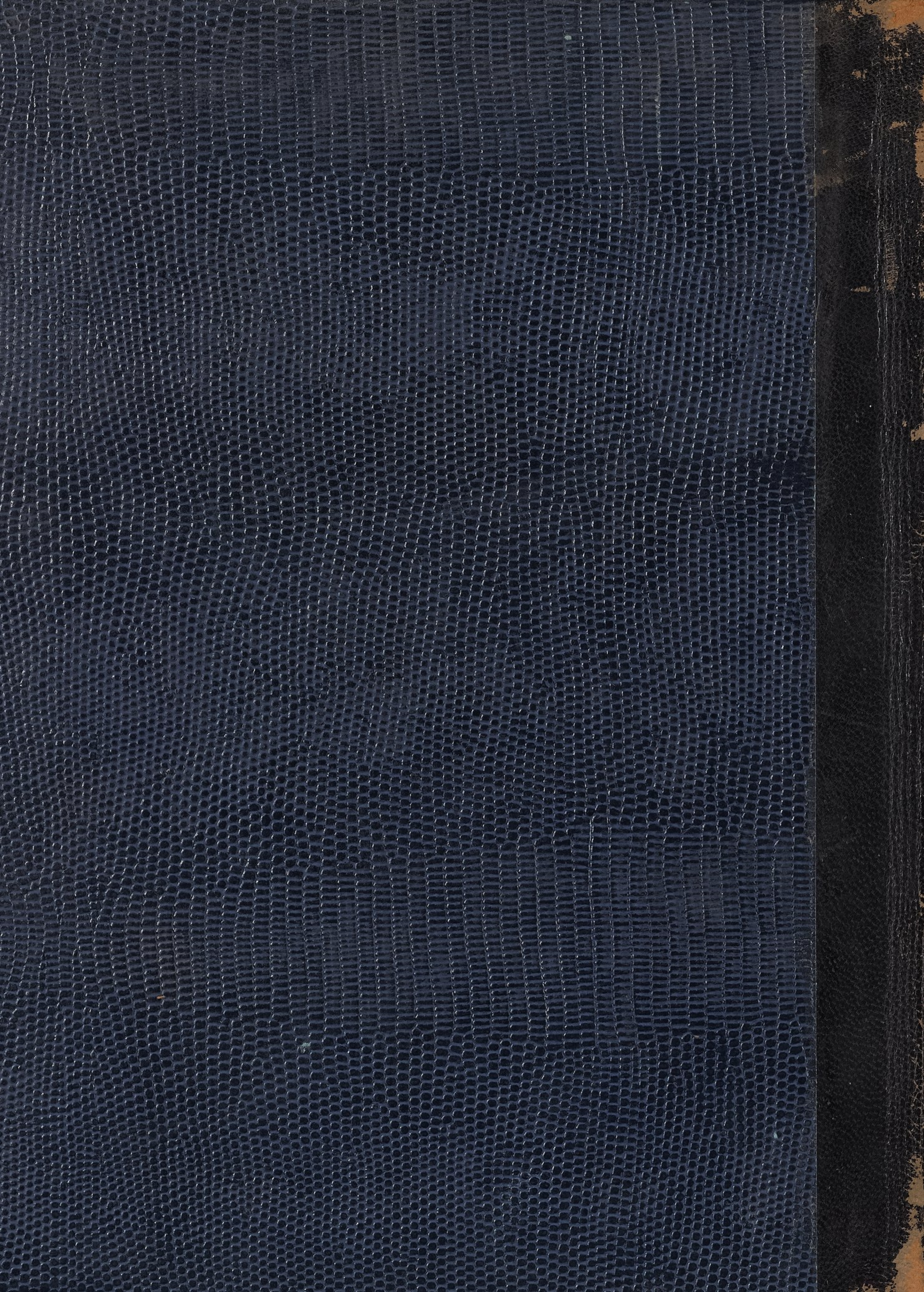
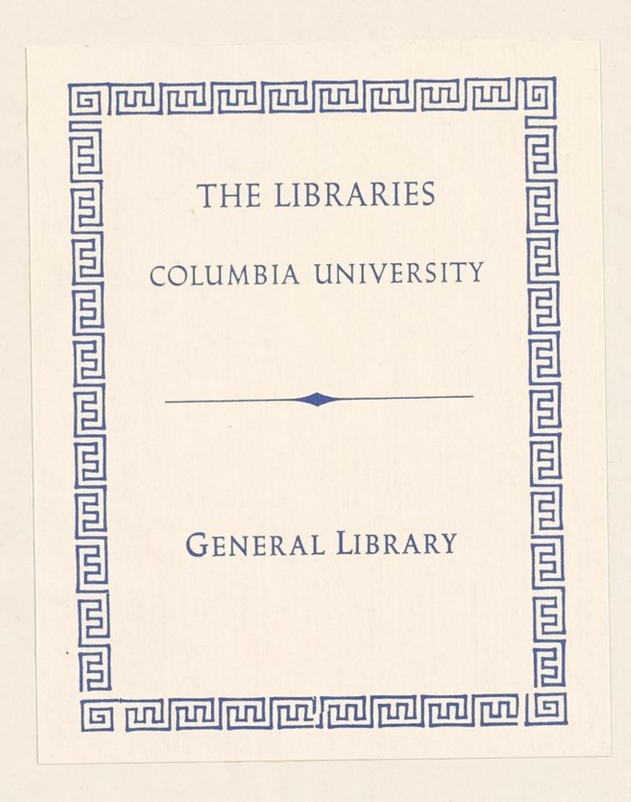
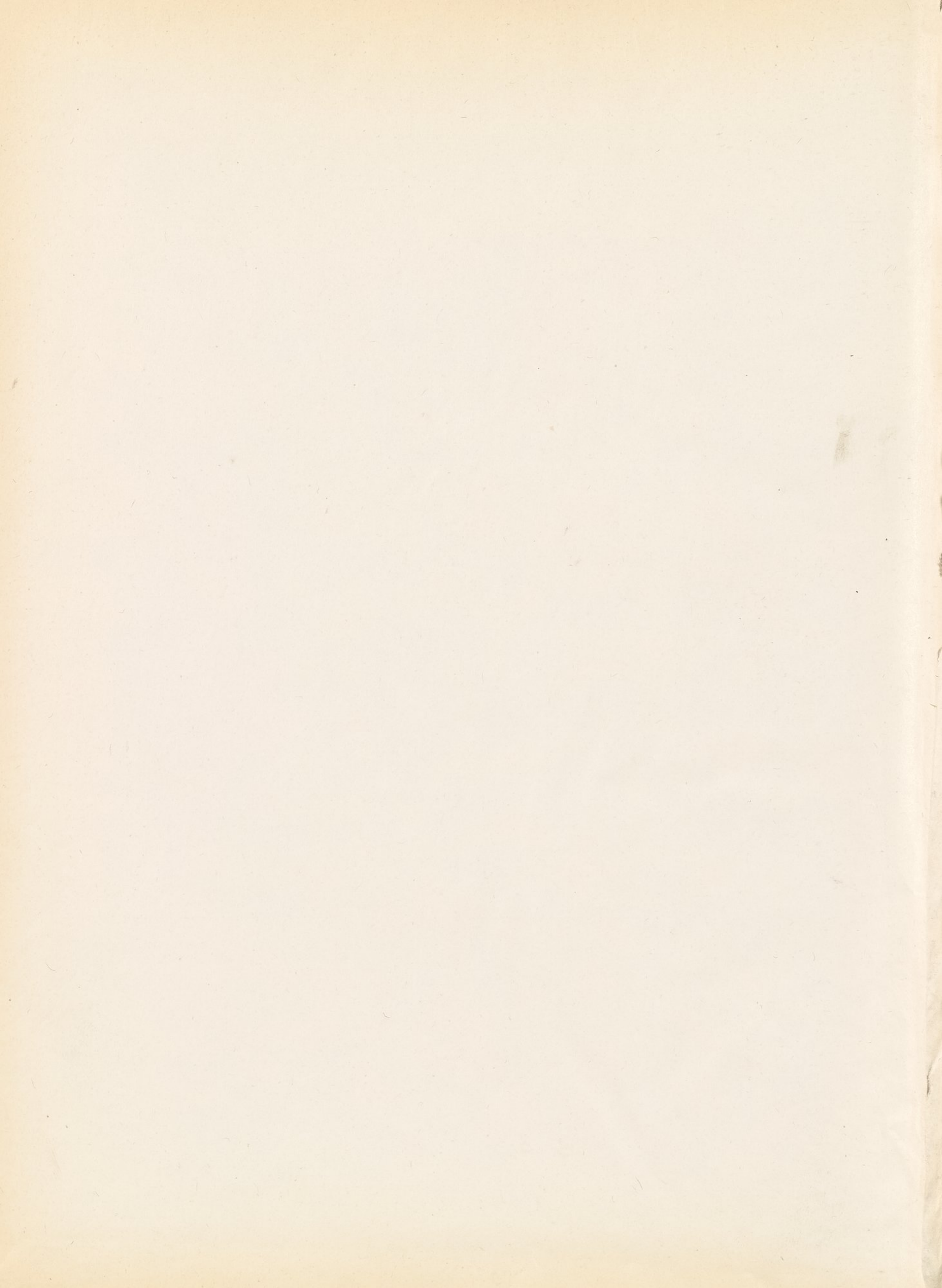






البداية والنهاية

في التاريخ

للإمام العالم الحافظ عماد الدين أبي الفداء

إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م)

تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح

محمد عبد العزيز النجار

المفتش العام السابق بوزارة التربية والتعليم

بالجمهورية العربية المتحدة

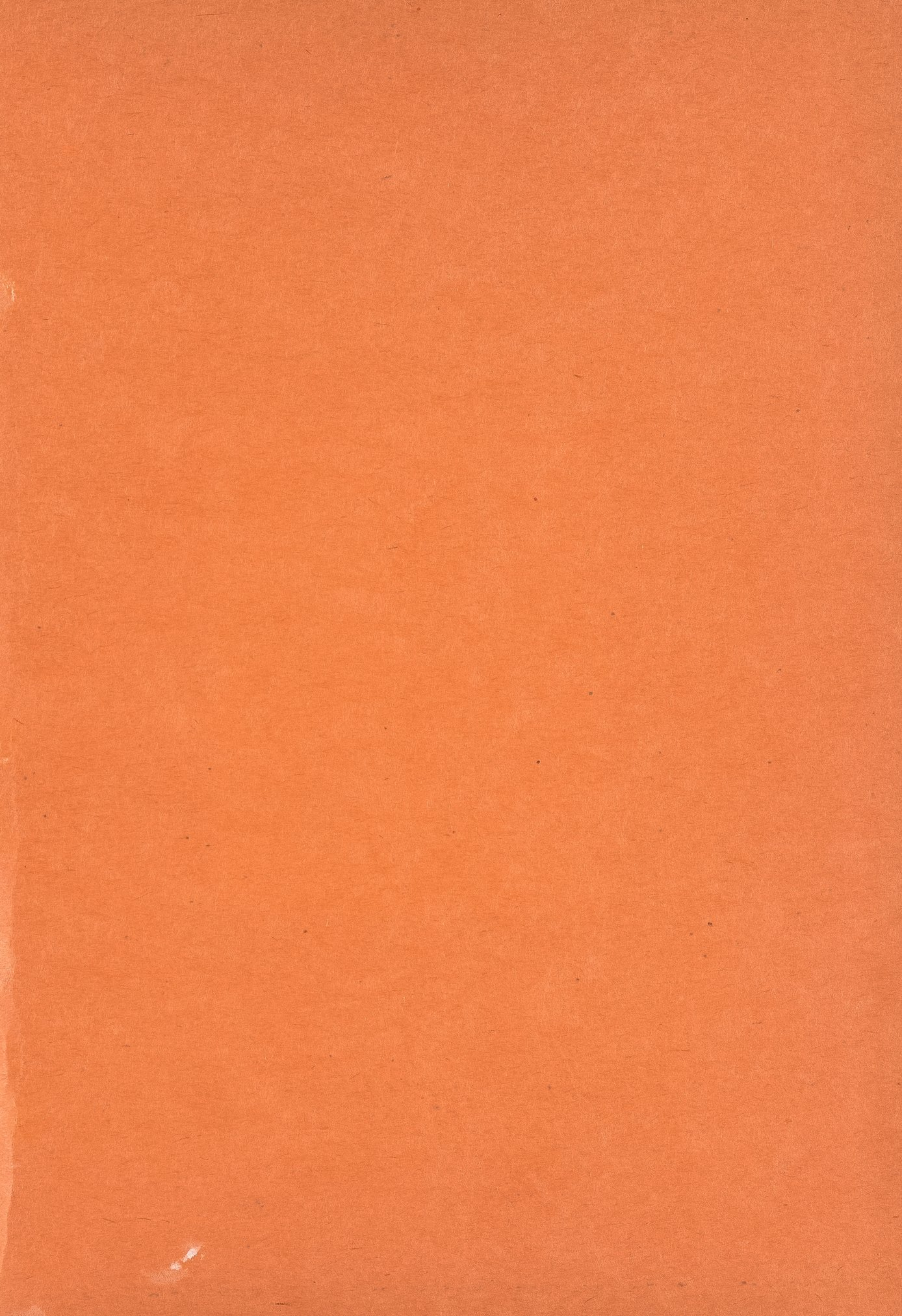
الجزء الأول

طبعة جديدة منقحة كاملة

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بميدان الأزهر - تليفون ٩٠٦٥٨٠



البداية والنهاية
في التاريخ

للإمام العالم الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل
ابن عمر بن كثير الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣م)

تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح
محمد عبد العزيز النجار
المفتش العام السابق بوزارة التربية والتعليم
بالجمهورية العربية المتحدة

الجزء الأول

طبعة جديدة منقحة كاملة

يطلب من
مكتبة الفلاح
شارع البطحاء بالرياض

مطبعة الفجالة الجديدة
شارع القويسني خلف مدرسة التجارة بالظاهر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد أفضل الخلق أجمعين ، وعلى آله وأصحابه الذين نهجوا سبيله ، واهتدوا بهديه ، فأضاءوا للبشرية طريق الهدى والرشاد ، وعلى سائر أوليائه المقربين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا كتاب « البداية والنهاية فى التاريخ » للشيخ الحافظ الإمام ابن كثير ، نقدمه لقراء العربية وننشره بينهم ؛ كنزاً من كنوز التاريخ ، وموسوعة من أعظم الموسوعات فيه إلى المائة الثامنة الهجرية . راجين بذلك أن نسهم فى نشر العلم وإظهار ماخفى على كثير من الناس وبالله توفيقنا .

تعريف مختصر بالمؤلف

هو الشيخ الإمام العالم الحافظ ، المفسر البارع ، والمؤرخ الثبت ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير ، البصرى ، ثم الدمشقى ، الفقيه الشافعى .

نشأته : ولد بمجدل من أعمال مدينة بصرى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) ، إذ كان أبوه خطيباً بها ، ثم انتقل إلى دمشق مع أخيه سنة ٧٠٦ هـ ونشأ بها وتعلم فى مدارسها ، وسمع الدروس على علمائها ، وأقبل على علم الحديث والأصول وحفظ المتون والتواريخ ، وعنى بالفقه والتفسير ، وأمعن النظر فى النحو حتى برع فى ذلك كله وهو شاب ، فصار فقيهاً مقدماً ، ومحدثاً محققاً ، ومفسراً نقاداً ، ومؤرخاً ثبتاً ، وإماماً فى جميع ما كتب وكانت له صلة كبيرة بالشيخ ابن تيمية ، واتبعه فى كثير من آرائه ، وامتحن بسببه ؛ وكان حسن المفاكهة ، حلو المحاضرة .

تصانيفه : وله تصانيف كثيرة منها :

١ — تفسيره الكبير فى عشرة أجزاء ، وهو من أعظم كتب التفسير وأفيدها بالرواية ، لأنه يتكلم فى أسانيد الروايات جرحاً وتعديلا ، ولا يرسلها إرسالا كما يفعل غالب المفسرين والرواة ، ولم يؤلف على نمطه مثله ، وقد طبع أكثر من مرة .

٢ — وكتاب الهدى والسنن فى أحاديث المسانيد والسنن ، وهو المعروف بجامع المسانيد ، وقد جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة : «مسند الإمام أحمد ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن أبى شيبة» ورتبه على الأبواب ، وهو من أنفع الكتب .

٣ — ثم كتاب التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل فى خمسة أجزاء .

٤ — تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب . ٥ — ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح .

٦ — والفصول فى سيرة الرسول . . . وغير ذلك كثير من المصنفات .

وقد انتشرت مؤلفاته فى البلاد وانتفع بها كثير من الناس . وتوفى بدمشق فى شعبان سنة ٧٧٤ ﻫ (١٣٧٣ م) ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية . رحمهما الله رحمة واسعة .

البداية والنهاية :

أما كتابه « البداية والنهاية فى التاريخ » الذى نقدمه للقراء من طلاب وعلماء و باحثين — فيعد من الكنوز العظيمة . وهو فى مقدمة الموسوعات المبسوطة فى التاريخ الإسلامى ، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : وقصد به البداية ، وقد أتى فيه على تاريخ مبدأ الخليفة وماورد فى خلق السموات والأرض ومابينهما ، والعرش والكرسى والملائكة والجن والأفلاك وما إلى ذلك ، ثم قصص الأنبياء السابقين وأخبار الأمم والقبائل والملوك الماضين وغيرهم مما يشوق الكشف عنهم ؛ كيأجوج ومأجوج ، وسبأ ، وذى القرنين ، وأصحاب الأخدود . . . فهو تاريخ مفصل مبسوط لما قبل الإسلام إلى مولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . وقد اعتمد فيما كتب على نصوص الكتاب والسنة مميزاً الصحيح منها من السقيم ، ثم أتبع ذلك بالسيرة النبوية العاطرة منذ مولده عليه السلام ، ثم بعثته وجهاده فى سبيل دعوته ، وهجرته وغزواته . ورتب مابعد الهجرة على السنين إلى وفاته عليه السلام ، مع إشباع فى القول وبسطة فيه ، حتى أغنى بكتابه هذا عن كل ما كتب ، واستوعب هذا كله خمسة أجزاء من الكتاب .

الثانى : مايمكن أن نسميه تاريخ الإسلام ، وهو من الجزء السادس إلى الجزء الخامس عشر . وقد ابتدأه بذكر آثار النبى ومخلفاته ووصف ذاته الشريفة وصفاً مفصلا ، وذكر أخلاقه وشمائله العاطرة ومعجزاته ، ثم تاريخ الخلفاء الراشدين وأعمالهم وجهادهم فى تثبيت دعوته عليه السلام ، فالدولة الأموية وأشهر رجالاتها وعلمائها وشعرائها ، ثم الدولة العباسية كذلك والدول التى تفرعت منها ، و إغارة التتار على البلاد الإسلامية وماحدث من الفتن والحروب ، ثم انتصار المسلمين عليهم وهزيمتهم نهائياً . ومابعد ذلك من الحوادث إلى قبيل سنة ٧٧٤ ﻫ ، وهى السنة التى توفى فيها . وقد رتب ما كتب على السنين واستقصى الحوادث استقصاء تاماً ، وعنى بذكر الشعراء والكتاب والأعيان والحكام وحملة العلم من كل طبقة ووفياتهم ، مع البسط فى ذلك حتى جاء تاريخه مغنياً عن كل تاريخ تقدمه .

الثالث : وعنى به النهاية ، وقد تكلم فيه عن الملاحم والفتن والبعث والنشور وأهوال يوم القيامة وغير ذلك من الأمور السمعية ، وجعل هذا خاتمة تلك الموسوعة ، وهو الجزء الأخير منها .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم يطبع من الكتاب فى طبعته السابقة إلا أربعة عشر جزءاً ، وقد انتهى الجزء الرابع عشر بحوادث سنة ٧٦٧ ﻫ ومقتل الأمير الكبير يلبغا . وسنعمل إن شاء الله فى هذه الطبعة على تكميله من الأصول الخطية ، والله الموفق .

محمد عبد العزيز النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول الآخر ، الباطن الظاهر ، الذى هو بكل شئ عليم ، الأول فليس قبله شئ ، الآخر فليس بعده شئ ، الظاهر فليس فوقه شئ ، الباطن فليس دونه شئ ، الأزلى القديم الذى لم يزل موجوداً بصفات الكمال ، ولايزال دائماً مستمراً باقياً سرمدياً بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال ، يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء وعدد الرمال . وهو العلى الكبير المتعال ، العلى العظيم الذى خلق كل شئ فقدره تقديراً .

ورفع السموات بغير عمد ، وزينها بالكواكب الزاهرات ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا . وسوى فوقهن سريراً ، شرجعاً[1] عالياً منيفاً متسعاً مقبياً مستديراً — وهو العرش العظيم — له قوائم عظام تحمله الملائكة الكرام ، وتحفه الكروبيون[2] عليهم الصلاة والسلام ولهم زجل بالتقديس والتعظيم . وكذا أرجاء السموات مشحونة بالملائكة ، ويفد منهم كل يوم سبعون ألفاً إلى البيت المعمور بالسماء الرابعة لايعودون إليه ، آخر ما عليهم[3] فى تهليل وتحميد وتكبير ، وصلاة وتسليم .

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام قبل خلق السماء ، وأنبت فيها من كل زوجين اثنين ، دلالة للألباء من جميع مايحتاج العباد إليه فى شتائهم وصيفهم ، ولكل مايحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم[4] .

وبدأ خلق الإنسان من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين ، فى قرار مكين ، فجعله سميعاً بصيراً ، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وشرفه بالعلم والتعليم . خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر ، وصور جثته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فآنس بها وحدته ، وأسكنهما جنته ، وأسبغ عليهما نعمته . ثم أهبطهما إلى الأرض لما سبق فى ذلك من حكمة الحكيم ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . وقسمهم بقدرة العظيم ملوكا ورعاة ، وفقراء وأغنياء ، وأحراراً وعبيد ، وحرائر وإماء . وأسكنهم أرجاء الأرض ، طولها والعرض ، وجعلهم خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض ، إلى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم . وسخر لهم الأنهار ، من سائر الأقطار ، تشق

---

(١) الشرجع : الطويل ، والعالى المنيف .

(٢) هم سادة الملائكة المقربون .

(٣) آخر : خبر لمبتدأ محذوف أى هذا آخر ماعليهم .

(٤) أعجم لايميز .

الأقاليم إلى الأمصار ، مابين صغار وكبار ، على مقدار الحاجات والأوطار ، وأنبع لهم العيون والآبار ، وأرسل عليهم السحائب بالأمطار ، فأنبت لهم سائر صنوف الزرع والثمار . وآتاهم من كل ماسألوه بلسان حالهم وقالهم : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) . فسبحان الكريم العظيم الحليم . وكان من أعظم نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، بعد أن خلقهم ورزقهم ، ويسر لهم السبيل وأنطقهم ، أن أرسل رسله إليهم ، وأنزل كتبه عليهم ، مبينة حلاله وحرامه ، وأخباره وأحكامه ، وتفصيل كل شيء فى المبدإ والمعاد إلى يوم القيامة . فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم ، والأوامر بالانقياد والنواهى بالتعظيم ؛ ففاز بالنعيم المقيم ، وزحزح عن مقام المكذبين فى الجحيم ، ذات الزقوم والحميم ، والعذاب الأليم .

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً يملأ أرجاء السموات والأرضين ، دائماً أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، إلى يوم الدين ، فى كل ساعة وآن ووقت وحين ، كما ينبغى لجلاله العظيم ، وسلطانه القديم ووجهه الكريم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، لاولد له ولا والد له ، ولا صاحبة له ، ولا نظير ولا وزير له ، ولا مشير له ، ولا عديد ولا نديد ولا قسيم .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم ، خاتم الأنبياء ، وصاحب الحوض الأكبر الرواء ، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وحامل اللواء الذى يبعثه الله المقام المحمود الذى يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل إبراهيم صلى الله عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين ، وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم ، وأعلى تشريف وتكريم . ورضى الله عن جميع أصحابه الغرّ الكرام ، السادة النجباء الأعلام ، خلاصة العالم بعد الأنبياء ؛ مااختلط الظلام بالضياء ، وأعلن الداعى بالنداء ، ومانسخ النهار ظلام الليل البهيم .

﴿ أما بعد ﴾ فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه مايسره الله تعالى بحوله وقوته ، من ذكر مبدإ المخلوقات : من خلق العرش والكرسى والسموات والأرضين ؛ وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين ، وكيفية خلق آدم عليه السلام وقصص النبيين ، وماجرى مجرى ذلك الى أيام بنى إسرائيل ، وأيام الجاهلية حتى تنتهى النبوة ، إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فنذكر سيرته كما ينبغى فتشفى الصدور والغليل ، وتزيح الداء عن العليل .

ثم نذكر مابعد ذلك الى زماننا ، ونذكر الفتن والملاحم [1] وأشرطة الساعة ، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة ، ثم صفة ذلك وما فى ذلك اليوم ، ومايقع فيه من الأمور الهائلة ؛ ثم صفة النار ، ثم

(١) الملاحم : جمع ملحمة وهى الوقائع والحروب التى يعظم فيها القتل والفتن ؛ مأخوذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها كاشتباك لحمة الثوب بالسدى .

صفة الجنان ومافيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك وما يتعلق به ، وماورد فى ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء ، الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

ولسنا نذكر من الإسرائيليات — إلا ماأذن الشارع فى نقله ، مما لايخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وهو القسم الذى لا يصدق ولا يكذب ؛ مما فيه بسط لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا ، مما لافائدة فى تعيينه لنا ؛ فنذكره على سبيل التحلى به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه . و إنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، ماصح نقله أو حسن ، وما كان فيه ضعف نبينه ، وبالله المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولاقوة الا بالله العزيز الحكيم العلى العظيم .

فقد قال الله تعالى فى كتابه : (كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً) ، وقد قص الله على نبيه ﷺ خبر مامضى من خلق المخلوقات ، وذكر الأمم الماضين ، وكيف فعل بأوليائه ، وماذا أحل بأعدائه . و بين ذلك رسول الله ﷺ لأمته بياناً شافياً ، سنورد عند كل فصل ماوصل إلينا عنه — صلوات الله وسلامه عليه — من ذلك تلو الآيات الواردات فى ذلك ، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك ، وترك مالافائدة فيه مماقد يتزاحم على علمه ، ويتراجم فى فهمه ، طوائف من علماء أهل الكتاب ، مما لافائدة فيه لكثير من الناس إليه ، وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ، ولا ننحو نحوهم ، ولانذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار . ونبين مافيه حق مما وافق ماعندنا ، وماخالفه فوقع فيه الإنكار .

فأما الحديث الذى رواه البخارى رحمه الله فى صحيحه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، وحدثوا عنى ولا تكذبوا علىّ ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » — فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا ، فليس عندنا مايصدقها ولا مايكذبها ، فيجوز روايتها للاعتبار . وهذا هو الذى نستعمله فى كتابنا هذا . فأما ماشهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا ، وماشهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود ، لايجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال .

فإذا كان الله — سبحانه وله الحمد — قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع ، و بكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى على مابأيديهم مما وقع فيه خلط وخبط ، وكذب ووضع ، وتحريف وتبديل ، و بعد ذلك كله نسخ وتبديل .

فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا ، وشرحه وأوضحه ؛ عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ، كما قال علىّ

ابن أبى طالب : كتاب الله فيه خبر من قبلكم ونبأ مابعدكم وحكم مابينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وقال أبو ذر رضى الله عنه : لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكرنا منه علماً . وقال البخارى فى كتاب بدء الخلق ، وروى عن عيسى بن موسى غنجار عن رقبة عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه . قال أبو مسعود الدمشقى فى أطرافه هكذا قال البخارى ، وإنما رواه عيسى غنجار عن أبى حمزة عن رقبة . وقال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله فى مسنده : حدثنا أبو عاصم [1] حدثنا عزرة بن ثابت ، حدثنا علباء بن أحمر اليشكري ، حدثنا أبو زيد الأنصارى ، قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، ثم نزل فصلى الظهر . ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى العصر ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس ، فحدثنا بما كان وما هو كائن فأعلمُنا أحفظنا .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه فى كتاب الفتن من صحيحه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى وحجاج ابن الشاعر ، جميعاً عن أبى عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عزرة عن علباء عن أبى زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصارى رضى الله عنه عن النبى ﷺ بنحوه .

فصل

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل) [2] فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له ، مربوب مدبر ، مكون بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه . فالعرش الذى هو سقف المخلوقات إلى ماتحت الثرى ، وما بين ذلك من جامد وناطق الجميع خلقه ، وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته ، وتحت تصريفه ومشيئته (هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) [3] .

وقد أجمع العلماء قاطبة — لا يشك فى ذلك مسلم — أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم ؛ فاختلفوا فى هذه الأيام أهى كأيامنا هذه ، أو كل يوم كألف سنة مما تعدون ؟ على قولين كما بينا ذلك فى التفسير ، وسنتعرض لإيراده فى موضعه . واختلفوا هل كان قبل خلق السموات والأرض شىء مخلوق قبلهما ؟ فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شىء

---

(١) فى رواية : أبو عامر. (٢) الآية ٦٢ من سورة الزمر (٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

وأنهما خلقتا من العدم المحض . وقال آخرون : بل كان قبل السموات والأرض مخلوقات أخر لقوله : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء[1]) الآية ، وفى حديث عمران ابن حصين كما سيأتى : « كان الله ولم يكن قبله شىء وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ثم خلق السموات والأرض » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى بن عطاء عن وكيع ابن حدس عن عمه أبى رزين لقيط بن عامر العقيلى أنه قال : يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : « كان فى عماء مافوقه هواء وماتحته هواء ثم خلق عرشه على المـاء » ورواه عن يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به ، ولفظه : أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ وباقيه سواء . وأخرجه الترمذى عن أحمد بن منيع وابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هرون ، وقال الترمذى حسن .

واختلف هؤلاء فى أيها خلق أولا ، فقال قائلون : خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها ، وهذا هو اختيار ابن جرير وابن الجوزى وغيرهما . قال ابن جرير : وبعد القلم السحاب الرقيق . واحتجوا بالحديث الذى رواه الإمام أحمد ، وأبو داود والترمذى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ماخلق الله القلم ، ثم قال له اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » لفظ أحمد . وقال الترمذى حسن صحيح غريب .

والذى عليه الجمهور — فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمدانى وغيره — أن العرش مخلوق قبل ذلك ، وهذا هو الذى رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه . حيث قال : حدثنى أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب أخبرنى أبو هانىء الخولانى عن أبى عبد الرحمن الجيلى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء » قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير . وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذى كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير . ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم .

ويؤيد هذا ما رواه البخارى عن عمران بن حصين قال : قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ : جئناك لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال : « كان الله ولم يكن شىء قبله » وفى رواية معه ،

---

(١) الآية ٧ من سورة هود

وفى روايةغيره «وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض» وفى لفظ : «ثم خلق السموات والأرض» فسألوه عن ابتداءخلق السموات والأرض . ولهذا قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر ، فأجابهم عما سألوا فقط ، ولهذا لم يخبرهم بخالق العرش كما أخبر به فى حديث أبى رزين المتقدم .

قال ابن جرير وقال آخرون : بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش رواه السدى عن أبى مالك . وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ : قالوا : إن الله كان عرشه على الماء ، ولم يخلق شيئاً غير ماخلق قبل الماء . وحكى ابن جرير عن محمد بن اسحاق أنه قال : أول ماخلق الله عز وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما ؛ فجعل الظلمة ليلا أسود مظلماً ، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً .

قال ابن جرير وقد قيل : إن الذى خلق ربنا بعد القلم الكرسى ثم خلق بعد الكرسى العرش ، ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة ، ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل فيما ورد فى صفة خلق العرش والكرسى

قال الله تعالى : (رفيع الدرجات ذو العرش[1]) وقال تعالى : (فتعالى الله الملك الحق لاإله إلا هو رب العرش الكريم[2]) وقال : (وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد[3]) وقال تعالى : (الرحمن على العرش استوى[4]) وقال : (ثم استوى على العرش) فى غير ما آية من القرآن ، وقال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما[5]) وقال تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية[6]) وقال تعالى : (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين[7])

وفى الدعاء المروى فى الصحيح فى دعاء الكرب « لاإله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا الله رب العرش الكريم . لاإلـه إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد حدثنى سماك ابن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن عباس بن عبدالمطلب قال كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله ﷺ : «أتدرون ماهذا ؟ قال : قلنا : السحاب ، قال : والمزن ؟ قال قلنا : والمزن ، قال والعنان ؟ قال فسكتنا فقال : « هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قال قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة

---

(١) الآية ١٥ من سورة غافر (٢) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون (٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة البروج (٤) الآية ٤ من سورة طه (٥) الآية ٧ من سورة غافر (٦) الآية ١٧ من سورة الحاقة . (٧) آخر سورة الزمر .

سنة ، وكثف كل سماء[1] مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال[2] بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله فوق ذلك ، وليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شىء » هذا لفظ الإمام أحمد . ورواه أبو داود وابن ماجة والترمذى من حديث سماك بإسناده نحوه ، وقال الترمذى هذا حديث حسن . وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه . ولفظ أبى داود : « وهل تدرون بعد مابين السماء والأرض ؟ قالوا لاندرى . قال : « بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتين أو ثلاثة وسبعون سنة » والباقى نحوه .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، وأحمد بن سعيد الرباطى قالوا : حدثنا وهب بن جرير ، قال أحمد كتبناه من نسخته وهذا لفظه . قال : حدثنا أبى قال سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابى فقال يارسول الله جهدت الأنفس وجاعت العيال[3] ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام . فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك ، قال رسول الله ﷺ : « ويحك أتدرى ماتقول ؟ » وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه . ثم قال : « ويحك إنه لايستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ويحك ، أتدرى ماالله ؟ إن عرشه على سمواته لهكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه ، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب » . قال ابن بشار فى حديثه : « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث . وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده . قال أبو داود والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح . وافقه عليه جماعة منهم يحيى ابن معين وعلى بن المدينى ، ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق كما قال أحمد أيضاً ، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار فى نسخة واحدة فيما بلغنى . تفرد بإخراجها أبو داود .

وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقى جزءاً فى الرد على هذا الحديث ، سماه : « بيان الوهم والتخليط الواقع فى حديث الأطيط »[4] واستفرغ وسعه فى الطعن على محمد بن إسحاق بن بشار راويه . وذكر كلام الناس فيه ، ولكن قد روى هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن إسحاق ، فرواه عبد بن حميد وابن جرير فى تفسيريهما ، وابن أبى عاصم والطبرانى فى كتابى السنة لهما ،

---

(١) أى غلظها وثخنها . (٢) جمع وعل : وهو تيس الجبل ، والمراد ملائكة على صورة الأوعال ، وهذا ماقيل فى تفسير قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . (٣) وفى رواية : وضاعت العيال .

(٤) الأطيط : صوت الرحل والإبل من ثقل أحمالها ، وهو أيضاً صوت النسع الجديد وصوت الباب .

والبزار فى مسنده ، والحافظ الضياء المقدسى فى مختاراته من طريق أبى إسحاق السبيعى عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت ادع الله أن يدخلنى الجنة ، قال : فعظم الرب تبارك وتعالى وقال : « إن كرسيه وسع السموات والأرض ، وإن له أطيطاً كأطيط الرحل الجديد من ثقله » . عبد الله بن خليفة هذا ليس بذاك المشهور . وفى سماعه من عمر نظر ، ثم منهم من يرويه موقوفاً ومرسلا ، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم .

وثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن » . يروى وفوقه بالفتح على الظرفية ، وبالضم . قال شيخنا الحافظ المزى وهو أحسن ، أى وأعلاها عرش الرحمن . وقد جاء فى بعض الآثار : أن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش وهو تسبيحه وتعظيمه ، وماذاك إلا لقربهم منه . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » ، وذكر الحافظ بن الحافظ محمد بن عثمان ابن أبى شيبة فى كتاب صفة العرش عن بعض السلف : أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة . وذكرنا عند قوله تعالى : (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[1]) أنه بعد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة واتساعه خمسون ألف سنة .

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ، ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير . وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت فى الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل . وأيضاً فإنه فوق الجنة والجنة فوق السموات وفيها مائة درجة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فالبعد الذى بينه وبين الكرسى ليس هو نسبة فلك إلى فلك . وأيضاً فإن العرش فى اللغة عبارة عن السرير الذى للملك كما قال تعالى : (ولها عرش عظيم) ، وليس هو فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك ، والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات . قال الله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا[2]) وقد تقدم فى حديث الأوعال أنهم ثمانية ، وفوق ظهورهن العرش ، وقال تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية[3]) .

وقال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » .

---

(١) الآية ٤ من سورة المعارج (٢) الآية ٧ من سورة غافر (٣) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، حدثنا عبدالله بن محمد حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عقبة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صدق أمية يعنى ابن أبى الصلت فى بيتين من شعره فقال :

رَجُل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله ﷺ : « صدق » . فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء مطلع لونها متورد

تأبى فلا تبدو لنا فى رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ « صدق » - فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات . وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة ، فيعارضه حديث الأوعال . اللهم إلا أن يقال إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لاينفى ماعداهم ، والله أعلم . ومن شعر أمية بن أبى الصلت فى العرش قوله :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرا

بالبناء العالى الذى بهر النا س وسوى فوق السماء سريرا

شرجعاً لا يناله بصر العيـ ن ترى حوله الملائك صورا

صور : جمع أصور ، وهو المائل العنق لنظره إلى العلو . والشرجع : هو العالى المنيف ، والسرير : هو العرش فى اللغة . ومن شعر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه الذى عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة كرام ملائكة الإله مسومينا

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثنى أبى حدثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » . ورواه ابن أبى عاصم [1] ولفظه مخفق الطير مسيرة سبعمائة عام .

---

(١) وفى نسخة : ابن أبى حاتم .

وأما الكرسي

فروى ابن جرير من طريق جويبر وهو ضعيف ـ عن الحسن البصرى أنه كان يقول : الكرسى هو العرش ، وهذا لايصح عن الحسن ، بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره ، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا فى قوله تعالى : (وسع كرسيه السموات والأرض) أى علمه ، والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم فى مستدركه ، وقال إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثورى عن عمار الدهنى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : الكرسى موضع القدمين ، والعرش لايقدر قدره إلا الله عز وجل . وقد رواه شجاع بن مخلد الفلاس فى تفسيره عن أبى عاصم النبيل عن الثورى فجعله مرفوعاً والصواب أنه موقوف على ابن عباس . وحكاه ابن جرير عن أبى موسى الأشعرى والضحاك بن مزاحم و إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ومسلم البطين . وقال السدى عن أبى مالك : الكرسى تحت العرش . وقال السدى : السموات والأرض فى جوف الكرسى والكرسى بين يدى العرش ، وروى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال : لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ما كن فى سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة فى المفازة .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد حدثنى أبى قال : قال رسول الله ﷺ : « ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس » قال : وقال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﷺ يقول : « ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض » أول الحديث مرسل ، وعن أبى ذر منقطع .

وقد روى عنه من طريق أخرى موصولا فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره : أخبرنا سليمان ابن أحمد الطبرانى ، أنبأنا عبد الله بن وهيب المغربى ، أنبأنا محمد بن أبى سرى العسقلانى ، أنبأنا محمد بن عبد الله التميمى عن القاسم بن محمد الثقفى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكرسى ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » .

وقال ابن جرير فى تاريخه : حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبى عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قوله عز وجل : (وكان عرشه على الماء) على أى شىء كان الماء ؟ قال : على متن الريح ، قال والسموات والأرضون وكل ما فيهن من شىء تحيط بها

البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ، ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسى . وروى عن وهب بن منبه نحوه ، وفسر وهب الهيكل فقال : شىء من أطراف السموات يحدق بالأرضين والبحار كأطناب[1] الفسطاط .

وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة ــ أن الكرسى عبارة عن الفلك الثامن الذى يسمونه فلك الكواكب الثوابت . وفيما زعموه نظر ؛ لأنه قد ثبت أنه أعظم من السموات السبع بشىء كثير ، وورد فى الحديث المتقدم بأن نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة ، وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك . فإن قال قائلهم فنحن : نعترف بذلك ونسميه مع ذلك فلكا فنقول : الكرسى ليس فى اللغة عبارة عن الفلك وإنما هو كما قال غير واحد من السلف — بين يدى العرش كالمرقاة إليه ، ومثل هذا لايكون فلكا . وزعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه . هذا مع اختلافهم فى ذلك أيضاً كما هو مقرر فى كتبهم والله أعلم .

ذكر اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس أن نبى الله ﷺ قال : « إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلثمائة لحظة ، يخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء » . وقال إسحاق بن بشر أخبرنى مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله ــ أدخله الجنة . قال : واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء ، طوله مابين السماء والأرض وعرضه مابين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك . وقال أنس بن مالك ، وغيره من السلف : اللوح المحفوظ فى جبهة إسرافيل . وقال مقاتل : هو عن يمين العرش .

باب ماورد فى خلق السموات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون[2]) وقال تعالى : (خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام[3]) فى غير ما آية من القرآن .

وقد اختلف المفسرون فى مقدار هذه الستة الأيام على قولين : فالجمهور على أنها كأيامنا هذه . وعن

---

(١) جمع طنب : وهو حبل تشد به الخيمة .

(٢) أول سورة الأنعام (٣) الآية ٤ من سورة السجدة .

ابن عباس ومجاهد والضحاك وكعب الأحبار : أن كل يوم منها كألف سنة مما تعدون ، رواهن ابن جرير وابن أبي حاتم . واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه الذى رد فيه على الجهمية ، وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم . وسيأتى مايدل على هذا القول . وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم وغيره — أن أسماء الأيام الستة : أبجد هوّز حُطّى كَلَمن سَعفص قَرَشت . وحكى ابن جرير فى أول الأيام ثلاثة أقوال : فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال : يقول أهل التوراة ابتدأ الله الخلق يوم الأحد ، ويقول أهل الإنجيل : ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين ، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ : «ابتدأ الخلق يوم السبت» . وهذا القول الذى حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم . وسيأتى فيه حديث أبى هريرة : «خلق الله التربة يوم السبت» والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدى عن أبى مالك ، وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن جماعة من الصحابة ، ورواه أيضاً عن عبد الله بن سلام ، واختاره ابن جرير ، وهو نص التوراة . ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء ، وهو أشبه بلفظ الأحد ، ولهذا كمل الخلق فى ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذه المسلمون عيدهم فى الأسبوع وهو اليوم الذى أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

وقال تعالى : (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم[١]) وقال تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم[٢]) .

فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء ، كما قال تعالى : (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين)[٣] وقال تعالى : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً) إلى أن قال : (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً)[٤] وقال : (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض

---

(١) الآية ٢٩ من سورة البقرة (٢) الآيات ٩ — ١٢ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٦٤ من سورة غافر (٤) الآيات ٦ — ١٣ من سورة عم يتساءلون

كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون [١]) أى فصلنا مابين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار ، وجرت العيون والأنهار ، وانتعش الحيوان . ثم قال : (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) أى عما خلق فيها من الكواكب الثوابت ، والسيارات الزاهرات والأجرام النيرات ، وما فى ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسموات كما قال تعالى : (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ✲ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) [٢] .

فأما قوله تعالى : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ✲ رفع سمكها فسواها ✲ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ✲ والأرض بعد ذلك دحاها ✲ أخرج منها ماءها ومرعاها ✲ والجبال أرساها ✲ متاعاً لكم ولأنعامكم) [٣] فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض ، فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة ، فإن مقتضى هذه الآية أن دحى الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء . وقد كان ذلك مقدراً فيها بالقوة كما قال تعالى : (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) [٤] أى هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار .

ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلى والعلوى ، دحى الأرض فأخرج منها ما كان مودعاً فيها ، فخرجت العيون وجرت الأنهار ، ونبت الزرع والثمار ، ولهذا فسر الدحى بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال : (والأرض بعد ذلك دحاها ✲ أخرج منها ماءها ومرعاها) ، وقوله : (والجبال أرساها) أى قررها فى أماكنها التى وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها ، وقوله : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ✲ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ✲ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) [٥] بأيد : أى بقوة ، وإنا لموسعون : وذلك أن كل ماعلا اتسع ، فكل سماء أعلى من التى تحتها فهى أوسع منها . ولهذا كان الكرسى أعلى من السموات ، وهو أوسع منهن كلهن ، والعرش أعظم من ذلك كله بكثير . وقوله بعد هذا : (والأرض فرشناها) أى بسطناها وجعلناها مهداً أى قارة ساكنة غير مضطربة ولامائدة بكم . ولهذا قال : (فنعم الماهدون) والواو لاتقتضى الترتيب فى الوقوع ، وإنما تقتضى الإخبار المطلق فى اللغة ، والله أعلم .

وقال البخارى : حدثنا عمر بن جعفر بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال : دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب

---

(١) الآية : ٣٠ من سورة الأنبياء (٢) الآيتان : ١٠٥ و١٠٦ من سورة يوسف (٣) الآيات : ٢٧ — ٣٢ من سورة النازعات (٤) الآية : ١٠ من سورة فصلت (٥) الآيات : ٤٧ — ٤٩ من سورة الذاريات .

فأتاه ناس من بنى تميم فقال : « اقبلوا البشرى يابنى تميم » قالوا قد بشرتنا فأعطنا مرتين ، ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال : « اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إن لم يقبلها بنى تميم » قالوا قد قبلنا يارسول الله ، قالوا جئناك نسألك عن هذا الأمر . قال : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض » فنادى مناد ذهبت ناقتك ياابن الحصين فانطلقت فإذا هى تقطع دونها السراب ، فوالله لوددت أنى كنت تركتها ، هكذا رواه ها هنا . وقد رواه فى كتاب المغازى وكتاب التوحيد وفى بعض ألفاظه : « ثم خلق السموات والأرض » وهو لفظ النسائى أيضاً .

وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا حجاج حدثنى ابن جريج أخبرنى إسماعيل بن أمية عن أيوب ابن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، آخر خلق خلق فى آخر ساعات من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » .

وهكذا رواه مسلم عن سريج بن يونس وهرون بن عبد الله والنسائى عن هرون ويوسف بن سعيد ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المصيصى الأعور عن ابن جريج به مثله سواء .

وقد رواه النسائى فى التفسير عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى عن محمد بن الصباح عن أبى عبيدة الحداد عن الأخضر بن عجلان عن ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ أخذ بيدى فقال : « ياأبا هريرة إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يوم السابع ، وخلق التربة يوم السبت » وذكر تمامه بنحوه ، فقد اختلف فيه على ابن جريج ، وقد تكلم فى هذا الحديث على ابن المدينى والبخارى والبيهقى وغيرهم من الحفاظ .

قال البخارى فى التاريخ : وقال بعضهم عن كعب وهو أصح ، يعنى أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأحبار فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث ، فهذا يحدثه عن صحفه ، وهذا يحدثه بما يصدقه عن النبى ﷺ ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه ، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعاً إلى النبى ﷺ ، وأكد رفعه بقوله : أخذ رسول الله ﷺ بيدى . ثم فى متنه غرابة شديدة : فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات ، وفيه ذكر خلق الأرض ومافيها فى سبعة أيام ، وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت فى أربعة أيام ، ثم خلقت السموات فى يومين من دخان [1] ؛ وهو بخار الماء الذى ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذى خلق من ربذة الأرض [2]

(١) اقرأ من سور فصلت : الآيات من ١٠ — ١٣ من قوله تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين — ذلك تقدير العزيز العليم) . (٢) كل قذر فيها.

بالقدرة العظيمة البالغة كما قال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير فى خبر ذكره عن أبى مالك ،

وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) قال إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعل سبع أرضين فى يومين : الأحد والاثنين ، وخلق الأرض على حوت وهو النون الذى قال الله تعالى فيه : (نٓ والقلم ومايسطرون) والحوت فى الماء ، والماء على صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة فى الريح . وهى الصخرة التى ذكرها لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض ، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت . وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب ، وفتق السماء وكانت رتقاً[١] فجعلها سبع سموات فى يومين : الخميس والجمعة .

وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض وأوحى فى كل سماء أمرها . ثم قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره ، ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً يحفظ من الشياطين ، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش .

هذا الإسناد يذكر به السدى أشياء كثيرة فيها غرابة ، وكان كثير منها متلقى من الإسرائيليات ، فإن كعب الأحبار لما أسلم فى زمن عمر كان يتحدث بين يدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له ، وتعجباً ، مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذى ورد به الشرع المطهر ، فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا ، ولما جاء من الإذن فى التحديث عن بنى إسرائيل . لكن كثيراً ما يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن معاوية أنه كان يقول فى كعب الأحبار : « وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[٢] » أى فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك والله أعلم .

ونحن نورد مانورده من الذى يسوقه كثيرمن كبار الأئمة المتقدمين عنهم ، ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ، ويبقى الباقى مما لا يصدق ولا يكذب ، وبه المستعان وعليه التكلان .

---

(١) ملتئمة ملتصقة . (٢) كان معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : « إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب » .

قال البخارى[١] : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشى عن أبى الزِّناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى » وكذا رواه مسلم والنسائى عن قتيبة به . ثم قال البخارى :

باب ماجاء فى سبع أرضين

وقوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير * وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً) ثم قال[٢] حدثنا على بن عبدالله أخبرنا ابن علية عن على بن المبارك حدثنا يحيى بن أبى كثير عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وكانت بينه وبين أناس خصومة فى أرض ، فدخل على عائشة فذكر لها ذلك ، فقالت : يا أبا سلمة اجتنب الأرض ، فإن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم قيد شبر طوّقه من سبع أرضين » .

ورواه أيضاً فى كتاب المظالم ومسلم من طرق عن يحيى بن كثير به . ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة به ، ورواه أيضاً عن يونس عن أبان عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عائشة بمثله .

ثم قال البخارى : حدثنا بشر بن محمد قال أخبرنا عبد الله عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال : قال النبى ﷺ : « من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » ، ورواه فى المظالم أيضاً عن مسلم بن إبراهيم عن عبد الله بن المبارك عن موسى بن عقبة به وهو من إفراده وذكر البخارى ها هنا حديث محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه ، قال قال رسول الله ﷺ : « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً . . الحديث[٣] » . ومراده والله أعلم تقرير قوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى فى العدد ، كما أن عدة الشهور الآن اثنا عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله فى كتابه الأول ، فهذه مطابقة فى الزمان كما أن تلك مطابقة فى المكان .

ثم قال البخارى : حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن سعيد بن زيد ابن عمر بن نفيل أنه خاصمته أروى[٤] فى حق زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان ، فقال سعيد رضى الله

---

(١) هذا الحديث وما بعده فى البخارى فى كتاب بدء الخلق .

(٢) أى البخارى .

(٣) تمامه : منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

(٤) هى بنت أويس ، ولا يدرى أصحابية هى أم تابعية ؟ .

عنه : أنا أنتقص من حقها شيئاً ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن لهيعة حدثنا عبد الله ابن أبى جعفر عن أبى عبد الرحمن عن ابن مسعود قال : « قلت يارسول الله أى الظلم أعظم ؟ قال : « ذراع من الأرض ينتقصه المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها » تفرد به أحمد وهذا إسناد لابأس به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم . وقال أحمد حدثنا يحيى عن ابن عجلان حدثنى أبى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع شبراً من الأرض بغير حقه طوقه إلى سبع أرضين » تفرد به أيضاً وهو على شرط مسلم . وقال أحمد أيضاً : حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به أيضاً . وقد رواه الطبرانى من حديث معاوية بن قرة عن ابن عباس مرفوعاً مثله .

فهذه الأحاديث كالمتواترة فى إثبات سبع أرضين ، والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتى تحتها فى وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهى الأمر إلى السابعة وهى صماء لاجوف لها ، وفى وسطها المركز وهى نقطة مقدرة متوهمة وهو محط الأثقال ، إليه ينتهى مايهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع .

واختلفوا هل هن متراكمات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتى تليها خلاء ؟ على قولين ، وهذا الخلاف جار فى الأفلاك أيضاً ، والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة ، لظاهر قوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن)[1] الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة فقال : « أتدرون ما هذه ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : العَنان[2] وزوايا الأرض تسوقه إلى من لايشكرونه من عباده ولايدعونه أتدرون ماهذه فوقكم ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : الرفيع موج مكفوف وسقف محفوظ ، أتدرون كم بينكم وبينها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال : أتدرون ماالذى فوقها ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال : مسيرة خمسمائة عام حتى عد سبع سموات . ثم قال : أتدرون مافوق ذلك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ؟ قال : العرش ،

---

(١) آخر سورة الطلاق . (٢) هى السحاب التى تمسك الماء .

أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : مسيرة خمسمائة عام . ثم قال : أتدرون ما هذه تحتكم ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : أرض ، أتدرون ما تحتها ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : أرض أخرى ، أتدرون كم بينهما ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ، ثم قال : وأيم الله لو دليتم أحدكم إلى الأرض السفلى السابعة لهبط » ثم قرأ : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة ، قال : حدث الحسن عن أبى هريرة وذكره ، إلا أنه ذكر أن بعد ما بين كل أرضين خمسمائة عام ، وذكر فى آخره كلمة [1] ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد ، ثم قال الترمذى هذا حديث غريب من هذا الوجه .

قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد أنهم قالوا لم يسمع الحسن من أبى هريرة . ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره من حديث أبى جعفر الرازى عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة فذكر مثل لفظ الترمذى سواء بدون زيادة فى آخره . ورواه ابن جرير فى تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة مرسلا ، وقد يكون هذا أشبه والله أعلم . ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى من حديث أبى ذر الغفارى عن النبى ﷺ ولكن لا يصح إسناده والله أعلم .

وقد تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال ما يخالف هذا فى ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له ، وفيه : وبعد ما بين كل سماءين خمسمائة عام ، وكثفها — أى سمكها — خمسمائة عام . وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث : « طوقه من سبع أرضين » ـ أنها سبعة أقاليم فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح ، وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذى أوردناه من طريق الحسن عن أبى هريرة . ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم .

وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتى تحتها من حديد ، والأخرى من حجارة من كبريت ، والأخرى من كذا . فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم — فهو مردود على قائله . وهكذا الأثر المروى عن ابن عباس أنه قال : فى كل أرض من الخلق مثل ما فى هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم — فهذا ذكره ابن جرير مختصراً واستقصاه البيهقى فى الأسماء والصفات ، وهو محمول — إن صح نقله عنه — على أنه أخذه ابن عباس رضى الله عنه عن الإسرائيليات والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت ،

---

(١) نصها « والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ هو الأول والآخر الخ » .

فتعجبت الملائكة من خلق الجبال ، فقالت يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد ، قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار ، قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم الريح ، قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله » تفرد به أحمد .

وقد ذكر أصحاب الهيئة أعداد جبال الأرض فى سائر بقاعها شرقاً وغرباً ، وذكروا طولها و بعد امتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول فى ذلك بما يطول شرحه هنا . وقد قال الله تعالى : (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود)(١) . قال ابن عباس وغير واحد : الجدد : الطرائق ، وقال عكرمة وغيره : الغرابيب الجبال الطوال السود . وهذا هو المشاهد الجبال فى سائر الأرض ، تختلف باختلاف بقاعها وألوانها . وقد ذكر الله تعالى فى كتابه : (الجودى) على التعين وهو جبل عظيم شرقى جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل ، امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام ، وارتفاعه مسيرة نصف يوم ، وهو أخضر لأن فيه شجراً من البلوط ، و إلى جانبه قرية يقال لها قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا فى السفينة مع نوح عليه السلام فى موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، والله أعلم .

فصل فى البحار والأنهار

قال الله تعالى : (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ۞ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ۞ وعلامات و بالنجم هم يهتدون ۞ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ۞ وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم)(٢) ، وقال تعالى : (ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)(٣) وقال تعالى : (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً)(٤) ، وقال تعالى : (مرج البحرين يلتقيان ۞ بينهما برزخ لايبغيان)(٥) فالمراد بالبحرين البحر الملح المر وهو الأجاج ، والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد ، قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة ، وقال تعالى : (ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ۞ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ۞ أو يو بقهن بما كسبوا و يعفو عن كثير)(٦) ، وقال تعالى : (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم

---

(١) الآية ٢٧ من سورة فاطر
(٢) الآيات ١٤ — ١٨ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٢ من سورة فاطر
(٤) الآية ٥٣ من سورة الفرقان .
(٥) الآيتان ١٩ — ٢٠ من سورة الرحمن
(٦) الآيات ٣٢ — ٣٤ من سورة الشورى .

من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور * وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختال كفور)[١] ، وقال تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[٢] . فامتن تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار . فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض ومايتبت منه فى جوانبها الجميع مالح الطعم مر ، وفى هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء ، إذ لو كان حلواً لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب مايموت فيه من الحيوانات ، فكان يؤدى إلى تفانى بنى آدم ، ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة ، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن البحر قال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

وأما الأنهار فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى فى أرض ويسوقها إلى أخرى رزقاً للعباد ، ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة . وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها ، و إلى أين ينتهى سيرها — بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى وأنه فاعل بالاختيار والحكمة . وقوله تعالى : (والبحر المسجور) فيه قولان : أحدهما أن المراد به البحر الذى تحت العرش المذكور فى حديث الأوعال ، وأنه فوق السموات السبع ، بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ، وهو الذى ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها . وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس . والثانى أن البحر اسم جنس يعم سائر البحار التى فى الأرض وهو قول الجمهور .

واختلفوا فى معنى البحر المسجور : فقيل المملوء ، وقيل يصير يوم القيامة ناراً تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه فى التفسير عن على وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم . وقيل : المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا ، رواه الوالبى عن ابن عباس وهو قول السدى وغيره . ويؤيده الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثنى شيخ كان مرابطاً بالساحل قال : لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله عز وجل أن يتفصح[٣] عليهم ، فيكفه الله عز وجل» . ورواه إسحاق بن راهويه عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب ، حدثنى شيخ مرابط قال : خرجت ليلة لمحرس لم يخرج أحد من المحرس غيرى ، فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل إلى أن البحر يشرف يحاذى برءوس الجبال ، فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ فلقيت

---

(١) الآيتان : ٣١و٣٢ من سورة لقمان (٢) الآية : ١٦٤ من سورة البقرة (٣) أى يتكلم ويفصح .

أبا صالح فقال : حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول ﷺ قال : « مامن ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل » فى إسناده رجل مبهم [1] والله أعلم .

وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغى عليهم ، و ،سخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها ، وهداهم فيه بما خلقه فى السماء والأرض من النجوم والجبال التى جعلها لهم علامات يهتدون بها فى سيرهم ، وبما خلق لهم فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التى لا توجد إلا فيه ، وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى : (أحل لكم صيد البحر وطعامه) [2] ، وقال النبى ﷺ : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » . وفى الحديث الآخر : « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » رواه أحمد وابن ماجة وفى إسناده نظر .

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : وجدت فى كتاب عن محمد بن معاوية البغدادى ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رفعه قال : « كلم الله هذا البحر الغربى ، وكلم البحر الشرقى ، فقال للغربى : إنى حامل فيك عباداً من عبادى فكيف أنت صانع بهم ؟ قال أغرقهم ، قال بأسك فى نواحيك وحرمه الحلية والصيد . وكلم هذا البحر الشرقى فقال : إنى حامل فيك عباداً من عبادى فما أنت صانع بهم ؟ قال أحملهم على يدى ، وأكون لهم كالوالدة لولدها ، فأثابه الحلية والصيد » ، ثم قال : لا نعلم أحداً ، ماروه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر وهو منكر الحديث .

قال : وقد رواه سهيل عن عبد الرحمن بن أبى عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفاً . قلت الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه ؛ فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زبيلين [3] مملوءين كتباً من علوم أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات ، منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود . فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبدالله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدنى قاضيها . قال فيه الإمام أحمد ليس بشىء ، وقد سمعته منه ثم مزقت حديثه ، كان كذاباً وأحاديثه مناكير . وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبوحاتم والجوزجانى والبخارى وأبو داود والنسانى ، وقال ابن عدى : عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر .

قال علماء التفسير المتكلمون على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات ، وما فى الأرض من المدن والخراب والعمارات ، والأقاليم السبعة الحقيقية فى اصطلاحهم ، والأقاليم المتعددة العرفية

---

(١) فى نسخة : متهم . (٢) الآية : ٩٦ من سورة المائدة . (٣) الزبيل : القفة أو الجراب أو الوعاء .

ومافى البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات ، وما يوجد فى كل قطر من صنوف المعادن والتجارات ، قالوا الأرض مغمورة بالماء العظيم إلامقدار الربع منها وهو تسعون درجة ، والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وتنبت الزروع والثمار منها كما قال تعالى : (والأرض وضعها للأنام ✲ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ✲ والحب ذو العصف والريحان ✲ فبأى آلاء ربكما تكذبان[1]) .

قالوا : المعمور من هذا البادى منها — قريب الثلثين منه أو أكثر قليلا ، وهو خمس وتسعون درجة . قالوا فالبحر المحيط الغربى — ويقال له أوقيانوس وهو الذى يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات ، وبينها وبين ساحله عشر درج مسافة شهر تقريباً ، وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة موجه واختلاف مافيه من الرياح والأمواج ، وليس فيه صيد ولا يستخرج منه شىء ، ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره ، وهو آخذ فى ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القمر ، ويقال جبال القمر التى منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الاستواء . ثم يمتد شرقاً ويصير جنوبى الأرض ، وفيه هناك جزائر الزابج وعلى سواحله خراب كثير . ثم يمتد شرقاً وشمالا حتى يتصل ببحر الصين والهند . ثم يمتد شرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة ، وهناك بلاد الصين . ثم ينعطف فى شرق الصين إلى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين ، ويسامت سد يأجوج ومأجوج . ثم ينعطف ويستدير على أراضى غير معلومة الأحوال . ثم يمتد مغرباً فى شمال الأرض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ، ويعطف مغرباً وجنوباً ويستدير على الأرض ويعود إلى جهة الغرب ، وينبثق من الغربى إلى متن الأرض الزقاق الذى ينتهى أقصاه إلى أطراف الشام من الغرب ، ثم يأخذ فى بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم .

وينبعث من المحيط الشرقى بحار أخر فيها جزائر كثيرة ، حتى إنه يقال إن فى بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة ، فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ، ويقال لها البحر الأخضر ، فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن ، وشماله بحر الهند ، وجنوبيه غير معلوم .

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالا فاصلة بينهما ، وفيها فجاج تسلك المراكب بينها ، يسيرها لهم الذى خلقها ، كما جعل مثلها فى البر أيضاً قال الله تعالى : (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون[2]) .

وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند فى كتابه المسمى بالمجسطى الذى عرب فى زمان المأمون — وهو أصل هذه العلوم — أن البحار المتفجرة من المحيط الغربى والشرقى والجنوبى والشمالى كثيرة جداً ؛ فمنها ماهو واحد ، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له ؛ فمن ذلك بحر القلزم — والقلزم قرية على ساحله قريبة من أيلة ، وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر الروم ، وبحر بنطش وبحر الأزرق مدينة

---

(١) الآيات ١٠ — ١٣ من سورة الرحمن (٢) الآية ٣١ من سورة الأنبياء .

على ساحله وهو بحر القرم أيضاً ، ويتضايق حتى يصب فى بحر الروم عند جنوبى القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية ، ولهذا تسرع المراكب فى سيرها من القرم إلى بحر الروم ، وتبطىء إذا جاءت من الإسكندرية إلى القرم لاستقبالها جريان الماء . وهذا من العجائب فى الدنيا ، فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا ، وكل بحر راكد فهو ملح أجاج ، إلا مايذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان و بحر طبرستان — أن فيه قطعة كبيرة ماء حلواً فراتاً على ماأخبر به المسافرون عنه .

قال أهل الهيئة : وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول . وقيل : إنه مثلث كالقلع وليس هو متصلا بشىء من البحر المحيط بل منفرد وحده ، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة ، وقيل أكثر من ذلك والله أعلم .

ومن ذلك البحر الذى يخرج منه المد والجزر عند البصرة ، وفى بلاد المغرب نظيره أيضاً يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال فى زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد ، ثم يشرع فى النقص وهو الجزر إلى آخر الشهر . وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها ومنتهاها ، وذكروا مافى الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهى البطائح .

وذكروا مافى الأرض من الأنهار المشهورة الكبار ، وذكروا ابتداءها وانتهاءها ، ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه ، وإنما نتكلم على مايتعلق بالأنهار الوارد ذكرها فى الحديث . وقد قال الله تعالى : (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ٭ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ٭ وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار[1]) . ففى الصحيحين من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ لما ذكر سدرة المنتهى قال : « فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران ؛ فأما الباطنان : ففى الجنة ، وأما الظاهران : فالنيل والفرات » . وفى لفظ فى البخارى وعنصرهما أى مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما ونعتهما وليس ، فى الدنيا مما فى الجنة إلا سماوية . وفى صحيح مسلم من حديث عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير و يزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فجرت أربعة أنهار من الجنة : الفرات والنيل وسيحان وجيحان » وهذا إسناد

---

(١) الآيات ٣٢ — ٣٤ من سورة إبراهيم .

صحيح على شرط مسلم . وكأن المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة فى صفائها وعذوبتها وجريانها ، ومن جنس تلك فى هـذه الصفات ونحوها ، كما قال فى الحديث الآخر الذى رواه الترمذى وصححه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم » أى تشبه ثمر الجنة لأنها مجتناة من الجنة ، فإن الحس يشهد بخلاف ذلك ، فتعين أن المراد غيره وكذا قوله ﷺ : « الحمّى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » . وكذا قوله : « إذا اشتدت الحمى فأبردوها بالماء فإن شدة الحر من فيح جهنم » ☆ وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض .

أما النيل : وهو النهر الذى ليس فى أنهار الدنيا له نظير فى خفته ولطافته ، و بعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه — فمبتداه من الجبال القمر أى البيض ، ومنهم من يقول : جبال القمر بالإضافة إلى الكواكب وهى فى غربى الأرض وراء خط الاستواء إلى الجانب الجنوبى . ويقال إنها حمر ينبع من بينها عيون ، ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة ، ثم يجتمع كل خمسة منهـا فى بحر ، ثم يخرج منها أنهار ستة ، ثم تجتمع كلها فى بحيرة أخرى ، ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان والحبشة ، ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة[1] ، ثم على أسوان ثم يفد على ديار مصر . وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها واجترف من ترابها ، وهى محتاجة إليهما معاً لأن مطرها قليل لا يكفى زروعها وأشجارها ، وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجىء النيل بزيادته وطينه فينبت فيه مايحتاجون إليه وهى من أحق الأراضى بدخولها فى قوله تعالى : (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون)[2] ، ثم يجاوز النيل مصر قليلا فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطنوف ؛ فيمر الغربى على رشيد و يصب فى البحر ، المالح ، وأما الشرقى فيفترق أيضاً عند جوجر فرقتين ، تمر الغربية منهما على دمياط من غربيها و يصب فى البحر والشرقية منهما تمر على « أشمون طناح » فيصب هناك فى بحيرة شرقى دمياط يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط . وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه ، ولهذا كان ألطف المياه .

قال ابن سينا له خصوصيات دون مياه سائر الأرض ، فمنها : أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه ومنها : أنه يجرى على صخور ورمال ليس فيه خثر[3] ولا طحاب ولا أوحال ، ومنها : أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة ، وماذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته ، ومنها : أن زيادته فى أيام نقصان سائر الأنهار ، ونقصانه فى أيام زيادتها وكثرتها . وأما ما يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان

---

(١) المعروفة الآن باسم دنقلة . (٢) الآية ٢٧ من سورة السجدة (٣) أى نتن .

مرتفع اطلع عليه بعض الناس ، فرأى هناك هولا عظيما وجوارى حسانا وأشياء غريبة ، وأن الذى اطلع على ذلك لا يمكنه الـكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين .

وقد قال عبد الله بن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال : لما فتح عمرو بن العاصى مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤنة من أشهر العجم « القبطية » فقالوا أيها الأمير : إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان لثنتى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر — عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل مايكون ثم ألقيناها فى هذا النيل ، فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله ، فأقاموا بؤنة والنيل لا يجرى لا قليلا ولا كثيراً . وفى رواية فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجرى حتى هموا بالجلاء ، فـكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فـكتب إليه عمر : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وإنى قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابى هذا فألقها فى النيل ، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد : فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك . فألقى عمرو البطاقة فى النيل فأصبح يوم السبت [1] وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم .

وأما الفرات فأصلها من شمالى أرزن الروم ، فتمر إلى قرب ملطية ، ثم تمر على شميشاط ، ثم على البيرة قبليها ، ثم تشرق إلى بالس [2] وقلعة جعبر ، ثم الرقة ثم إلى الرحبة شماليها ، ثم إلى عانة ثم إلى هيت ثم إلى الـكوفة ، ثم تخرج إلى فضاء العراق ويصب فى بطائح كبار أى بحيرات ، وترد إليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة .

وأما سيحان : ويقال له سيحون أيضاً ، فأوله من بلاد الروم ويجرى من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق وهو غربى مجرى جيحان ودونه فى القدر ، وهو ببلاد الأرض التى تعرف اليوم ببلاد سيس [3] ، وقد كانت فى أول الدولة الإسلامية فى أيدى المسلمين ، فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملـكوا الشام وأعمالها ، عجزوا عن صونها عن الأعداء فتغلب تقفور الأرمنى على هذه البلاد ، أعنى بلاد سيس فى حدود الثلاثمائة وإلى يومنا هذا ، والله المسؤل عودها إلينا بحوله وقوته . ثم يجتمع سيحان وجيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً ، ثم يصبان فى بحر الروم بين أياس وطرسوس .

---

(١) الذى فى حسن المحاضرة للسيوطى : فألقى عمر البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً . وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر .

(٢) بلدة بين حلب والرقة لها وقائع تاريخية .

(٣) الذى فى القاموس : سيسة ولا تقل سيس ، بلد بين أنطاكية وطرسوس .

وأما جيحان : ويقال له جيحون أيضاً ، وتسميه العامة جاهان ، وأصله فى بلاد الروم ويسير فى بلاد سيسة من الشمال إلى الجنوب ، وهو يقارب الفرات فى القدر ، ثم يجتمع هو وسيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً ، ثم يصبان فى البحر عند أياس وطرسوس والله أعلم .

فصـــل

قال الله تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ٭ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ٭ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)(١) وقال تعالى : (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ٭ أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون)(٢) ، وقال تعالى : (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ٭ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ٭ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)(٣) .

فذكر تعالى ما خلق فى الأرض من الجبال والأشجار ، والثمار والسهول والأوعار ، وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات فى البرارى والقفار ، والبر والبحار — مايدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه ، وما سهل لكل دابة من الرزق الذى هى محتاجة إليه فى ليلها ونهارها ، وصيفها وشتائها ، وصباحها ومسائها ، كما قال تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين)(٤) . وقد روى الحافظ أبو يعلى عن محمد بن المثنى عن عبيد بن واقد عن محمد بن عيسى بن كيسان عن محمد بن المنكدر عن جابر عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خلق الله ألف أمة ، منها ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر ، وأول شىء يهلك من هذه الأمم الجراد ، فإذا هلك تتابعت مثل النظام(٥) إذا قطع سلكه » .

---

(١) الآيات ٢ — ٤ من سورة الرعد (٢) الآيتان ٦٠ و٦١ من سورة النمل .
(٣) الآيات ١٠ — ١٣ من سورة النحل (٤) الآية ٦ من سورة هود .
(٥) النظام : كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه .

« عبيد بن واقد » أبو عباد البصرى ضعفه أبو حاتم ، وقال ابن عدى : عامة ما يرويه لايتابع عليه وشيخه أضعف منه . قال الفلاس والبخارى : منكر الحديث ، وقال أبو زرعة : لاينبغى أن يحدث عنه ، وضعفه ابن حبان والدارقطنى ، وأنكر عليه ابن عدى هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم .

وقال تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، مافرطنا فى الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون)(١) .

باب ذكر مايتعلق بخلق السموات ومافيهن من الآيات

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى : (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم)(٢) ، وقال تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم)(٣) ، وقال تعالى : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها)(٤) فإن الدحى غير الخلق وهو بعد خلق السماء . وقال تعالى : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين * وأعتدنا لهم عذاب السعير(٥)) ، وقال تعالى : (و بنينا فوقكم سبعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً)(٦) ، وقال تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً)(٧) ، وقال تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً)(٨) ، وقال تعالى : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً * وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً)(٩) ، وقال تعالى : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لايسمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)(١٠) وقال تعالى : (ولقد

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الأنعام (٢) الآية ٢٩ من سورة البقرة (٣) سورة فصلت .
(٤) سورة النازعات (٥) سورة تبارك (٦) سورة النبأ (٧) سورة نوح (٨) آخر سورة الطلاق .
(٩) الآيتان ٦١و٦٢ من سورة الفرقان (١٠) الآيات ٦ — ١٠ من سورة الصافات .

جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)[١]، وقال تعالى : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون)[٢]، وقال تعالى : (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) وقال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)[٣]، وقال تعالى : (فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون)[٤]، وقال تعالى : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين)[٥].

والآيات فى هذا كثيرة جداً وقد تكلمنا على كل منها فى التفسير .

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السموات وعظمة اتساعها وارتفاعها ، وأنها فى غاية الحسن والبهاء ، والكمال والسناء ، كما قال تعالى : (والسماء ذات الحبك) . أى الخلق الحسن ، وقال تعالى : (فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير)[٦] أى خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللا ، وهو حسير : أى كليل ضعيف ، ولو نظر حتى يعى ويكل ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب ، لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كما قال : (والسماء ذات البروج) أى النجوم . وقيل محال الحرس التى يرمى منها بالشهب لمسترق السمع ، ولا منافاة بين القولين . وقال تعالى : (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم) فذكر أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات «الشمس والقمر والنجوم الزاهرات» ، وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا زينة معنى ، فقال : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) كما قال : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمّعون إلى الملأ الأعلى)[٧].

وقال البخارى فى كتاب بدء الخلق : وقال قتادة (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) خلق هذه النجوم لثلاث : جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول بغير ذلك فقد أخطأ ، وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . وهذا الذى قاله قتادة مصرح به فى قوله تعالى : (ولقد زينا

---

(١) الآيات : ١٦ — ١٨ من سورة الحجر (٢) الآية : ٤٧ من سورة الذاريات (٣) الآيات : ٣٨ — ٤٠ من سورة يس (٤) الآيتان : ٩٦ و ٩٧ من سورة الأنعام (٥) الآية : ٥٤ من سورة الأعراف .
(٦) سورة تبارك (٧) سورة الصافات .

السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) ، وقال تعالى : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) فمن تكلف غير هذه الثلاث — أى من علم أحكام ماتدل عليه حركاتها ومقارناتها فى سيرها ، وأن ذلك يدل على حوادث أرضية — فقد أخطأ . وذلك أن أكثر كلامهم فى هذا الباب ليس فيه إلا حدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة . وذكر تعالى أنه خلق سبع سموات طباقاً — أى واحدة فوق واحدة .

واختلف أصحاب الهيئة هل هن متراكمات أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ على قولين . والصحيح الثانى لما قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة عن الأحنف عن العباس فى حديث الأوعال أن رسول الله ﷺ قال : « أندرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا الله و رسوله أعلم ، قال : بينهما مسيرة خمسمائة عام ، ومن كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء خمسمائة سنة » الحديث بتمامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذى وحسنه . وفى الصحيحين من حديث أنس فى حديث الإسراء قال فيه : « ووجد فى السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، وقال مرحباً وأهلا بابنى ، نعم الابن أنت — إلى أن قال : « ثم عرج إلى السماء الثانية » وكذا ذكر فى الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة . فدل على التفاصل بينها لقوله « ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا ؟ » الحديث وهذا يدل على ماقلناه والله أعلم .

وقد حكى ابن حزم وابن المنير وأبو الفرج بن الجوزى وغير واحد من العلماء — الإجماع على أن السموات كرة مستديرة . واستدل على ذلك بقوله : (كل فى فلك يسبحون) قال الحسن : يدورون ، وقال ابن عباس : فى فلكة مثل فلكة المغزل . قالوا و يدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع فى آخرها من المشرق ، كما قال أمية بن أبى الصلت[1] .

والشمس تطلع كل آخر ليلة   حمراء مطلع لونها متورد

تأبى فلا تبدو لنا فى رسلها   إلا معذبة وإلا تجلد

فأما الحديث الذى رواه البخارى حيث قال : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس :

---

(١) شاعر مخضرم من شعراء ثقيف ، يتميز شعره بالسهولة والدخيل من الألفاظ ، وتناول الأساطير والأمور الدينية مع الحكم والمدح ، واسم أبى الصلت : عبد الله بن أبى ربيعة . نشأ بالطائف وتعبد وتلمس المعارف الدينية ولبس المسوح . وكان يرجو أن يكون نبى العرب الموعود به ، فلما بعث النبى عليه السلام حقد عليه وحسده وقال : كنت أرجو أن أكونه ، وناضله مع أعدائه حتى مات بالطائف سنة ٩ هـ ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) سورة الأعراف .

« أتدرى أين تذهب ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، و يوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها » فذلك قوله تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) .

هذا لفظه فى بدء الخلق ورواه فى التفسير ، وفى التوحيد من حديث الأعمش أيضاً ، ورواه مسلم فى الأيمان من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد ، وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة ، كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه عن أبى ذر به نحوه ، وقال الترمذى حسن صحيح .

إذا علم هذا — فإنه حديث لايعارض ماذكرناه من استدارة الأفلاك التى هى السموات على أشهر القولين . ولا يدل على كرية العرش كما زعمه زاعمون ، وقد أبطلنا قولهم فيما سلف . ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السموات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش ، بل هى تغرب عن أعيننا وهى مستمرة فى فلكها الذى هى فيه ، وهو الرابع فيما قاله غير واحد عن علماء التفسير . وليس فى الشرع ماينفيه بل فى الحس — وهو الكسوفات — مايدل عليه و يقتضيه ، فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه — وهو وقت نصف الليل مثلا فى اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبى والشمالى — فإنها تكون أبعد مايكون من العرش ؛ لأنه مقبب من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كما يناسبها ، كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا ، فإذا كانت فى محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله فى طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق ، وهى مع ذلك كارهة لعصاة بنى آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية :

تأبى فلا تبدو لنا فى رسلها   إلا معــــذبة وإلا تجلد

فإذا كان الوقت الذى يريد الله طلوعها من جهة مغربها — تسجد على عادتها وتستأذن فى الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها ، فجاء أنها تسجد أيضاً ثم تستأذن فلا يؤذن لها ، ثم تسجد فلا يؤذن لها ، وتطول تلك الليلة كما ذكرنا فى التفسير ، فتقول يارب إن الفجر قد اقترب و إن المدى بعيد ، فيقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا جميعاً وذلك حين (لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً) ، وفسروا بذلك قوله تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها) قيل لوقتها الذى تؤمر فيه تطلع من مغربها ، وقيل مستقرها موضعها الذى تسجد فيه تحت العرش ، وقيل منتهى سيرها وهو آخر الدنيا .

وعن ابن عباس أنه قرأ (والشمس تجرى لامستقر لها) أى ليست تستقر ، فعلى هذا تسجد وهى سائرة . ولهذا قال تعالى : (لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) أى لاتدرك الشمس القمر فتطلع فى سلطانه ودولته ، ولا هو أيضاً ، ولا الليل سابق النهار

أى ليس سابقه بمسافة يتأخر ذلك عنه فيها ، بل إذا ذهب النهار جاء الليل فى إثره متعقباً له ، كما قال فى الآية الأخرى : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين)(١) .

وقال تعالى : (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا(٢)) أى يخلف هذا لهذا وهذا لهذا ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » . فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرهما ، ولهذا قال تعالى : (يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى(٣) » فيولج من هذا فى هذا ، أى يأخذ من طول هذا فى قصر هذا فيعتدلان كما فى أول فصل الربيع : يكون الليل قبل ذلك طويلا والنهار قصيراً ، فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع . ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقص حتى يعتدلا أيضاً فى أول فصل الخريف . ثم يشرع الليل يطول و يقصر النهار إلى آخر فصل الخريف . ثم يترجح النهار قليلا قليلا ويتناقص الليل شيئاً فشيئاً حتى يعتدلا فى أول فصل الربيع كما قدمنا ، وهكذا فى كل عام . ولهذا قال تعالى : (وله اختلاف الليل والنهار) أى هو المتصرف فى ذلك كله ، الحاكم الذى لا يخالف ولا يمانع ، ولهذا يقول فى ثلاث آيات عند ذكر السموات والنجوم والليل والنهار : (ذلك تقدير العزيز العليم) أى العزيز الذى قد قهر كل شىء ، ودان له كل شىء فلا يمانع ولايغالب ، العليم بكل شىء ، فقدر كل شىء تقديراً على نظام لايختلف ولايضطرب .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » وفى رواية : « فأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » .

قال العلماء كالشافعى وأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرهما : يسب الدهر ، أى يقول فعل بنا الدهر كذا ، ياخيبة الدهر : أيتم الأولاد ، وأرمل النساء . قال الله تعالى : « وأنا الدهر » أى أنا الدهر الذى يعنيه ، فإنه فاعل ذلك الذى أسنده إلى الدهر والدهر مخلوق ، و إنما فعل هذا هو الله فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر ، والله هو الفاعل لذلك ، الخالق لكل شىء ، المتصرف فى كل شىء كما قال : «وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب ليله ونهاره» ، وكما قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ✲ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب)(٤) . وقال

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الأعراف (٢) الآية ٦٢ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ١٣ من سورة فاطر (٤) الآيتان ٢٧ — ٢٨ من سورة آل عمران .

تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ✲ إن فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون)[1] أى فاوت بين الشمس والقمر فى نورهما وفى شكلهما وفى وقتهما وفى سيرهما ؛ فجعل هذا ضياء : وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر ، والقمر نوراً : أى أضعف من برهان الشمس وجعله مستفاداً من ضوئها ، وقدره منازل : أى يطلع أول ليلة من الشهر صغيراً ضئيلا قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها ، فبقدر مقابلته لهايكون نوره ، ولهذا فى الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان فى الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة ، ثم كلما بعد ازدادنوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق ، وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر . ثم يشرع فى النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر ، فيستتر حتى يعود كما بدأ فى أول الشهر الثانى . فبه تعرف الشهور ، وبالشمس تعرف الليالى والأيام ، وبذلك تعرف السنين والأعوام ، ولهذا قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا)[2] وقال تعالى : (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج)[3] .

وقد بسطنا القول على هذا كله فى التفسير . فالكواكب التى فى السماء : منها سيارات وهى المتحيرة فى اصطلاح علماء التفسير ، وهو علم غالبه صحيح ، بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل ودعوى لا دليل عليه ، وهى سبعة : القمر فى سماء الدنيا ، وعطارد فى الثانية ، والزهرة فى الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشترى فى السادسة ، وزحل فى السابعة . وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهى عندهم فى الفلك الثامن وهو الكرسى فى اصطلاح كثير من المتأخرين . وقال آخرون : بل الكواكب كلها فى السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض .

وقد يستدل على هذا بقوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين)[4] وبقوله : (فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرهاوزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم)[5] ، فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب ، فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك ، وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون . والله أعلم .

وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت ، والسيارات تدور

---

(١) الآيتان ٦ و٧ من سورة يونس (٢) الآية ١٣ من سورة الأسراء (٣) الآية ١٨٩ من سورة البقرة .
(٤) سورة الملك (٥) الآية ١٣ من سورة فصلت .

على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق ؛ فالقمر يقطع فلكه فى شهر ، والشمس تقطع فلكها وهو الرابع فى سنة ، فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحركاتهما متقاربة — كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتى عشرة مرة ، وزحل يقطع فلكه وهو السابع فى ثلاثين سنة ، فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة .

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها ، وتوسعوا فى هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ، ومما لاعلم لكثير منهم به . وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور — لهم فى هذا كلام كثير يطول بسطه ، وهم الذين بنوا مدينة دمشق ، وجعلوا لها أبواباً سبعة ، وجعلوا على رأس كل باب هيكلا على صفة الكواكب السبعة ، يعبدون كل واحد فى هيكله ، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم .

وذكره صاحب السر المكتوم فى مخاطبة الشمس والقمر والنجوم وغيره من علماء الحرنانيين [١] « فلاسفة حران فى قديم الزمان » . وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة ، وهم طائفة من الصابئين ، ولهذا قال الله تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون [٢]) . وقال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان عليه السلام مخبراً عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ فى اليمن وما والاها : (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ✽ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ✽ أن لايسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون ✽ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) [٣] . وقال تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء [٤]) . وقال تعالى : (أولم يروا إلى ماخلق الله من شىء يتفيؤ اظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ✽ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون ✽ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون [٥]) . وقال تعالى : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال [٦]) . وقال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء

---

(١) نسبة إلى حران على غير قياس ، والقياس حرانى

(٢) الآية : ٣٨ من سورة فصلت .

(٣) الآيات : ٢٤ — ٢٧ من سورة النمل

(٤) الآية : ١٩ من سورة الحج .

(٥) الآيات : ٤٨ : ٥١ من سورة النحل

(٦) الآية : ١٧ من سورة الرعد .

إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً [١]) . والآيات فى هذا كثيرة جداً .

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة فى السموات والأرض هى الكواكب ، وأشرفهن منظراً وأشرفهن معتبراً الشمس والقمر — استدل الخليل على بطلان آلهية شئ منهن ، وذلك فى قوله تعالى : (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين) أى الغائبين (فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برئ مما تشركون ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وماأنا من المشركين [٢]) فبين بطريق البرهان القطعى أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس — لايصلح شئ للآلهية ، لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة فى سيرها ، لاتحيد عما خلقت له ، ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لاتضطرب ولا تختلف ، وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ، ولهذا قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون [٣]) .

وثبت فى الصحيحين فى صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يومئذ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل وإنهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

وقال البخارى فى بدء الخلق : حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا عبد الله الداناج حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الشمس والقمر مكوران يوم القيامة » انفرد به البخارى .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق ، فقال حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادى حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبد العزيز بن المختار عن عبد الله الداناج سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسرى فى هذا المسجد — مسجد الكوفة — وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال : حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشمس والقمر ثوران فى النار يوم القيامة » فقال الحسن وما دينهما ؟ فقال أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول وما دينهما ؟ ثم قال البزار : لايروى عن أبى هريرة إلا من هذا الوجه ، ولم يرو عبد الله الداناج عن أبى سلمة سوى هذا الحديث .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى من طريق يزيد الرقاشى وهو ضعيف عن أنس قال : قال رسول

---

(١) الآية : ٤٤ من سورة الإسراء . (٢) الآيات : ٧٧ — ٨٠ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٨ من سورة فصلت .

الله ﷺ « الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأزدى حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن شيخ من بجيلة عن ابن عباس (إذا الشمس كورت) قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً ، فدلت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله لما أراد ، ثم يفعل فيها مايشاء ، وله الحجة الدافعة والحكمة البالغة ، فلا يسأل عما يفعل لعلمه وقدرته ومشيئته النافذة ، وحكمه الذى لا يرد ولا يمانع ولا يغالب . وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فى أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل فى خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك . قال ابن هشام هى لأمية بن أبى الصلت :

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا ... وقولا رضياً لا ينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه ... إله ولا رب يكون مدانيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لا تخفى من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانيك[1] إن الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهى ربنا ورجائيا
رضيت بك اللهم رباً فلن أرى ... أدين إلهاً غيرك اللهُ ثانيا
وأنت الذى من فضل مَنٍّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له اذهب وهرونُ فادعوَا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له : أأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له : أأنت رفعت هذه ... بلا عمد ارفق إذاً بك بانيا
وقولا له : أنت سويت وسطها ... منيراً إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له : من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له : من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه ... وفى ذاك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونساً ... وقد بات فى أضعاف حوت لياليا
وإنى لو سبحت باسمك ربنا ... لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيباً ورحمة ... علىّ وبارك فى بنىّ وماليا

فإذا علم هذا ، فالكواكب التى فى السماء من الثوابت والسيارات — الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى

(١) تحنن على مرة بعد مرة ، وحناناً بعد حنان ، والتحنن : الترحم .

كما قال : (وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم)[١] .

وأما مايذكره كثير من المفسرين فى قصة هاروت وماروت : من أن الزهرة كانت امرأة فراودوها على نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم ، فعلماها فقالته فرفعت كوكباً إلى السماء — فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين ، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بنى إسرائيل .

وقد روى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه فى ذلك حديثاً رواه أحمد عن يحيى بن بكير عن زهير ابن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ وذكر القصة بطولها . وفيه : فمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر ، فجاءتهما فسألاها نفسها ، وذكر القصة .

وقد رواه عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن كعب الأحبار به ، وهذا أصح وأثبت .

وقد روى الحاكم فى مستدركه وابن أبى حاتم فى تفسيره عن ابن عباس فذكره ، وقال فيه : وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب وذكر تمامه . وهذا أحسن لفظ روى فى هذه القصة والله أعلم .

وهكذا الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطى حدثنا يزيد بن هرون حدثنا مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم عن ابن عمر عن النبى ﷺ . وحدثنا عمرو بن عيسى حدثنا عبد الأعلى حدثنا إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر سهيلا فقال : « كان عشاراً ظلوماً فمسخه الله شهاباً » ثم قال لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد وهو ضعيف الحديث ، ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث . وإنما ذكرناه على ما فيه من علة لأنا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين .

قلت : أما مبشر بن عبيد القرشى فهو أبو حفص الحمصى وأصله من الكوفة — فقد ضعفه الجميع ، وقال فيه الإمام أحمد والدارقطنى كان يضع الحديث ويكذب . وأما إبراهيم بن يزيد فهو الخوزى وهو ضعيف باتفاقهم ، وقال فيه أحمد والنسائى متروك . وقال ابن معين ليس بثقة وليس بشىء . وقال البخارى سكتوا عنه ، وقال أبو حاتم وأبو زرعة منكر الحديث ـ ضعيف الحديث . ومثل هذا الإسناد لايثبت به شىء بالكلية . وإذا أحسنا الظن قلنا هذا من أخبار بنى إسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار ، ويكون من خرافاتهم التى لايعول عليها والله أعلم .

---

(١) الآية ١٢ من سورة فصلت .

الكلام على المجرة وقوس قزح

قال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا عارم بن النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن هرقل كتب إلى معاوية وقال : إن كان بقى فيهم شىء من النبوة فسيخبرونى عما أسألهم عنه ، قال فكتب إليه يسأله عن المجرة ، وعن القوس ، وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة . قال فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال : إن هذا الشىء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومى هذا ، من لهذا ؟ قيل ابن عباس ، فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه : إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق ، والمجرة باب السماء الذى تنشق منه الأرض ، وأما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذى أفرج عن بنى إسرائيل . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنه .

فأما الحديث الذى رواه الطبرانى حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا إبراهيم بن مخلد حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفى عن ابن أبى يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « يامعاذ إنى مرسلك إلى قوم أهل كتاب ، فإذا سئلت عن المجرة التى فى السماء فقل هى لعاب حية تحت العرش » — فإنه حديث منكر جداً ، بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصرى . ثم انتقل إلى مصر قال فيه أبو حاتم الرازى : هو مجهول حدث بالأباطيل ، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى : منكر الحديث جداً ، وقال ابن عدى : لايتابع على أحاديثه لامتناً ولا إسناداً .

وقال الله تعالى : (هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال ۞ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال[(1)]) وقال تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون[(2)]) .

وروى الإمام أحمد : عن يزيد بن هرون عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بنى غفار قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ، ويضحك أحسن الضحك » . وروى موسى بن عبيدة بن سعد بن إبراهيم أنه قال : إن نطقه الرعد وضحكه البرق .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا هشام عن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال : بلغنا أن

---

(١) الآيات : ١٤ — ١٥ من سورة الرعد . (٢) الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

البرق ملك له أربعة وجوه ، وجه إنسان ، ووجه ثور ، ووجه نسر ، ووجه أسد . فإذا مصع بذنبه فذاك البرق . وقد روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى والبخارى فى كتاب الأدب والحاكم فى مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة حدثنى ابن مطر عن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لاتقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » * وروى ابن جرير من حديث ليث عن رجل عن أبى هريرة رفعه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » . وعن علىّ أنه كان يقول : « سبحان من سبحت له » . وكذا عن ابن عباس والأسود ابن يزيد وطاوس وغيرهم .

وروى مالك عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » . ويقول : إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال ربكم لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتهم صوت الرعد ، فاذكروا الله فإنه لايصيب ذاكراً » . وكل هذا مبسوط فى التفسير ولله الحمد والمنة .

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم عليهم السلام

قال الله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين (١)) . وقال تعالى : (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم (٢)) . وقال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٣)) . وقال تعالى : (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسئمون (٤)) . وقال تعالى : (ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لايفترون (٥)) . وقال تعالى : (ومامنا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون (٦)) . وقال تعالى : (وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وماخلفنا وما بين

---

(١) الآيات ٢٦ — ٢٨ من سورة الأنبياء (٢) الآية ٥ من سورة الشورى .
(٣) الآيتان ٨ و ٩ من سورة غافر (٤) الآية ٢٩ من سورة فصلت .
(٥) الآيتان ٢٠ و ٢١ من سورة الأنبياء (٦) الآيات ١٦٥ — ١٦٧ من سورة الصافات .

ذلك وما كان ربك نسيا[١]) . وقال تعالى : (وإن عليكم لحافظين ✲ كراماً كاتبين ✲ يعلمون ماتفعلون[٢]) وقالى تعالى : (وما يعلم جنود ربك إلا هو[٣]) . وقال تعالى : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار[٤]) . وقال تعالى : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شىء قدير[٥]) . وقال تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ✲ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا[٦]) . وقال تعالى : (وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ✲ يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً[٧]) . وقال تعالى : (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين[٨]) . وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون[٩]) .

والآيات فى ذكر الملائكة كثيرة جداً يصفهم الله تعالى بالقوة فى العبادة وفى الخلق وحسن المنظر ، وعظمة الأشكال وقوة الشكل فى الصور المتعددة ، كما قال تعالى : (ولما جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ✲ وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات[١٠]) الآيات ، فذكرنا فى التفسير ماذكره غير واحد من العلماء ، من أن الملائكة تبدو لهم فى صورة شباب حسان امتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وكذلك كان جبريل يأتى إلى النبى ﷺ فى صفات متعددة فتارة يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى ، وتارة فى صورة أعرابى ، وتارة فى صورته التى خلق عليها ، له ستمائة جناح مابين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، كما رآه على هذه الصفة مرتين مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض ، وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، وهو قوله تعالى : (علمه شديد القوى ✲ ذو مرة فاستوى ✲ وهو بالأفق الأعلى ✲ ثم دنا فتدلى) أى جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة ، منهم ابن مسعود وابو هريرة وأبو ذروعائشة (فكان قاب قوسين أو أدنى ✲ فأوحى إلى عبده ماأوحى) أى إلى عبد الله محمد ﷺ ثم قال : (ولقد رآه نزلة أخرى ✲ عند سدرة المنتهى ✲ عندها جنة المأوى ✲ إذ يغشى السدرة ما يغشى ✲ مازاغ البصر وما طغى[١١]) .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة مريم (٢) سورة الانفطار (٣) الآية ٣١ من سورة المدثر .
(٤) الآيتان ٢٦و٢٧ من سورة الرعد (٥) أول سورة فاطر (٦ ، ٧) سورة الفرقان .
(٨) الآية ٩٨ من سورة البقرة (٩) سورة التحريم
(١٠) الآيتان ٧٨ و ٧٩ من سورة هود (١١) الآيات ٥ — ١٧ من سورة النجم .

وقد ذكرنا فى أحاديث الإسراء فى سورة سبحان : أن سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، وفى رواية فى السادسة ، أى أصلها وفروعها فى السابعة ، فلما غشيها من أمر الله ماغشيها ؛ قيل غشيها نور الرب جل جلاله ، وقيل غشيها فراش من ذهب ، وقيل غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة ، وقيل غشيتها الملائكة مثل الغربان ، وقيل غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها — أى من حسنها وبهائها — ولا منافاة بين هذه الأقوال ، إذ الجميع ممكن حصوله فى حال واحدة .

وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال : « ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال [1] » . وفى رواية كقلال هجر « و إذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران ، فأما الباطنان : ففى الجنة ، وأما الظاهران : فالنيل والفرات » : وتقدم الكلام على هذا فى ذكر خلق الأرض وما فيها من البحار والأنهار . وفيه : « ثم رفع لى البيت المعمور وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ثم لايعودون إليه آخر ماعليهم » . وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مستنداً ظهره إلى البيت المعمور . وذكرنا وجه المناسبة فى هذا — أن البيت المعمور هو فى السماء السابعة بمنزلة الكعبة فى الأرض .

وقد روى سفيان الثورى وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن ابن الكواسأل على بن أبى طالب عن البيت المعمور فقال : هو مسجد فى السماء يقال له الضُراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لايعودون إليه أبداً . وهكذا روى على بن ربيعة وأبو الطفيل عن على مثله .

وقال الطبرانى : أنبانا الحسن بن علوية القطان حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « البيت المعمور فى السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله ، لو سقط لسقط عليه ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لايرونه قط فإن له فى السماء حرمة على قدر حرمة مكة » يعنى فى الأرض . وهكذا قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدى وغير واحد .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : مسجد فى السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ماعليهم » . وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن ، من قبيلة إبليس لعنه الله ، كان يقول سدنته وخدامه منهم والله أعلم .

---

(١) جمع قلة : وهى الجبل ، والجب العظيم .

وقال آخرون : فى كل سماء بيت تعمره ملائكته بالعبادة فيه ، ويفدون إليه بالنوبة والبدل كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج فى كل عام ، والاعتمار فى كل وقت ، والطواف والصلاة فى كل آن .
قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى فى أوائل كتابه المغازى : حدثنا أبو عبيد فى حديث مجاهد ، أن الحرم حرم مناه — يعنى قدره — من السموات السبع والأرضين السبع ، وأنه رابع أربعة عشر بيتاً ، فى كل سماء بيت ، وفى كل أرض بيت ، لوسقطت سقط بعضها على بعض . ثم روى مجاهد قال مناه : أى مقابله وهو حرف مقصور .

ثم قال : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن الحرم محرم فى السموات السبع مقداره من لأرض ، وإن بيت المقدس مقدس فى السموات السبع مقداره من الأرض ، كما قال بعض الشعراء :

إن الذى سمك السماء[1] بنى لنا بيتاً دعائمه أشد وأطول

واسم البيت الذى فى السماء بيت العزة واسم الملك الذى هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل . فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون فى كل يوم إلى البنت المعمور ثم لايعودون إليه ، آخر ماعليهم — أى لايحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر — يكونون من سكان السماء السابعة وحدها ، ولهذا قال تعالى : (وما يعلم جنود ربك إلا هو)[2] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، مافيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل» فقال أبو ذر : والله لوددت أنى شجرة تعضد . ورواه الترمذى وابن ماجة من حديث إسرائيل فقال الترمذى حسن غريب ، ويروى عن أبى ذر موقوفا .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا حسين بن عرفة المصرى ، حدثنا عروة بن عمران الرقى ، حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبى رباح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «مافى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم ، أوملك ساجد ، أو ملك راكع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لانشرك بك شيئاً » . فدل هذان الحديثان على أنه مامن موضع فى السموات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة ، وهم فى صنوف من العبادة : منهم من هو قائم أبداً ، ومنهم من هو راكع أبداً ، ومنهم من هو ساجد

---

(١) أى رفعها . (٢) سورة المدثر .

أبداً ، ومنهم من هو فى صنوف أخر والله أعلم بها . وهم دائمون فى عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التى أمرهم الله بها ، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى : (وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون)[١] .

وقال ﷺ : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قالوا وكيف يصفون عند ربهم ؟ قال : يكملون الصف الأول ويتراصون فى الصف » وقال : « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربتها لنا طهوراً ، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، » وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدى الرب جل جلاله صفوفاً كما قال تعالى : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)[٢] ويقفون صفوفاً بين يدى ربهم عز وجل يوم القيامة كما قال تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً)[٣] . والمراد بالروح ههنا بنو آدم ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة . وقيل ضرب من الملائكة يشبهون بنى آدم فى الشكل ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش . وقيل جبريل ، قاله الشعبى وسعيد بن جبير والضحاك . وقيل ملك يقال له الروح بقدر جميع المخلوقات . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (يوم يقوم الروح) : قال هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن خلف العسقلانى حدثنا داود بن الجراح عن أبى حمزة عن الشعبى عن علقمة عن ابن مسعود قال : الروح فى السماء الرابعة هو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة ، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجىء يوم القيامة صفاً وحده ، وهذا غريب جداً .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عبدالله بن عبد الحكيم المصرى حدثنا ابن وهب بن رزق أبو هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الأوزاعى حدثنى عطاء عن عبد الله بن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لله ملكا لو قيل له التقم السموات والأرضين بلقمة واحدة لفعل ، تسبيحه سبحانك حيث كنت » وهذا أيضاً حديث غريب جداً ، وقد يكون موقوفاً .

وذكرنا فى صفة حملة العرش عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ : « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ، إن مابين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » رواه أبو داود وابن أبى حاتم ، ولفظه : مخفق الطير سبعمائة عام .

وقد ورد فى صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم ، قال الله تعالى : (علمه شديد القوى) قالوا كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعاً بمن فيها من الأمم ، وكانوا قريباً من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات ، وما لتلك المدن من الأراضى والمعتملات والعمارات وغير ذلك ، رفع

---

(١) سورة الصافات (٢) سورة الفجر . (٣) سورة عم يتساءلون .

ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ، فهذا هو شديد القوى . وقوله : (ذو مرة) أى خلق حسن وبهاء وسناء ، كما قال فى الآية الأخرى : (إنه لقول رسول كريم) أى جبريل رسول من الله كريم — أى حسن المنظر (ذى قوة) أى له قوة و بأس شديد (عند ذى العرش مكين) أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله ذى العرش المجيد (مطاع ثم) أى مطاع فى الملأ الأعلى (أمين) أى ذى أمانة عظيمة ، ولهذا كان هو السفير بين الله و بين أنبيائه عليهم السلام الذى ينزل عليهم بالوحى ؛ فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة .

وقد كان يأتى إلى رسول الله ﷺ و ينزل عليه فى صفات متعددة كما قدمنا . وقد رآه على صفته التى خلقه الله عليها مرتين . له ستمائة جناح ، كما روى البخارى عن طلق بن غنام عن زائدة الشيبانى ، قال سألت زرًّا عن قوله تعالى : (فكان قاب قوسين أو أدنى ۞ فأوحى إلى عبده ما أوحى) قال حدثنا عبد الله — يعنى ابن مسعود — أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبى وائل عن عبد الله قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه التهاويل[1] من الدر والياقوت ما الله به عليم .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود فى هذه الآية : (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) ۞ قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل — الدر والياقوت » .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين[2] حدثنى عاصم بن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول سمعت ابن مسعود يقول : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل على السدرة المنتهى وله ستمائة جناح » فسألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرنى ، قال فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب ، وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنى حسين حدثنى حصين حدثنى شقيق سمعت ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل فى خَضِر[3] تعلق به الدر » إسناده صحيح .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بزيع البغدادى قال حدثنا إسحاق بن منصور قال حدثنا إسرائيل

---

(١) أى الأشياء المختلفة الألوان — واحدها التهويل .

(٢) هو ابن واقد مولى عبد الله بن عامر بن كريز أبو عبدالله المروزى قاضيها .

(٣) بفتح فكسر : أى فى لباس أخضر .

عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله (ما كذب الفؤاد ما رأى) قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف ، قد ملأ مابين السماء والأرض . إسناد جيد قوى ، وفى الصحيحين من حديث عامر الشعبي عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس الله يقول : (ولقد رآه بالأفق المبين ـ ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها ، فقال : « إنما ذاك جبريل » لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين : رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض .

وقال البخارى : حدثنا أبو نعيم حدثنا عمر بن ذر (ح) وحدثنى يحيى بن جعفر حدثنا وكيع عن عمر ابن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ »[1] قال فنزلت : (وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وماخلفنا) الآية . وروى البخارى من حديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود مايكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة .

قال البخارى : حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئاً ، فقال له عروة : أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ ، فقال عمر : أعلم ماتقول ياعروة ، قال سمعت بشير بن أبى مسعود يقول : سمعت أبا مسعود يقول ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نزل جبريل فأمنى فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسبُ بأصابعه خمس صلوات » .

ومن صفة إسرافيل عليه السلام : هو أحد حملة العرش ، وهو الذى ينفخ فى الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة : أولاهن نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة البعث ، كما سيأتى بيانه فى موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن توفيقه . والصور : قرن ينفخ فيه ؛ كل دارة منه كما بين السماء والأرض ، وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث ، فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج ، فيقول الرب جل جلاله : « وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى البدن الذى كانت تعمره فى الدنيا » فتدخل على الأجساد فى قبورها ، فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، فتحيي الأجساد وتنشق عنهم الأجداث ، فيخرجون منها سراعاً إلى مقام المحشر كما سيأتى تفصيله فى موضعه .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن

---

(١) فى رواية « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » روى الحديث فى كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

يؤذن له ؟ قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . رواه أحمد والترمذى من حديث عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن سعد الطائى عن عطية العوفى عن أبى سعيد قال : ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال : « عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل عليهم السلام » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، حدثنا محمد بن عمران بن أبى ليلى ، حدثنى عن أبى ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس ، قال : بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل بناحية إذ انشق أفق السماء ، فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض و يتمايل ، فإذا ملك قد مثل بين يدى النبى ﷺ فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبى عبد أو ملك نبى ، قال فأشار جبريل إلى بيده أن تواضع ، فعرفت أنه لى ناصح ، فقلت : « عبد نبى » ، فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت : « ياجبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلنى عن المسألة ، فمن هذا ياجبريل ؟ فقال هذا إسرافيل عليه السلام ، خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه ، بينه و بين الرب سبعون نوراً ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق ، بين يديه لوح فإذا أذن الله فى شىء من السماء أو فى الأرض ، ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر : فإن كان من عملى أمرنى به ، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به ، و إن كان من عمل ملك الموت أمره به . قلت : يا جبريل وعلى أى شىء أنت ؟ قال : على الريح والجنود . قلت : وعلى أى شىء ميكائيل ؟ قال : على النبات والقطر . قلت : وعلى أى شىء ملك الموت ؟ قال : على قبض الأنفس ، وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة ، وما الذى رأيت منى إلا خوفاً من قيام الساعة . هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وفى صحيح مسلم عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم رب جبريل وميكائل و إسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » وفى حديث الصور : أن إسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ فى الصور .

وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزى بولاية اللوح المحفوظ ، حكاه أبو القاسم السهيلى فى كتابه : « التعريف والإعلام ، بما أبهم فى القرآن من الأعلام » وقال تعالى : (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) عطفهما على الملائكة لشرفهما ، فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره . وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ، ومن أشراف الملائكة المقربين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا ابن عباس عن عمارة بن غزنة الأنصارى أنه سمع حميد بن عبيد مولى بنى المعلى يقول : سمعت ثابتاً البنانى يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل : «مالى لم أر ميكائيل ضاحكا قط ؟ فقال : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار» ، فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم فى القرآن . وفى الصحاح هم المذكورون فى الدعاء النبوى : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل» . فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم . وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق فى هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله . وقد روينا أنه مامن قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها فى موضعها من الأرض . وإسرافيل موكل بالنفخ فى الصور للقيام من القبور ، والحضور يوم البعث والنشور ؛ ليفوز الشكور ويجازى الكفور ، فذاك ذنبه مغفور وسعيه مشكور ، وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور ، وهو يدعو بالويل والثبور . فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى ، وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق ، وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء . وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحاح . وقد جاء تسميته فى بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون)[1] وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم ، فيتناولها ملك الموت بيده ، فإذا أخذها لم يدعها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها منه ، فيلقوها فى أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة[2]) . ثم يصعدون بها ، فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقى بها إلى الأرض ، قال الله تعالى : (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلناوهم لا يفرطون ۞ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين)[3] .

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا : إن الأرض بين يدى ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء ، وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله ؛ إن كان مؤمناً أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح ، وإن كان كافراً فبالضد من ذلك ، عياذاً بالله العظيم من ذلك .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن أبى يحيى المقرى ، حدثنا عمرو بن شمر قال :

---

(١) الآية : ١١ من سورة السجدة (٢) الآية : ٢٧ من سورة إبراهيم (٣) الآيتان : ٦١ـ٦٢ من سورة الأنعام :

سمعت جعفر بن محمد قال سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبي ﷺ : « ياملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » فقال ملك الموت : يامحمد طب نفساً وقر عيناً ، فإني بكل مؤمن رفيق . واعلم أن مافي الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر ، إلا وأنا أتفحصهم في كل يوم خمس مرات ، حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم ، والله يامحمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ماقدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها .

قال جعفر بن محمد أبي هو الصادق : بلغني أنه يتفحصهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضر عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » في تلك الحال العظيمة ، هذا حديث مرسل وفيه نظر .

وذكرنا في حديث الصور من طريق إسمعيل بن رافع المدني القاص ، عن محمد بن زياد عن محمد ابن كعب القرظي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ـ الحديث بطوله وفيه : ويأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يارب قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله — وهو أعلم بمن بقي — فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لايموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقي جبريل وميكائيل . فيقول : ليمت جبريل وميكائيل ، فينطق الله العرش فيقول : يارب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول اسكت ، فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي فيموتان ، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يارب قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله — وهو أعلم بمن بقي — فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لايموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقيت أنا ، فيقول الله : لتمت حملة عرشي ، فتموت . ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتي ملك الموت فيقول : يارب قد مات حملة عرشك ، فيقول الله — وهو أعلم بمن بقي — فمن بقي ؟ فيقول بقيت أنت الحي الذي لايموت وبقيت أنا ، فيقول الله : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما أردت فمت فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد — كان آخراً كما كان أولا . وذكر تمام الحديث بطوله رواه الطبراني وابن جرير والبيهقي ، ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب الطوالات (١) ، وعنده زيادة غريبة وهي قوله : فيقول الله له أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت موتاً لاتحيا بعده أبدا .

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن : هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من

---

(١) كتاب في مجلدين للحافظ الكبير أبي موسى محمد بن أبي بكر عمر المديني المتوفى سنة ٥٨١ فيه الواهي والموضوع

السلف : وقد ورد فى قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات . وروى الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر وصححه ابن حبان فى تقاسيمه . وفى صحته عندى نظر ، والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ، ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما سيأتى بيانه والله أعلم . وفيه أنه تمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر . وعن على وابن عباس وابن عمر أيضاً أن الزهرة كانت امرأة وأنهما لما طلبا منها ماذكر أبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم ، فعلماها فقالته فارتفعت إلى السماء فصارت كوكباً .

وروى الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس قال : وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب ، وهذا اللفظ أحسن ماورد فى شأن الزهرة ، ثم قيل كان أمرهما وقصتهما فى زمان إدريس ، وقيل فى زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك فى التفسير .

وبالجملة فهو خبر إسرائيلى مرجعه إلى كعب الأحبار كما رواه عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة . وهذا أصح إسناداً وأثبت رجالا والله أعلم .

ثم قد قيل إن المراد بقوله : (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت)[1] قبيلان من الجان ، قال ابن حزم : وهذا غريب وبعيد من اللفظ ، ومن الناس من قرأ : (وما أنزل على الملِكين) بالكسر ويجعلهما علجين[2] من أهل فارس ، قاله الضحاك . ومن الناس من يقول هما ملكان من السماء ولكن سبق فى قدر الله لهما ما ذكره من أمرهما إن صح به الخبر ، ويكون حكمهما كحكم إبليس إن قيل إنه من الملائكة ، لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتى تقريره .

ومن الملائكة المسمين فى الحديث : منكر ونكير عليهما السلام ، وقد استفاض فى الأحاديث ذكرهما فى سؤال القبر . وقد أوردناها عند قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)[3] وهما فتانا القبر موكلان بسؤال الميت فى قبره عن ربه ودينه ونبيه ، ويمتحنان البر والفاجر ، وهما أزرقان أفرقان ، لهما أنياب وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة ، أجارنا الله من عذاب القبر ، وثبتنا بالقول الثابت آمين .

وقال البخارى : حدثنا عبدالله بن يوسف ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى يونس عن ابن شهاب ، حدثنى عروة أن عائشة زوج النبى ﷺ حدثته أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ «قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة[4] ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل[5] بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق

---

(١) الآية : ١٠٢ من سورة البقرة (٢) العلج بالكسر : الواحد من كفار العجم والجمع علوج وأعلاج .
(٣) آخر سورة إبراهيم (٤) مكان بمنى (٥) كان من أكابر أهل الطائف من ثقيف .

إلا وأنا بقرن الثعالب[١] فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا به عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يامحمد ، فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[٢] ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيأ »[٣] ورواه مسلم من حديث ابن وهب به .

فصل

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له — أقسام : فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم . ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش ، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون)[٤] ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام . وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى : (و يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم[٥]) .

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة ، فثبت فى الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال : « إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثل » .

ومنهم سكان السموات السبع ، يعمرونها عبادة دائبة ليلا ونهاراً صباحاً ومساء كما قال : (يسبحون الليل والنهار لايفترون) فمنهم الراكع دائماً ، والقائم دائماً ، والساجد دائماً ، ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم . ومنهم الموكلون بالجنان و إعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحاً به فى بعض الأحاديث . ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر ، وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة ، وهم المذكورون فى قوله تعالى : (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) الآية . وقال تعالى : (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ما كثون ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون)[٦] وقال تعالى : (عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم و يفعلون مايؤمرون)[٧] .

---

(١) موضع بقرب مكة وهو ميقات أهل نجد . (٢) قال فى القاموس : الأخشبان : جبلا مكة أبو قبيس والأحمر وجبلا منى . (٣) الحديث فى باب بدء الخلق — ذكر الملائكة (٤) الآية : ١٧٢ من سورة النساء (٥) الآيات من ٧ — ٩ من سورة غافر . (٦) الآيتان : ٧٧و٧٨ من سورة الزخرف . (٧) الآية : ٦ من سورة التحريم .

وقال تعالى : (عليها تسعة عشر ✲ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ✲ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ✲ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو)[١] .

ومنهم الموكلون بحفظ بنى آدم كما قال تعالى : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ✲ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال)[٢] .

قال الوالبى عن ابن عباس : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وهى الملائكة : وقال عكرمة عن ابن عباس : (يحفظونه من أمر الله) قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، وليس شىء يأتيه يريده إلا قال وراءك إلا شىء بأذن الله فيه فيصيبه . وقال أبو أسامة[٣] : ما من آدمى إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذى قدر له . وقال أبو مجلز[٤] جاء رجل إلى علىّ فقال : إن نفراً من مراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه و بينه ، إن الأجل جنة حصينة .

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى : (عن اليمين وعن الشمال قعيد ✲ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[٥] ، وقال تعالى : (وإن عليكم لحافظين ✲ كراماً كاتبين ✲ يعلمون ما تفعلون)[٦] قال الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن أبى حاتم الرازى فى تفسيره : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن يزيد عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم[٧] حائط أو بغيره ، أو يستره أخوه » هذا مرسل من هذا الوجه ، وقد وصله البزار فى مسنده من طريق جعفر بن سليمان وفيه كلام .

عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعرى فاستحيوا من الله والذين معكم من الكرام الكاتبين الذى لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط والجنابة والغسل ، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو بغيره » ومعنى إكرامهم — أن يستحى منهم فلا يملى عليهم الأعمال القبيحة التى يكتبونها ، فإن الله خلقهم كراماً فى خلقهم

---

(١) سورة المدثر (٢) الآيتان ١٠ — ١١ من سورة الرعد (٣) فى نسخة أبو أمامة (٤) هو لاحق بن حميد تابعى (٥) الآيتان : ١٧ — ١٨ من سورة قٓ (٦) سورة الانفطار . (٧) أى بأصل .

وأخلاقهم . ومن كرمهم أنه قد ثبت فى الحديث المروى فى الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لايدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب » . وفى رواية عن عاصم بن ضمرة عن على « ولابول » ، وفى رواية رافع عن أبى سعيد مرفوعاً : « لاتدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا تمثال » . وفى رواية مجاهد عن أبى هريرة مرفوعاً « لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال » ؛ وفى رواية ذكوان أبى صالح السماك عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس » . ورواه زرارة بن أوفى عنه : « لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس » .

وقال البزار : حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادى المعروف بالقلوس ، حدثنا بيان بن حمران ، حدثنا سلام عن منصور بن زاذان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ملائكة الله يعرفون بنى آدم — وأحسبه قال — ويعرفون أعمالهم ، فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا : أفلح الليلة فلان ، نجا الليلة فلان . وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا : هلك فلان الليلة » ثم قال سلام أحسبه سلام المدائنى وهو لين الحديث .

وقد قال البخارى : حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » هذا اللفظ فى كتاب بدء الخلق بهذا السياق ، وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه . وقد أخرجاه فى الصحيحين فى البدء من حديث مالك عن أبى الزناد به .

وقال البزار : حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبى ، حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن يعنى البصرى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ماحفظا فى يوم ، فيرى فى أول الصحيفة وفى آخرها استغفاراً إلا قال الله : غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » ، ثم قال تفرد به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث . قلت وقد وثقه ابن معين وضعفه البخارى وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائى وابن عدى ، ورماه ابن حبان بالوضع . وقال الإمام أحمد لا أعرف حقيقة أمره .

والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان : واحد من بين يديه ، وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل ، وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله ، وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال . كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى : (عن اليمين وعن الشمال قعيد ۞ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا سفيان ، حدثنا منصور عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال : « وإياى ، ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير » انفرد بإخراجه مسلم من حديث منصور به — فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة غير القرين بحفظ الإنسان ، وإنما هو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد ، كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين لا يألوه جهداً فى الخبال والإضلال ، والمعصوم من عصمه الله عز وجل وبالله المستعان .

وقال البخارى : حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن والأغر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤا يستمعون الذكر[1] » وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه ، وهو فى الصحيحين من وجه آخر . وقد قال الله تعالى : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً)[2] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسباط ، حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبى ﷺ . وحدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » . ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث أسباط ، وقال الترمذى حسن صحيح ، قلت وهو منقطع .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن أبى سلمة وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر» يقول أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) .

وقال البخارى : حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح » تابعه شعبة وأبو حمزة وأبو داود وأبو معاوية عن الأعمش .

وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وفى صحيح البخارى : حدثنا إسماعيل بلفظ « إذا قال الإمام آمين فإن الملائكة تقول فى السماء آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » . وفى

---

(١) أى الخطبة (٢) الآية : ٧٨ من سورة الإسراء .

صحيح البخارى : حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد ، فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» . ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجة من حديث مالك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبى صالح ، عن أبى هريرة أو عن أبى سعيد هو شك — يعنى الأعمش — قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض فضلاعن كتاب الناس ، فإذا وجدوا أقواماً يذكرون الله نادوا هلموا إلى بغيتكم ، فيجيئون بهم إلى السماء الدنيا ، فيقول الله : أى شيء تركتم عبادى يصنعون ؟ فيقولون : تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك ، فيقول : وهل رأونى ؟ فيقولون لا ، فيقول : كيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تحميداً وتمجيداً وذكراً ، قال فيقول : فأى شيء يطلبون ؟ فيقولون يطلبون الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون لافيقول : وكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً ، قال فيقول : من أى يتعوذون ؟ فيقولون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون لافيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها هرباً وأشد منها خوفاً ، قال فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال فيقول : إن فيهم فلاناً الخطاء لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول : هم القوم لايشقى بهم جليسهم» .

وهكذا رواه البخارى عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش به ، وقال رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه . ورفعه سهيل عن أبيه . وقد رواه أحمد عن عفان عن وهيب عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه كما ذكره البخارى معلقاً عن سهيل . ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهب به . وقد رواه الإمام أحمد أيضاً عن غندر عن شعبة عن سليمان — هو الأعمش — عن أبى صالح عن أبى هريرة كما أشار إليه البخارى رحمه الله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش وابن نمير ، أخبرنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه» .

وكذا رواه مسلم من حديث أبى معاوية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن أبى إسحاق عن الأغر أبى مسلم ، عن

أبي هريرة وأبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وكذا رواه أيضاً من حديث إسرائيل وسفيان الثورى وشعبة عن أبى إسحاق به نحوه . ورواه مسلم من حديث شعبة والترمذى من حديث الثورى وقال حسن صحيح . ورواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن زريق عن أبى إسحاق بإسناد نحوه ، وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة .

وفى مسند الإمام أحمد والسنن عن أبى الدرداء مرفوعاً : « وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » أى تتواضع له كما قال تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) وقال تعالى : (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) [١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ليبلغونى عن أمتى السلام » وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى وسليمان الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبدة بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به . والأحاديث فى ذكر الملائكة كثيرة جداً ، وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى وله الحمد .

فصــــل

وقد اختلف الناس فى تفضيل الملائكة على البشر على أقوال : فأكثر ما توجد هذه المسئلة فى كتب المتكلمين ، والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم ، وأقدم كلام رأيته فى هذه المسئلة ما ذكره الحافظ بن عساكر فى تاريخه فى ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص : أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة ، فقال عمر : ما أحد أكرم على الله من كريم بنى آدم ، واستدل بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) [٢] ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بن مالك : ما أحد أكرم على الله من ملائكته ، هم خدمة داريه ورسله إلى أنبيائه . واستدل بقوله تعالى : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) [٣] ، فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظى : ما تقول أنت يا أبا حمزة ؟ فقال : قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة ،

---

(١) الآية : ٢١٦ من سورة الشعراء (٢) سورة البينة (٣) الآية : ٢٠ من سورة الأعراف .

فوافق عمر بن عبد العزيز فى الحكم واستدل بغير دليله . وأضعف دلالة ماصرح به من الآية وهو قوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مضمونه أنها ليست بخاصة بالبشر ، فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان فى قوله : (ويؤمنون به) [١] وكذلك الجان فى قوله : (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به) (وأنا منا المسلمون) [٢] . قلت وأحسن مايستدل به فى هذه المسئلة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمى عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وهو أصح ، قال : لما خلق الله الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب ، فإنك خلقت الدنيا لبنى آدم فقال الله : لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى ، كمن قلت له كن فكان .

باب ذكر خلق الجان وقصة الشيطان

قال الله تعالى : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار ۞ وخلق الجان من مارج من نار ۞ فبأى آلاء ربكما تكذبان) [٣] وقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ۞ والجان خلقناه من قبل من نار السموم) [٤] وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد (من مارج من نار) قالوا من طرف اللهب ، وفى رواية من خالصه وأحسنه . وقد ذكرنا آنفاً من طريق الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » رواه مسلم . قال كثير من علماء التفسير : خلقت الجن قبل آدم عليه السلام ، وكان قبلهم فى الأرض الحن [٥] والبن [٦] ، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم .

وذكر السدى فى تفسيره عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع فى صدره إنما أعطانى الله هذا لمزية لى على الملائكة . وذكر الضحاك عن ابن عباس أن الجن لما أفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء — بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

وقال محمد بن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس : كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، ومن أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً ، وكان من حى يقال لهم الجن . وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عنه كان اسمه عزازيل ، وكان من أشرف الملائكة من أولى الأجنحة الأربعة . وقد أسند عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس : كان إبليس

---

(١) من الآية : ٨ من سورة غافر (٢) سورة الجن (٣) سورة الرحمن . (٤) ٢٧ ـ ٢٨ من سورة الحجر

(٥) الحن : بالحاء المهملة : سفلة الجن وضعفاؤهم ، أو خلق بين الجن والإنس . (٦) لم نعثر على معنى مناسب لهذه الكلمة ، ولعلها محرفة عن الثن مثلا ، وهو يبيس الحشيش إذا كثر وركب بعضه بعضاً ، وذلك مساكن الجن

من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض. وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس: كان يسوس ما بين السماء والأرض، رواه ابن جرير. وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا. وقال الحسن البصري: لم يكن من الملائكة طرفة عين، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر. وقال شهر بن حوشب وغيره: كان إبليس من الجن الذين طردهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير.

قالوا فلما أراد الله خلق آدم ليكون فى الأرض هو وذريته من بعده، وصور جثته منها — جعل إبليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة إذ ذاك — وكان اسمه عزازيل يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك، وقال: أما لئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت على لأعصينك، فلما أن نفخ الله فى آدم من روحه كما سيأتى، وأمر الملائكة بالسجود له — دخل إبليس منه حسد عظيم، وامتنع من السجود له وقال: (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل، وأخطأ فى قوله وابتعد من رحمة ربه، وأنزل من مرتبته التى كان قد نالها بعبادته، وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم، لأنه مخلوق من نار وهم من نور، فخانه طبعه فى أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله النارى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين[1]) وقال تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا[2]) فأهبط إبليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه، فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلا مذءوماً مدحوراً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس، إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بنى آدم بكل طريق وبكل مرصد كما قال: (أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته[3] إلا قليلا * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا[4]) وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام.

والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبنى آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون، كما أخبر تعالى عنهم فى سورة الجن فى قوله تعالى: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً

---

(١) الآيتان: ٧٤ و ٧٥ من سورة ص (٢) الآية: ٢٥ من سورة الكهف.
(٣) لأستأصلنهم بالإغواء (٤) الآيات: ٦٣ — ٦٦ من سورة الإسراء.

أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين) وقال تعالى : (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا * وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا * وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعدا) .

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصة فى آخر سورة الأحقاف ، وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك ، وأن هؤلاء النفر كانوا من جن « نصيبين » [١] وفى بعض الآثار من جن « بصرى » وأنهم مروا برسول الله ﷺ وهو قائم يصلى بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا فاستمعوا القراءته ثم اجتمع بهم النبى ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها ، وسألوه الزاد ، فقال لهم : « كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً ، وكل روثة علف لدوابكم » ونهى النبى ﷺ أن يستنجى بهما ، وقال : « إنهما زاد إخوانكم الجن » . ونهى عن البول فى السرب [٢] لأنها مساكن الجن وقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن : فما جعل يمر فيها بآية (فبأى آلاء ربكما تكذبان) . إلا قالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . وقد أثنى عليهم النبى ﷺ فى ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا ، فقال : « الجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلا قالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد » رواه الترمذى عن جبير وابن جرير والبزار عن ابن عمر .

وقد اختلف فى مؤمنى الجن : هل يدخلون الجنة ؟ أو يكون جزاء طائعهم ألا يعذب بالنار فقط ؟ على قولين : الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن ، ولعموم قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأى آلاء ربكما تكذبان) [٣] فامتن تعالى عليهم بذلك ، فلولا أنهم ينالونه لما ذكره وعده عليهم

---

(١) قرية من قرى اليمن (٢) هو جحر الوحشى ، والحفير تحت الأرض (٣) سورة الرحمن .

من النعم ، وهذا وحده دليل مستقل كاف فى المسئلة وحده والله أعلم .

وقال البخارى : حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة الأنصارى عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى قال له : إنى أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة . قال أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ انفرد به البخارى دون مسلم .

وأما كافرو الجن فهم الشياطين ، ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبى البشر ، وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته ، وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم ، كما قال : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا[(١)]) وقال تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ[(٢)]) وقال تعالى : (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون)[(٣)] وقال : (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط على مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم)[(٤)] .

وقد ذكر تعالى هذه القصة فى سورة البقرة وفى الأعراف ، وههنا ، وفى سورة سبحان ، وفى سورة طه وفى سورة ص . وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه فى كتابنا التفسير ولله الحمد ، وسنوردها فى قصة آدم إن شاء الله . والمقصود أن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختباراً منه لهم ، كما قال تعالى (وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ) ، وقال تعالى : (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم

---

(١) الآية : ٦٥ من سورة الإسراء .

(٢) الآيتان : ٢٠ ـ ٢١ من سورة سبأ (٣) الآية : ٢٧ من سورة الأعراف

(٤) الآيات : ٢٨ ـ ٤٤ من سورة الحجر

فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم * وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام)[1]

فإبليس لعنه الله حى الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن ، وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ، ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن ، وقد قال الله تعالى : (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) وكان اسمه قبل معصيته العظيمة — عزازيل قال النقاش وكنيته : أبو كردوس ، ولهذا لما قال النبى ﷺ لابن صائد[2] ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ، فقال له النبى ﷺ : اخسأ فلن تعدو قدرك فعرف أن مادة مكاشفته التى كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذى هو يشاهد عرشه على البحر ، ولهذا قال له اخسأ فلن تعدو قدرك ، أى لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة .

والدليل على أن عرش إبليس على البحر — الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثنى معاذ التميمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «عرش إبليس فى البحر يبعث سراياه فى كل يوم يفتنون الناس ، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس» .

وقال أحمد : حدثنا روح ، حدثنا ابن جريج ، أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «عرش إبليس على البحر يبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة» ، تفرد به من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد ، حدثنا على بن زيد عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ لابن صائد : «ماترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء — أو قال على البحر — حوله حيات ، قال ﷺ : «ذاك عرش إبليس» هكذا رواه فى مسند جابر . وقال فى مسند أبى سعيد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا على بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال لابن صائد : «ماترى» ؟ قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «صدق ذاك عرش إبليس» .

وروى الإمام أحمد من طريق معاذ التميمى وأبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ، ولكن فى التحريش بينهم[3] . وروى الإمام مسلم من حديث الأعمش عن أبى سفيان طلحة بن نافع عن جابر عن النبى ﷺ قال : «إن الشيطان يضع

(١) الآيتان : ٢٢ — ٢٣ من سورة إبراهيم .
(٢) ابن صائد أو ابن صياد رجل من اليهود أو دخيل فيهم كان يظن أنه الدجال ، وكان فتنة امتحن الله به عباده المؤمنين ، وكان عنده شىء من الكهانة أو السحر ومات بالمدينة وقيل فقد يوم الحرة فلم يجدوه والله أعلم .
(٣) أى سعى بينهم فى التحريش — أى الإغراء بالخصومات والشحناء والحروب والفتن .

عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه فى الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجىء أحدهم فيقول مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ، ويجىء أحدهم فيقول ماتركته حتى فرقت بينه و بين أهله ، قال : فيقربه و يدنيه و يقول : نعم أنت » يروى بفتح النون بمعنى : نعم أنت ذاك الذى تستحق الإكرام ، و بكسرها ، أى نعم منك . وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمراً ، وهو قليل . واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ، ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم .

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى : (مايفرقون به بين المرء وزوجه) يعنى أن السحر المتلقى عن الشياطين من الإنس والجن — يتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف ، المتوادين المتحابين ، ولهذا يشكر إبليس سعى من كان السبب فى ذلك ، فالذى ذمه الله يمدحه ، والذى يغضب الله يرضيه ، عليه لعنة الله . وقد أنزل الله عز وجل سورتى المعوذتين مطردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته ، ولا سيما سورة (قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذى يوسوس فى صدور الناس * من الجنة والناس) . وثبت فى الصحيحين عن أنس ، وفى صحيح البخارى عن صفية بنت حيي أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا محمد بن جبير ، حدثنا عدى بن أبى عمارة ، حدثنا زياد النميرى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس[1] وإن نسى التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس » .

ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب ، كان فيه تذكار للناس كما قال تعالى : (واذكر ربك إذا نسيت[2]) ، وقال صاحب موسى[3] : (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره[4]) وقال تعالى : (فأنساه الشيطان ذكر ربه[5]) يعنى الساقى ، لما قال له يوسف اذكرنى عند ربك ، نسى الساقى أن يذكره لربه يعنى مولاه الملك . وكان هذا النسيان من الشيطان فلبث يوسف فى السجن بضع سنين ، ولهذا قال بعده : (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة) أى مدة . وقرىء بعد أمة أى نسيان . وهذا الذى قلنا من أن الناسى هو الساقى — هو الصواب من القولين ، كما قررناه فى التفسير والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبى ﷺ حماره ، فقلت نفس الشيطان ، فقال النبى ﷺ : «لاتقل نفس

---

(١) أى تأخر وتقهقر . والخناس الشيطان لأنه يخنس اذا ذكر اسم الله (٢) الآية ٢٤ من سورة الكهف .
(٣) هو فتاه يوشع بن نون وكان يخدمه ويتبعه (٤) من الآية : ٦٣ من سورة الكهف .
(٥) من الآية : ٤٢ من سورة يوسف .

الشيطان ، فإنك إذا قلت نفس الشيطان تعاظم وقال بقوتى صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » . تفرد به أحمد وهو إسناد جيد .

وقال أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفى ، حدثنا الضحاك بن عثمان عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا كان فى المسجد جاء الشيطان فأبس به[1] كما يثبس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه أو ألجمه » ، قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك ، أما المزنوق فتراه مائلا كذا لايذكر إلا الله ، وأما الملجم ففاتح فاه لايذكر الله عز وجل ، تفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا ثور يعنى ابن يزيد عن مكحول عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبد الله الهمدانى عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله : إنى أحدث نفسى بالشىء لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة » . ورواه أبو داود والنسائى من حديث منصور ، زاد النسائى والأعمش كلاهما عن أبى ذر به .

وقال البخارى : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرنى عروة قال : قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ، ولينته » ، وهكذا رواه مسلم من حديث الليث ومن حديث الزهرى وهشام بن عروة كلاهما عن عروة به . وقد قال الله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)[2] ، وقال تعالى : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ۞ وأعوذ بك رب أن يحضرون)[3] ، وقال تعالى : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم)[4] ، وقال تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ۞ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ۞ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)[5] . وروى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبى المتوكل عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » .

وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبى أسامة الباهلى . وتفسيره فى الحديث ، فهمزه الموتة وهو الخنق الذى هو الصرع ، ونفخه الكبر ، ونفثه الشعر . وثبت فى الصحيحين عن أنس

---

(١) أى دعاه ووسوس إليه (٢) الآية : ٢٠١ من سورة الأعراف . (٣) الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠ من سورة المؤمنون . (٤) الآية : ٣٧ من سورة فصلت . (٥) الآيات : ٩٨ — ١٠٠ من سورة النحل .

أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » ، قال كثير من العلماء : استعاذ من ذكران الشياطين وإناثهم . وروى الإمام أحمد عن شريح عن عيسى بن يونس عن ثور عن الحسين عن ابن سعد الخير وكان من أصحاب عمر ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من أتى الغائط فليستتر ، فإن لم يجد إلا أن يجمع كثيباً فليستدبره ، فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم ، من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج » . ورواه أبو داود وابن ماجة من حديث ثور بن يزيد به .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن عدى بن ثابت قال : قال سليمان بن صرد : استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس ، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه ، فقال النبي ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[1] » فقالوا للرجل ألا تسمع مايقول النبي ﷺ ؟ فقال إنى لست بمجنون . ورواه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائى من طرق عن الأعمش .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول ﷺ قال : « لايأكل أحدكم بشماله ، ولايشرب بشماله ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » وهذا على شرط الصحيحين بهذا الإسناد وهو فى الصحيح من غير هذا الوجه . وروى الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن أبي حكيم عن عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر أنبأنا شعبة عن أبى زياد الطحان قال سمعت أبا هريرة يقول عن النبي ﷺ أنه رأى رجلا يشرب قائماً فقال له « قه » قال لم ؟ قال : أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ قال لا ، قال : « فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان » . تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أيضاً : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن رجل عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو يعلم الذى يشرب وهو قائم مافى بطنه لاستقاء » قال وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبي ﷺ بمثل حديث الزهرى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى ، حدثنا ابن لهيعة عن ابن الزبير أنه سأل جابراً : سمعت النبي[2] ﷺ قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال أدركتم المبيت ، وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء ، قال : نعم .

---

(١) تمامه كما فى البخارى — ذهب عنه مايجد (٢) سمعت بفتح التاء — استفهام من جابر بحذف الهمزة .

وقال البخارى : حدثنا محمد ، حدثنا عبدة ، حدثنا محمد عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز ، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب ، ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرنى الشيطان » أو الشياطين ، لا أدرى أى ذلك قال هشام . ورواه مسلم والنسائى من حديث هشام به .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال : « ها إن الفتنة ههنا ، إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » ، هكذا رواه البخارى منفرداً به من هذا الوجه . وفى السنن أن رسول الله ﷺ نهى أن يجلس بين الشمس والظل ، وقال : « إنه مجلس الشيطان » وقد ذكروا فى هذا معانى ؛ من أحسنها أنه لما كان الجلوس فى مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان ، لأن خلقته فى نفسه مشوه وهذا مستقر فى الأذهان . ولهذا قال تعالى : (طلعها كأنه رءوس الشياطين)[1] . الصحيح أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كما زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم ؛ فإن النفوس مغروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يشاؤا ، ولهذا قال تعالى : (طلعها كأنه رءوس الشياطين) ، وقال النسوة لما شاهدن جمال يوسف : (حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم) .

وقال البخارى : حدثنا يحيى بن جعفر ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنا ابن جريج أخبرنى عطاء عن جابر عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح[2] — أو كان جنح الليل — أو أمسيتم فكفوا صبيانكم[3] ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم[4] ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله ، وأوك[5] سقاءك واذكر اسم الله ، وخمر[6] إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض[7] عليه شيئاً » .

ورواه أحمد عن يحيى عن ابن جريج ، وعنده : فإن الشيطان لا يفتح مغلقاً . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن أبى الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أغلقوا أبوابكم وخمروا آنيتكم ، وأوكوا أسقيتكم ، وأطفئوا سرجكم ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ولا يكشف غطاء ، ولا يحل وكاء ، وإن الفويسقة تضرم البيت على أهله — يعنى الفأرة » .

وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة عن منصور عن سالم بن أبى الجعد عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى ، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه » . وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس مثله .

---

(١) الآية : ٦٥ من سورة الصافات (٢) أى أظلم . (٣) ضموهم إليكم (٤) أى أخلوا سبيلهم .
(٥) أى شد ، وهو أمر من الإيكاء وهو الشد (٦) أى غط ، والتخمير التغطية (٧) أى تمده عليه عرضا .

ورواه أيضاً عن موسى بن إسماعيل عن همام عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « أما لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقا ولداً لم يضره الشيطان » . وقال البخارى : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى عن سليمان عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية[1] رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »[2] هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم عن حمزة ، حدثنى ابن أبى حازم عن يزيد — يعنى ابن الهادى — عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثاً ؛ فإن الشيطان يبيت على خيشومه » ورواه مسلم عن بشر بن الحكم عن الدراوردى والنسائى عن محمد بن زنبور عن عبد العزيز بن أبى حازم ، كلاهما عن يزيد بن الهادى به .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير عن منصور عن أبى وائل عن عبد الله قال : ذكر عند النبى ﷺ رجل نام ليله ثم أصبح ، قال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » أو قال « فى أذنه » .

ورواه مسلم عن عثمان و إسحاق كلاهما عن جرير به . وأخرجه البخارى أيضاً والنسائى وابن ماجة من حديث منصور بن المعتمر به . وقال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف أنبأنا الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا ثوب بها أدبر ، فإذا قضى أقبل ، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول : اذكر كذا وكذا ، حتى لايدرى أثلاثاً صلى أم أربعاً ، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً — سجد سجدتى السهو »[3] هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا جعفر — يعنى الأحمر — عن عطاء بن السائب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم فى الخلل » . وقال أحمد : حدثنا أبان ، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ كان يقول : « راصوا الصفوف وقاربوا بينها ، وحاذوا بين الأعناق ، فوالذى نفس محمد بيده إنى لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف »[4] .

وقال البخارى : حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبى

---

(١) هى مؤخر الرأس (٢ ، ٣) البخارى : كتاب بدء الخلق « باب صفة إبليس » .

(٤) قال فى القاموس : الحذف محركة طائر أو بط صغار . وغنم سود صغار حجازية أو جرشية بلا أذناب ولاآذان .

صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مر بين يدى أحدكم شىء فليمنعه ، فإن أبى فليمنعه ، فإن أبى فليقاتله ، فإنما هو شيطان » ورواه أيضاً مسلم وأبو داود من حديث سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا بشير بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائماً يصلى فذهبت أمر بين يديه فردنى ، ثم قال : حدثنى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتمونى وإبليس فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين : الإبهام والتى تليها ، ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سوارى المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم لايحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . وروى أبو داود منه : فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن أبى سريج عن أبى أحمد محمد بن عبد الله بن محمد بن الزبير به . وقال البخارى : حدثنا محمود حدثنا شبابة حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه صلى صلاة فقال : « إن الشيطان عرض لى فسد على لقطع الصلاة على ، فأمكننى الله منه » فذكر الحديث . وقد رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة به مطولا .

ولفظ البخارى عند تفسير قوله تعالى إخباراً عن سليمان عليه السلام أنه قال : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب[١]) من حديث روح وغندر عن شعبة عن محمد ابن زياد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تفلت[٢] على البارحة — أو كلمة نحوها . ليقطع على الصلاة . فأمكننى الله منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) قال روح فرده خاسئاً[٣] .

وروى مسلم من حديث أبى إدريس عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعنك بلعنة الله ثلاثاً » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يارسول الله ، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك فقال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » .

---

(١) الآية : ٣٦ من صورة ص (٢) توثب (٣) ذليلا مطروداً .

وقال تعالى : (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور)[١] يعنى الشيطان . وقال تعالى : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)[٢] . فالشيطان لايألو الإنسان خبالا جهده وطاقته فى جميع أحواله وحركاته وسكناته ، كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتاباً فى ذلك سماه : مصائد الشيطان ، وفيه فوائد جمة .

وفى سنن أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه : « أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » ، وروينا فى بعض الأخبار أنه قال : يارب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله تعالى : « وعزتى وجلالى ولاأزال أغفر لهم ما استغفرونى » . وقال الله تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم)[٣] فوعد الله هو الحق المصدق ووعد الشيطان هو الباطل . وقد روى الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه وابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لَمَّة[٤] بابن آدم وللملك لمة ؛ فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) .

وقد ذكرنا فى فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه . وذكرنا فى فضل آية الكرسى : أن من قرأها فى ليلة لايقربه الشيطان حتى يصبح .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أنبأنا مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك »[٥] . وأخرجه مسلم والترمذى وابن ماجة عن حديث مالك ، وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال البخارى : أنبأنا أبو اليمان ، أنبأنا شعيب عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال ﷺ : « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ، ذهب يطعن فطعن فى الحجاب »[٦] تفرد به من هذا الوجه . وقال البخارى : حدثنا عاصم بن على ، حدثنا ابن أبى

---

(١) الآية : ٣٣ من سورة لقمان (٢) الآية : ٦ من سورة فاطر .
(٣) الآية : ٢٦٨ من سورة البقرة (٤) اللمة : الصحبة والرفقة والمؤنس للواحد والجمع .
(٥) هذا الحديث وما بعده فى كتاب بدء الخلق . (٦) هو الجلدة التى فيها الجنين وهى المشيمة .

ذئب عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال «ها» ضحك الشيطان» . ورواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه النسائى من حديث ابن أبى ذئب به . وفى لفظ « إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب ، فإذا قال أحدكم ها ها فإنما ذلك الشيطان يضحك من جوفه » ورواه الترمذى والنسائى من حديث محمد بن عجلان به .

وقال البخارى : حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال : قالت عائشة سألت النبى ﷺ عن التفات الرجل فى الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم » ، وكذا رواه أبو داود والنسائى من رواية أشعث بن أبى الشعثاء سليم بن أسود المحاربى عن أبيه عن مسروق به .

وروى البخارى من حديث الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير ، حدثنى عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لاتضره » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لايشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى أحدكم ، لعل الشيطان أن ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق . وقال الله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ۞ وأعتدنا لهم عذاب السعير)(١) وقال : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ۞ وحفظاً من كل شيطان مارد ۞ لايسمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ۞ ولهم عذاب واصب ۞ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)(٢) . وقال تعالى : (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين ۞ وحفظناها من كل شيطان رجيم ۞ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)(٣) . وقال تعالى : (وما تنزلت به الشياطين ۞ وما ينبغى لهم وما يستطيعون ۞ إنهم عن السمع لمعزولون)(٤) ، وقال تعالى إخباراً عن الجان : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ۞ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً)(٥) .

---

(١) الآية : ٥ من سورة الملك (٢) الآيات : ٦ — ١٠ من سورة الصافات (٣) الآيات : من ١٦ — من الحجر (٤) الآيات : ٢١٠ : ٢١٢ من سورة الشعراء (٥) الآيتان : ٨ و ٩ من سورة الجن .

وقال البخارى : وقال الليث ، حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبى ﷺ قال : الملائكة تتحدث فى العنان — والعنان الغمام — بالأمر يكون فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كلمة »[1] هكذا رواه فى صفة إبليس معلقاً عن الليث به . ورواه فى صفة الملائكة عن سعيد بن أبى مريم عن الليث عن عبيد الله بن أبى جعفر عن محمد بن عبد الرحمن أبى الأسود عن عروة عن عائشة بنحوه . تفرد بهذين الطريقين دون مسلم . وروى البخارى فى موضع آخر ومسلم من حديث الزهرى عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال : قالت عائشة سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان فقال : « إنهم ليسوا بشىء » ، فقالوا يارسول الله : إنهم يحدثوننا أحياناً بشىء فيكون حقاً ، فقال ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجنى فيقرقرها[2] فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة » هذا لفظ البخارى .

وقال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا – للذى قال – الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض » . ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه « فتسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب ، قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا — كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » ، انفرد به البخارى[3] وروى مسلم من حديث الزهرى عن على بن الحسين زين العابدين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار عن النبى ﷺ نحو هذا .

وقال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ۞ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ۞ حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين)[4] وقال تعالى : (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم مابين أيديهم وما خلفهم — الآية)[5] ، وقال تعالى : (قال قرينه ربنا ماأطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ۞ قال لا تختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد ۞ ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد)[6] ، وقال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين

---

(١) فى النسخ التى بأيدينا مائة كذبة .

(٢) أى يرددها . وفى رواية يقرها والقر : ترديدك الكلام فى أذن المخاطب حتى يفهمه . وقر الدجاجة : صوتها إذا قطعته

(٣) الحديث فى كتاب التفسير « سورة سبأ » (٤) الآيات : ٣٦ – ٣٨ من سورة الزخرف .

(٥) الآية : ٢٥ من سورة فصلت . (٦) الآيات : ٢٧ – ٢٩ من سورة قٓ .

الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون ❁ ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون)[١] .

وقد قدمنا فى صفة الملائكة ما رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه ـ واسمه رافع ـ عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ، ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه ـ واسمه حصين بن جندب ـ وهو أبو ظبيان الجنبى ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين ، قالوا وأنت يارسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن الله أعاننى عليه فأسلم » . تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرنى أبو صخر عن يزيد بن قسيط ، حدثه أن عروة بن الزبير ، حدثه أن عائشة زوج النبى ﷺ ، حدثته : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلا ، قالت فغرت عليه ، قالت فجاء فرأى ما أصنع ، فقال مالك ياعائشة ؟ أغرت ؟ قالت : فقلت ومالى أن لايغار مثلى على مثلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أفأخذك شيطانك ؟ قالت يارسول الله أو معى شيطان ؟ قال نعم . قلت ومع كل إنسان ؟ قال نعم . قلت ومعك يارسول الله ؟ قال نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم » وهكذا رواه مسلم عن هارون ـ وهو ابن سعيد الأيلى ـ بإسناده نحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إن المؤمن لينصى شيطانه كما ينصى أحدكم بعيره فى السفر » تفرد به أحمد من هذا الوجه . ومعنى لينصى شيطانه : ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه . وقوله تعالى إخباراً عن إبليس : (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ❁ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين)[٢] .

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل ـ هو عبد الله بن عقيل الثقفى ـ حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد عن سبرة بن أبى فاكه ، قال سمعت رسول الله ﷺ قال : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة[٣] فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟

---

(١) الآيتان : ١١٢ و ١١٣ من سورة الأنعام . (٢) الآيتان : ١٦ و ١٧ من سورة الأعراف .

(٣) جمع طريق ، مثل طرق .

قال فعصاه وأسلم . قال : وقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول ، فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد ، وهو جهد النفس المال ، فقال : أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ قال فعصاه وجاهد » . قال رسول الله ﷺ : « فمن فعل ذلك منهم كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن كان غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته[١] دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عبادة بن مسلم الفزارى ، حدثنى جبير بن أبى سليمان بن ، جبير بن مطعم قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسى : « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى . اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى . اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » قال وكيع يعنى الخسف ، ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به . وقال الحاكم صحيح الإسناد .

باب ماورد فى خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم ما لا تعلمون ۞ وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ۞ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ۞ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ۞ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين ۞ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ۞ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ۞ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ۞ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۞ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[٢] ، وقال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)[٣] وقال تعالى : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها

---

(١) أوقعته ودقت عنقه . (٢) الآيات : ٣٠ — ٣٩ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٥٩ من سورة آل عمران .

و بث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً)[١] .

كما قال : (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)[٢] . وقال تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ... الآية)[٣] . وقال تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرنى إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولاتجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين * ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوآتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ؟ وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوّ مبين ؟ * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون)[٤] .

كما قال فى الآية الأخرى : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)[٥] . وقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته و نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط على مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم)[٦] . وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، قال أأسجد لمن خلقت

---

(١) أول سورة النساء (٢) الآية : ١٣ من سورة الحجرات (٣) الآية : ١٨٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآيات : ١١ــ٢٥ من سورة الأعراف (٥) الآية : ٥٥ من سورة طه (٦) الآيات : ٢٦ــ٤٤ من سورة الحجر .

طيناً ؟ * قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا)[١] . وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا)[٢] . وقال تعالى : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى * فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ * فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى * قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)[٣] . وقال تعالى : (قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون * ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون * إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين * إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال ياإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ أستكبرت أم كنت من العالين ؟ * قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين * قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين)[٤] .

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن

وقد تكلمنا على ذلك كله فى التفسير ، ولنذكر ههنا مضمون مادلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ﷺ ، والله المستعان

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) أعلم بما يريد أن يخلق

---

(١) الآيات : ٦١ ـ ٦٥ من سورة الإسراء (٢) الآية : ٥٠ من سورة الكهف .
(٣) الآيات : ١١٥ ـ ١٢٦ من سورة طه (٤) الآيات : من ٦٧ إلى آخر سورة ص .

من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته ، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة ، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم ، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين ، قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الحن والبن ، قاله قتادة .

وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل آدم بألفى عام فسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور . وعن ابن عباس نحوه ، وعن الحسن ألهموا ذلك . وقيل لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ ، فقيل أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له السجل . رواه ابن أبى حاتم عن أبى جعفر الباقر ، وقيل لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالباً ، (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أى نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد ، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فهانحن لا نفتر ليلا ولا نهاراً (قال إنى أعلم مالا تعلمون) أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء مالا تعلمون ، أى سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء .

ثم بين لهم شرف آدم عليهم فى العلم فقال : (وعلم آدم الأسماء كلها) . قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، و بحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وفى رواية : علمه اسم الصحفة ، والقدر ، حتى الفسوة والفسية . وقال مجاهد : علمه اسم كل دابة ، وكل طير وكل شىء . وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد .

وقال الربيع : علمه أسماء الملائكة . وقال عبد الرحمن بن زيد : علمه أسماء ذريته . والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها ، مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما .

وذكر البخارى هنا مارواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء » وذكر تمام الحديث .

(ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) . قال الحسن البصرى : لما أراد الله خلق آدم ، قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه ، فابتلوا بهذا . وذلك قوله : (إن كنتم صادقين) وقيل غير ذلك كما بسطناه فى التفسير ، قالوا : (سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم) ، أى سبحانك أن يحيط أحد بشىء من علمك من غير

تعليمك كما قال : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) . (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ؟) أى أعلم السر كما أعلم العلانية . وقيل إن المراد بقوله : (أعلم ماتبدون) ماقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، وبقوله (وما كنتم تكتمون) المراد بهذا الكلام إبليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم عليه السلام ، قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى واختاره ابن جرير . وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة (وما كنتم تكتمون) قولهم : لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه .

قوله : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر) هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، كما قال : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فهذه أربع تشريفات : خلقه له بيده الكريمة ، ونفخه فيه من روحه ، وأمره الملائكة بالسجود له ، وتعليمه أسماء الأشياء . ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه فى الملأ الأعلى وتناظرا كما سيأتى : أنت آدم أبو البشر الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء . وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم ، وكما سيأتى إن شاء الله تعالى . وقال فى الآية الأخرى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴿ قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

قال الحسن البصرى : قاس إبليس وهو أول من قاس . وقال محمد بن سيرين : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس ، رواهما ابن جرير . ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم ، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له ، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلا بالنص كان فاسد الاعتبار . ثم هو فاسد فى نفسه ؛ فإن الطين أنفع وخير من النار ، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق .

ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه ، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له ، كما قال : (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون * إلى — يوم الدين) ، استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراءه به وترفعه عليه — مخالفة الأمر الإلهى ، ومعاندة الحق فى النص على آدم على التعيين . وشرع فى الاعتذار بما لايجدى عنه شيئاً ، وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى فى سورة سبحان : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ ... إلى — وكفى بربك وكيلا) .

وقال فى سورة الكهف : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره ، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها ، فإنه مخلوق من نار كما قال ، وكما جاء فى صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

قال الحسن البصرى : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب : كان من الجن ، فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار ، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك ، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه . وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون : كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا ، قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل ، وفى رواية عن الحارث قال النقاش وكنيته : أبو كردوس . قال ابن عباس : وكان من حى من الملائكة يقال لهم الجن ، وكانوا خزان الجنان ، وكان من أشرفهم وأكثرهم علماً وعبادة ، وكان من أولى الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً . وقال فى سورة ص : (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * ... إلى — لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) .

وقال فى سورة الأعراف : (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى بسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم كل مرصد ، ولآتينهم من كل جهة منهم ، فالسعيد من خالفه والشقى من اتبعه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل — هو عبد الله بن عقيل الثقفى — حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد عن سبرة بن أبى الفاكه قال سمعت رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يقعد لابن آدم بأطرقه » وذكر الحديث كما قدمناه فى صفة إبليس .

وقد اختلف المفسرون فى الملائكة المأمورين بالسجود لآدم : أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات ؟ وهو قول الجمهور . أو المراد بهم ملائكة الأرض ؟ كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس ، وفيه انقطاع وفى السياق نكارة[1] ، وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه . ولكن الأظهر من السياقات الأول ، ويدل عليه الحديث : « وأسجد له ملائكته » وهذا عموم أيضاً والله أعلم . وقوله تعالى لإبليس : (اهبط منها) و (اخرج منها) دليل على أنه كان فى السماء فأمر بالهبوط

---

(١) النكارة : الفطنة والدهاء .

منها ، والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته ، وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذءوماً مدحوراً .

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) . وقال فى الأعراف : (قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ✿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ✿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ✿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ✿ وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى) وسياق هذه الآيات يقضى أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) وهذا قد صرح به إسحاق بن بشار وهو ظاهر هذه الآيات .

ولكن حكى السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا : أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضلعه . فسألها من أنت ؟ قالت امرأة ، قال ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلى ، فقالت له الملائكة ينظرون مابلغ من علمه : ما اسمها يا آدم ؟ قال حواء ، قالوا ولم كانت حواء ؟ قال لأنها خلقت من شىء حى . وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ، ولأم مكانه لحما . ومصداق هذا فى قوله تعالى : (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . . . الآية) وفى قوله تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به . . . الآية) وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفى الصحيحين من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعى ، عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً» لفظ البخارى .

وقد اختلف المفسرون فى قوله تعالى : (ولا تقربا هذه الشجرة) فقيل هى الكرم ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدى فى رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، قال : وتزعم يهود أنها الحنطة ، وهذا مروى عن ابن عباس والحسن البصرى ووهب بن منبه وعطية العوفى وأبى مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبى ليلى .

قال وهب : والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل . وقال الثورى عن أبى حصين عن أبى مالك : ولا تقربا هذه الشجرة — هى النخلة . وقال ابن جريج عن مجاهد : هى التينة ، وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو العالية كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغى فى الجنة حدث .

وهذا الخلاف قريب ، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها . ولو كان فى ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما فى غيرها من المحال التى تبهم فى القرآن . وإنما الخلاف الذى ذكروه فى أن هذه الجنة التى دخلها آدم : هل هى فى السماء أو فى الأرض — هو الخلاف الذى ينبغى فصله والخروج منه. والجمهور على أنها هى التى فى السماء وهى جنة المأوى ، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظى ، وإنما تعود على معهود ذهنى وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى ، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام : « علام أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ . . . الحديث » كما سيأتى الكلام عليه .

وروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الأشجعى ـ واسمه سعد بن طارق — عن أبى حازم سلمة ابن دينار عن أبى هريرة ، وأبو مالك عن ربعى عن حذيفة قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ » وذكر الحديث بطوله . وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى وليست تخلو عن نظر .

وقال آخرون : بل الجنة التى أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد ، لأنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولأنه نام فيها وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافى أن تكون جنة المأوى . وهذا القول محكى عن أبى بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة ، واختاره ابن قتيبة فى المعارف ، والقاضى منذر بن سعيد البلوطى فى تفسيره وأفرد له مصنفاً على حدة . وحكاه عن أبى حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله . ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى بن خطيب الرى فى تفسيره عن أبى القاسم البلخى وأبى مسلم الأصبهانى . ونقله القرطبى فى تفسيره عن المعتزلة والقدرية . وهذا القول هو نص التوراة التى بأيدى أهل الكتاب . وممن حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل ، وأبو محمد بن عطية فى تفسيره ، وأبو عيسى الرمانى فى تفسيره .

وحكى عن الجمهور الأول ، وأبو القاسم الراغب والقاضى الماوردى فى تفسيره فقال : واختلف فى الجنة التى أسكناها يعنى آدم وحواء على قولين : أحدهما أنها جنة الخلد ، الثانى جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء ، وليست جنة الخلد التى جعلها دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا على قولين : أحدهما أنها فى السماء لأنه أهبطهما منها ، وهذا قول الحسن ، والثانى أنها فى الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن

الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهذا قول ابن يحيى ، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم ، والله أعلم بالصواب من ذلك .

هذا كلامه . فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة ، وأشعر كلامه أنه متوقف فى المسألة . ولقد حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره فى هذه المسألة أربعة أقوال : هذه الثلاثة التى أوردها الماوردى ، ورابعها الوقف . وحكى القول بأنها فى السماء وليست جنة المأوى — عن أبى على الجبائى .

وقد أورد أصحاب القول الثانى سؤالا يحتاج مثله إلى جواب ، فقالوا : لاشك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلٰهية ، وأمره بالخروج عنها والهبوط منها ، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته ، وإنما هو أمر قدرى لايخالف ولايمانع ، ولهذا قال : (اخرج منها مذءوماً مدحوراً) : وقال : (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) وقال : (اخرج منها فإنك رجيم) والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة ، وأيا ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدراً فى المكان الذى طرد عنه وأبعد منه ، لاعلى سبيل الاستقرار ولاعلى سبيل المرور والاجتياز .

قالوا : ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له : (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ؟) وبقوله : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ✻ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ✻ فدلاهما بغرور . . . الآية) وهذا ظاهر فى اجتماعه معهما فى جنتهما . وقد أجيبوا عن هذا بأنه لايمتنع أن يجتمع بهما فى الجنة على سبيل المرور فيها لاعلى سبيل الاستقرار بها ، وأنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء . وفى الثلاثة نظر ، والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة : ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى الزيادات عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن حميد ، عن الحسن البصرى عن يحيى بن ضمرة السعدى ، عن أبى بن كعب قال : إن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من عنب الجنة ، فانطلق بنوه ليطلبوه له ، فلقيتهم الملائكة فقالوا : أين تريدون يابنى آدم ؟ فقالوا إن أبانا اشتهى قطفاً من عنب الجنة فقالوا لهم : ارجعوا فقد كفيتموه . فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه ، وصلى عليه جبريل ومن خلفه من الملائكة ودفنوه ، وقالوا : هذه سنتكم فى موتاكم . وسيأتى الحديث بسنده ، وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام . قالوا : فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التى كان فيها آدم التى اشتهى منها القطف ممكناً — لما ذهبوا يطلبون ذلك ، فدل على أنها فى الأرض لا فى السماء ، والله تعالى أعلم .

قالوا : والاحتجاج بأن الألف واللام فى قوله : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهنى — مسلم ، ولكن هو مادل عليه سياق الكلام ، فإن آدم خلق

من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء ، وخلق ليكون فى الأرض ، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال : (إنى جاعل فى الأرض خليفة)

قالوا : وهذا كقوله تعالى : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) [١] ، فالألف واللام ليس للعموم ، ولم يتقدم معهود لفظى ، وإنما هى للمعهود الذهنى الذى دل عليه السياق وهو البستان .

قالوا : وذكر الهبوط لايدل على النزول من السماء ، قال الله تعالى : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . . . الآية [٢]) وإنما كان فى السفينة حين استقر على الجودى ونضب الماء عن وجه الأرض ، وأمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركا عليه وعليهم . وقال الله تعالى : (اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم . . . الآية [٣]) وقال تعالى : (وإن منها لما يهبط من خشية الله . . . الآية [٤]) وفى الأحاديث واللغة من هذا كثير .

قالوا : ولامانع — بل هو الواقع — أن الجنة التى أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ، ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور ، كما قال تعالى : (إن لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى) : أى لايذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعرى (وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى) : أى لايمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس ، ولهذا قرن بين هذا وهذا ، وبين هذا وهذا ، لما بينهما من الملاءمة . فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التى نهى عنها ، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعى والنكد ، والابتلاء والاختبار والامتحان ، واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالا ، وقصوداً وإرادات وأقوالا وأفعالا ، كما قال تعالى : (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) ، ولا يلزم من هذا أنهم كانوا فى السماء كما قال : (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) [٥] ، ومعلوم أنهم كانوا فيها ولم يكونوا فى السماء .

قالوا : وليس هذا القول مفرعاً على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ، ولاتلازم بينهما ، فكل من حكى عنه هذا القول من السلف وأكثرهم الخلف — ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم ، كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كما سيأتى إيرادها فى موضعها ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقوله تعالى : (فأزلهما الشيطان عنها) أى عن الجنة (فأخرجهما مما كانا فيه) أى من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد ، وذلك بما وسوس لهما وزينه فى صدورهما ، كما قال تعالى : (فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوآتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة

---

(١) الآية : ١٧ من سورة ن (٢) الآية : ٤٨ من سورة هود .
(٣) الآية : ٦١ من سورة البقرة (٤) الآية : ٧٤ من سورة البقرة (٥) الآية : ١٠٤ من سورة الإسراء .

إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) يقول : ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، أى ولو أكلتما منها لصرتما كذلك ، (وقاسمهما) أى حلف لهما على ذلك (إنى لكما لمن الناصحين) ، كما قال فى الآية الأخرى : (فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ؟) : أى هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم ، واستمررت فى ملك لايبيد ولا ينقضى ؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود أن قوله شجرة الخلد - التى إذا أكلت منها خلدت ، وقد تكون هى الشجرة التى قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا شعبة عن أبى الضحاك سمعت أباهريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها ، شجرة الخلد » . وكذا رواه أيضاً عن غندر وحجاج عن شعبة ، ورواه أبو داود الطيالسى فى مسنده عن شعبة أيضاً به . قال غندر : قلت لشعبة هى شجرة الخلد ، قال ليس فيها هى . تفرد به الإمام أحمد .

وقوله : (فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتها ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) كما قال فى طه (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم ، وهى التى حدته على أكلها والله أعلم .

وعليه يحمل الحديث الذى رواه البخارى : حدثنا بشر بن محمد ، حدثنا عبد الله ، أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه : « لولا بنو إسرائيل لم يخنز[1] اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » : تفرد به من هذا الوجه ، وأخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة به ، ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف عن أبى وهب عن عمرو بن حارث عن أبى يونس عن أبى هريرة به . وفى كتاب التوارة التى بين أيدى أهل الكتاب : أن الذى دل حواء على الأكل من الشجرة هى الحية ، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها ، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام ، وليس فيها ذكر لإبليس ، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان ، فوصلا من ورق التين وعملا ميازر . وفيها أنهما كانا عريانين . وكذا قال وهب بن منبه كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها .

وهذا الذى فى هذه التوراة التى بأيديهم — غلط منهم ، وتحريف وخطأ فى التعريب ؛ فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لايكاد يتيسر لكل أحد ، ولا سيما ممن لايعرف كلام العرب جيداً ، ولا

---

(١) أى لم ينتن ولم تتغير رائحته ؛ ذلك لأنهم كانوا يدخرون اللحم والطعام لغدهم .

يحيط علماً بفهم كتابه ، أيضاً فلهذا وقع فى تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى . وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس فى قوله : (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) فهذا لا يرد لغيره من الكلام والله تعالى أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسن ين اسكاب ، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس ، كأنه نخلة سحوق[1] ، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه ، فأول مابدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة ، فأخذت شعره شجرة فنازعها ، فناداه الرحمن عز وجل : يا آدم منى تفر ؟ ، فلما سمع كلام الرحمن قال : يارب لا ، ولكن استحياء » .

وقال الثورى عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ورق التين . وهذا إسناد صحيح إليه ، وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب ، وظاهر الآية يقتضى أعم من ذلك ، وبتقدير تسليمه فلا يضر ، والله تعالى أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصرى عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ، ستين ذراعاً ، كثير الشعر موارى العورة ، فلما أصاب الخطيئة فى الجنة بدت له سوأته ، فخرج من الجنة ، فلقيته شجرة فأخذت بناصيته ، فناداه ربه : أفراراً منى يا آدم ؟ قال : بل حياء منك والله يارب مما جئت به » . ثم رواه من طريق سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة عن الحسن عن يحيى بن ضمرة ، عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ بنحوه . وهذ أصح ؛ فإن الحسن لم يدرك أبياً . ثم أورده أيضاً من طريق خيثمة ابن سليمان الإطرابلسى عن محمد بن عبد الوهاب أبى قرصافة العسقلانى ، عن آدم بن أبى إياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعاً بنحوه .

(وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة ، وتذلل وخضوع واستكانة ، وافتقار إليه تعالى فى الساعة الراهنة ، وهذا السر ما سرى فى أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير فى دنياه وأخراه .

(قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس ، قيل والحية معهم ، أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين .

---

(١) أي طويلة . قال في القاموس : والسحوق من النخل والحمر والأتن ـ الطويلة ، والجمع سحق بالضم .

وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات ، وقال : « ماسالمناهن منذ حاربناهن » ، وقوله فى سورة طه : (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) هو أمر لآدم وإبليس ، واستتبع آدم حواء و إبليس الحية . وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما فى قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين[1]) .

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدع ومدعى عليه — قال وكنا لحكمهم شاهدين ، وأما تكريره الإهباط فى سورة البقرة فى قوله : (وقلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار فيها خالدون) — فقال بعض المفسرين : المراد بالإهباط الأول : الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا ، وبالثانى : من السماء الدنيا إلى الأرض . وهذا ضعيف لقوله فى الأول : (قلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم .

والصحيح أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً وناط مع كل مرة حكما ؛ فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم ، و بالثانى الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذى ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ، ومن خالفه فهو الشقى ، وهذا الأسلوب فى الكلام له نظائر فى القرآن الحكيم .

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال : أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره ، فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق به غصن ، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة ، فنكس رأسه يقول : العفو العفو ، فقال الله : أفراراً منى ؟ قال بل حياء منك ياسيدى . وقال الأوزاعى عن حسان — هو ابن عطية — مكث آدم فى الجنة مائة عام ، وفى رواية ستين عاماً ، وبكى على الجنة سبعين عاماً ، وعلى خطيئته سبعين عاماً ، وعلى ولده حين قتل أربعين عاماً . رواه ابن عساكر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال : أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها « دحنى »[2] بين مكة والطائف . وعن الحسن قال : أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، و إبليس بدستميسان من البصرة على أميال ، وأهبطت الحية بأصبهان ، رواه ابن أبى حاتم أيضاً . وقال السدى : نزل آدم بالهند ، ونزل معه بالحجر الأسود و بقبضة

---

(١) الآية : ٧٨ من سورة الأنبياء (٢) وقيل : اسمها دجنى . قال فى القاموس : ودجنى بالضم أو بالكسر وقد يمد : أرض خلق منها آدم عليه السلام ، أو هى بالحاء المهملة .

من ورق الجنة ، فبثه فى الهند فنبتت شجرة الطيب هناك . وعن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفا ، وحواء بالمروة . رواه ابن أبى حاتم أيضاً .

وقال عبد الرزاق : قال معمر أخبرنى عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى الأشعرى قال : إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شىء ، وزوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير . وقال الحاكم فى مستدركه : أنبأنا أبو بكر بن بالوية عن محمد بن أحمد بن النضرعن معاوية بن عمر عن زائدة عن عمار بن أبى معاوية البجلى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا مابين صلاة العصر إلى غروب الشمس . ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفى صحيح مسلم من حديث الزهرى عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » وفى الصحيح من وجه آخر « وفيه تقوم الساعة » . وقال أحمد : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا الأوزاعى عن أبى عمار عن عبد الله بن فروخ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة » على شرط مسلم .

فأما الحديث الذى رواه ابن عساكر من طريق أبى القاسم البغوى ، حدثنا محمد بن جعفر الوركانى ، حدثنا سعيد بن ميسرة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « هبط آدم وحواء عريانين جميعاً ، عليهما ورق الجنة ، فأصابه الحر حتى قعد يبكى ويقول لها : ياحواء قد آذانى الحر ، قال فجاءه جبريل بقطن ، وأمرها أن تغزل وعلمها ، وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج » ، وقال : « كان آدم لم يجامع امرأته فى الجنة ، حتى هبط منها للخطيئة التى أصابتهما بأكلهما من الشجرة » ، قال : « وكان كل واحد منهما ينام على حدة ؛ ينام أحدهما فى البطحاء والآخر من ناحية أخرى ، حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتى أهله » ، قال : « وعلمه كيف يأتيها ، فلما أتاها جاءه جبريل فقال : كيف وجدت امرأتك ؟ قال : صالحة » — فإنه حديث غريب [1] ورفعه منكر جداً . وقد يكون من كلام بعض السلف ، وسعيد بن ميسرة هذا هو أبو عمران البكرى البصرى ، قال فيه البخارى : منكر الحديث ، وقال ابن حبان : يروى الموضوعات ، وقال ابن عدى : مظلم الأمر .

وقوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) قيل هى قوله : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) [2] . روى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى

---

(١) قوله : فإنه حديث غريب — جواب قوله : فأما الحديث الذى رواه ابن عساكر .

(٢) الآية : ٢٣ من سورة الأعراف .

العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن إشكاب ، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « قال آدم عليه السلام : أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة ؟ قال : نعم » فذلك قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : الكلمات : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم » . وروى الحاكم فى مستدركه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) قال : قال آدم يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له بلى ، ونفخت فىّ من روحك ؟ قيل له بلى ، وعطستُ فقلتَ يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى ، وكتبت علىّ أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى ، قال : أفرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قال نعم . ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وروى الحاكم أيضاً والبيهقى وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد أن غفرت لى ، فقال الله : فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟ فقال : يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ، ونفخت فىّ من روحك — رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلىّ ، وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك . قال البيهقى تفرد به عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف . والله أعلم . وهذه الآية كقوله تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى ۞ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)[1] .

ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخارى : حدثنا قتيبة . حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « حاج موسى آدم عليها السلام فقال له : أنت الذى أخرجت الناس بذنبك

---

(١) الآيتان : ١٢١ ، ١٢٢ من سورة طه .

من الجنة وأشقيتهم ، قال آدم : ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومنى على أمر قد كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى ، أو قدره علىّ قبل أن يخلقنى ؟ » قال رسول الله ﷺ : «فحج آدم موسى» .
وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد ، والنسائى عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به . قال أبو مسعود الدمشقى ولم يخرجاه عنه فى الصحيحين سواه ، وقد رواه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة ، ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم ، حدثنا أبو شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة ؟ » فقال له آدم : وأنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومنى على أمر قدر على قبل أن أخلق ؟ قال رسول ﷺ : «فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى» مرتين . قلت وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة »، قال : « فقال آدم : وأنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه تلومنى على عمل أعمله ، كتبه الله على قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : فحج آدم موسى » .

وقد رواه الترمذى والنسائى جميعاً عن يحيى بن حبيب بن عدى عن معمر بن سليمان عن أبيه عن الأعمش به . قال الترمذى : وهو قريب من حديث سليمان التيمى عن الأعمش . قال : وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد ، قلت هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن محمد ابن مثنى عن معاذ بن أسد عن الفضل بن موسى عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد . ورواه البزار أيضاً : حدثنا عمرو بن على الفلاس ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أو أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه .

وقال أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاووساً سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم : ياموسى أنت الذى اصطفاك الله بكلامه — وقال مرة برسالته — وخط لك بيده ، أتلومنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ؟ » قال : « حج آدم موسى ، حج آدم موسى ، حج آدم موسى » .
وهكذا رواه البخاري عن على بن المديني ، حدثنا عن سفيان قال حفظناه من عمرو عن طاووس ، قال

سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم : ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى فحج آدم موسى «هكذا ثلاثاً» .

قال سفيان : حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله . وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجة من عشر طرق ، عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد عن عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لقي آدم موسى ، فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك الجنة ،ثم فعلت ما فعلت ؟ فقال : أنت موسى الذي كلمك الله واصطفاك برسالته ، وأنزل عليك التوراة ، أنا أقدم أم الذكر ؟ قال : لا بل الذكر ، فحج آدم موسى » .

قال أحمد : وحدثنا عفان ، حدثنا حماد عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وحميد عن الحسن عن رجل — قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلي — عن النبي ﷺ قال : « لقي آدم موسى » فذكر معناه . تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا الحسن ، حدثنا جرير ـ هو ابن حازم ـ عن محمد ، هو ابن سيرين ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقي آدم موسى فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، ثم صنعت ما صنعت ؟ قال آدم : يا موسى أنت الذي كلمه الله ، وأنزل عليه التوراة ؟ قال نعم قال : فهل تجده مكتوباً على قبل أن أخلق ؟ قال نعم . قال : فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » .

وكذا رواه حماد بن زيد عن أيوب ، وهشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رفعه . وكذا رواه علي بن عاصم عن خالد ، وهشام عن محمد بن سيرين ، وهذا على شرطهما من هذه الوجوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن أبي ذباب ، عن يزيد بن هرمز سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك ؟ قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجياً ؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة ؟ قال موسى بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها : (وعصى آدم ربه

فعوى ؟) قال نعم . قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ؟ » قال : قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » .

قال الحارث : وحدثنى عبد الرحمن بن هرمز بذلك . عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ . وقد رواه مسلم عن إسحق بن موسى الأنصارى ، عن أنس بن عياض عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب ، عن يزيد بن هرمز والأعرج ، كلاهما عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : يا آدم أنت الذى أدخلت ذريتك النار ، فقال آدم : يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليك التوراة ، فهل وجدت أن أهبط ؟ قال نعم ، قال فحجه آدم » . وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه ، وفى قوله ، أدخلت ذريتك النار — نكارة .

فهذه طرق هذا الحديث عن أبى هريرة ، رواه عنه حميد بن عبد الرحمن ، وذكوان أبو صالح السمان ، وطاووس بن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وعمار بن أبى عمار ، ومحمد بن سيرين ، وهمام بن منبه ، ويزيد بن هرمز ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : حدثنا الحارث بن مسكين المصرى ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ قال : « قال موسى عليه السلام : يا رب أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة ، فأراه آدم عليه السلام ، فقال : أنت آدم ؟ فقال له آدم : نعم . فقال : أنت الذى نفخ الله فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك الأسماء كلها ؟ قال نعم . قال : فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : من أنت ؟ قال أنا موسى ، قال : أنت موسى نبى بنى إسرائيل ؟ أنت الذى كلمك الله من وراء الحجاب ، فلم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه ؟ قال نعم . قال تلومنى على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل ؟ » قال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » .

ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصرى عن ابن وهب به . قال أبو يعلى : وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعى ، حدثنا عمران عن الردينى عن أبى مجز عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر — قال أبو محمد أكبر ظنى أنه رفعه — قال : « التقى آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : أنت أبو البشر ، أسكنك الله جنته ، وأسجد لك ملائكته . قال آدم : يا موسى أما تجده على مكتوباً ؟ قال فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » وهذا الإسناد أيضاً لا بأس به ، والله أعلم .

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد ، ورواية الإمام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن رجل . قال حماد : أظنه جندب بن عبد الله البجلى ، عن النبى ﷺ : « لقى آدم موسى » فذكر معناه .

وقد اختلفت مسالك الناس فى هذا الحديث : فرده قوم من القدرية [١] لما تضمن من إثبات القدر السابق واحتج به قوم من الجبرية ، [٢] وهو ظاهر لهم بادئ الرأى حيث قال فحج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه ، وسيأتى الجواب عن هذا . وقال آخرون : إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقيل إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم . وقيل لأنه أبوه . وقيل لأنهما فى شريعتين متغايرتين . وقيل لأنهما فى دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه .

والتحقيق أن هـذا الحديث روى بألفاظ كثيرة بعضها مروى بالمعنى . وفيه نظر . ومدار معظمها فى الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة ، فقال له آدم : أنا لم أخرجكم ، وإنما أخرجكم الذى رتب الإخراج على أكلى من الشجرة ، والذى رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق — هو الله عز وجل ، فأنت تلومنى على أمر ليس له نسبة إلى أكثر من أنى نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلى ، فأنا لم أخرجكم ولا نفسى من الجنة ، وإنما كان هذا من قدرة الله وصنعه ، وله الحكمة فى ذلك ، فلهذا حج آدم موسى .

ومن كذب بهـذا الحديث فمعاند ؛ لأنه متواتر عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً . ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا ، ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً . فهو بعيد من اللفظ والمعنى ، وما فيهم من هو أقوى مسلكا من الجبرية .

وفيما قالوه نظر من وجوه : «أحدها» أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب عنه فاعله .

« الثانى » أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله فى ذلك بقوله : (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له . . . الآية)[٣] .

« الثالث » أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد — لا نفتح هـذا لكل من ليم على أمر قد فعله ، فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود . ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذى ارتكبه فى الأمور الكبار والصغار ، وهـذا يفضى

---

(١) فرقة من المعتزلة تقول : بأن الله لا يخلق أفعال الناس ، ولكن الناس يعملون أعمالهم بالقدر التى خلقهـا الله فيهم ، فهم أحرار فيما يعملون ؛ فإن عمل عملا صالحاً أثيب عليه ، وإن أساء لقى جزاء ماجنته يداه .

(٢) الجبرية : هم الذين لا يثبتون للعبد فعلا ولا قدرة على العمل ، أو له قدرة غير مؤثرة ويضيفون كل شيء إلى المولى سبحانه وتعالى . (٣) من الآية : ١٦ من سورة القصص .

إلى لوازم فظيعة . فلهذا قال من قال من العلماء ـ بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية . والله تعالى أعلم .

ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد . حدثنا يحيي ومحمد بن جعفر ، حدثنا عوف حدثنى قسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وإبين ذلك .

ورواه أيضاً عن هوذة عن عوف عن قسامة بن زهير سمعت الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك » . وكذا رواه أبو داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه من حديث عوف بن أبى جميلة الأعرابى ، عن قسامة بن زهير المازنى البصرى ، عن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقد ذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : فبعث الله عز وجل جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى ، فرجع ولم يأخذ ، وقال : رب إنها عاذت بك فأعذتها. فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل . فبعث ملك الموت فعاذت منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به فبلّ التراب حتى عاد طيناً لازباً . واللازب : هو الذى يلزق بعضه ببعض ، ثم قال للملائكة : (إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه ، فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعاً إبليس ، فكان يمر به فيضربه ، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ما خلقت ، ودخل من فيه وخرج من دبره ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد[1] وهذا أجوف ، لئن سلطت عليه لأهلكنه ،

---

(١) من معانى الصمد : المصمت الذى لا جوف له .

فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس ، فقالت الملائكة قل : الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال له الله : رحمك ربك ، فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، وذلك حين يقول الله تعالى : (خلق الإنسان من عجل)[1] . (فسجد الملائكة كلهم أجمعون ۞ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين) وذكر تمام القصة .

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات . فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله آدم تركه ماشاء أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْقٌ لايتمالك » . وقال ابن حبان فى صحيحه : حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما نفخ فى آدم فبلغ الروح رأسه عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقال له تبارك وتعالى : يرحمك الله » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا حبان بن هلال ، حدثنا مبارك ابن فضالة عن عبيد الله عن حبيب عن حفص — هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب — عن أبى هريرة رفعه قال : « لما خلق الله آدم عطس ، فقال الحمد لله ، فقال له ربه رحمك ربك يا آدم » . وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه . وقال عمر بن عبد العزيز : لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل ، فآتاه الله أن كتب القرآن فى جبهته . رواه ابن عساكر .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا عمرو بن محمد ، عن إسماعيل بن رافع ، عن المقبرى ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من تراب ، ثم جعله طيناً ثم تركه ، حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه ، حتى إذا كان صلصالا كالفخار قال : فكان إبليس يمر به فيقول لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ماجرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فلقاه الله رحمة ربه ، فقال الله : يرحمك ربك ، ثم قال الله : يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر[2] فقل لهم[3] فانظر ماذا يقولون ؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال يا آدم : هذا تحيتك وتحية ذريتك . قال يا رب : وماذريتى ؟ قال : اختر يدى يا آدم ، قال : أختار يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين ، وبسط كفه فإذا من

---

(١) من الآية : ٣٧ من سورة الأنبياء . (٢) النفر : الناس كلهم وعدة رجال من ثلاثة إلى عشرة .
(٣) لم يذكر فى الأصل المقول ، ولعله السلام عليكم كما يدل عليه مابعده .

هو كائن من ذريته فى كف الرحمن ، فإذا رجال منهم أفواههم النور ، فإذا رجل يعجب آدم نوره ، قال يارب من هذا ؟ قال ابنك داود ، قال يارب : فكم جعلت له من العمر ، قال جعلت له ستين ، قال يارب : فأتم له من عمرى حتى يكون له من العمر مائة سنة ، ففعل الله ذلك ، وأشهد على ذلك ، فلما نفد عمر آدم بعث الله ملك الموت ، فقال آدم : أو لم يبق من عمرى أربعين سنة ؟ قال له الملك : أو لم تعطها ابنك داود ؟ فجحد ذلك ، فجحدت ذريته ، ونسى فنسيت ذريته » .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . وقال الترمذى حديث حسن غريب من هذا الوجه . وقال النسائى هذا حديث منكر ، وقد رواه محمد بن عجلان عن أبيه عن أبى سعيد المقبرى عن عبد الله بن سلام .

وقال الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ، عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً(١) من نور : ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أى رب من هذا ؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة ، قال : أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته » . ثم قال الترمذى حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين ، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى ابن أبى حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعاً ، فذكره وفيه : « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ، و إذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يارب لم فعلت هذا بذريتى ؟ قال كى تشكر نعمتى » . ثم ذكر قصة داود . وستأتى من رواية ابن عباس أيضاً .

وقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة عن أبى إدريس عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى ،

---

(١) أى لمعاناً وضياء . يقال : وبص البرق — لمع وبرق .

فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم [1] ، فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى ، وقال للذى فى كتفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى » .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا الحكم بن سنان عن حوشب عن الحسن قال : خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى ، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فألقوا على وجه الأرض ؛ منهم الأعمى والأصم والمبتلى . فقال آدم : يارب ألا سويت بين ولدى ؟ قال يا آدم . إنى أردت أن أشكر . وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن بنحوه .

وقد رواه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه فقال : حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا صفوان بن عيسى ، حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال الحمد لله ، فحمد الله بإذن الله ، فقال له ربه : يرحمك ربك يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة ، إلى ملأ منهم جلوس فسلم عليهم ، فقال السلام عليكم ، فقالوا وعليكم السلام ورحمة الله . ثم رجع إلى ربه فقال هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم ، وقال الله ويداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت ، فقال اخترت يمين ربى ، وكلتا يدى ربى يمين مباركة ، ثم بسطهما فإذا فيهما آدم وذريته ، فقال أى رب ماهؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك ، و إذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه ، و إذا فيهم رجل أضوؤهم — أو من أضوئهم — لم يكتب له إلا أربعون سنة ، قال يارب من هذا ؟ قال هذا ابنك داود وقد كتب الله عمره أربعين سنة ، قال أى رب زد فى عمره ، فقال ذاك الذى كتب له ، قال فإنى قد جعلت له من عمرى ستين سنة ، قال أنت وذاك . اسكن الجنة ، فسكن الجنة ماشاء الله ثم هبط منها ، وكان آدم يعد لنفسه ، فأتاه ملك الموت فقال له آدم : قد عجلت ، قد كتب لى ألف سنة ، قال بلى ، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة ، فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسى فنسيت ذريته ، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود » هذا لفظه .

وقد قال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة ، واستمع ماتحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال السلام عليكم ، فقالوا السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص

---

(١) الحمم : الفحم والرماد ، وكل ما احترق من النار — الواحدة حممة .

حتى الآن » . وهكذا رواه البخارى فى كتاب الاستئذان ، عن يحيى بن جعفر ومسلم ، عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان طول آدم ستين ذراعاً فى سبع أذرع عرضاً » . انفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم . إن الله لما خلق آدم مسح ظهره ، فأخرج منه ماهو ذارى إلى يوم القيامة ، فجعل يعرض ذريته عليه . فرأى فيهم رجلا يزهر ، قال : أى رب من هذا ؟ قال هذا ابنك داود ، قال أى رب كم عمره ؟ قال ستون عاماً . قال أى رب زد فى عمره ، قال : لا . إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً . فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما احتضر آدم أتيه الملائكة لقبضه ، قال إنه قد بقى من عمرى أربعون عاماً ، فقيل له : إنك قد وهبتها لابنك داود قال مافعلت ، وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة .

وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ، قالها ثلاث مرات . إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه ، فرأى فيهم رجلا يزهر ، فقال أى رب زد فى عمره ، قال لا — ، إلا أن تزيده أنت من عمرك ، فزاده أربعين سنة من عمره . فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما أراد أن يقبض روحه قال : إنه بقى من أجلى أربعون سنة ، فقيل له : إنك قد جعلتها لابنك داود ، قال فجحد ، قال : فأخرج الله الكتاب ، وأقام عليه البينة ، فأتمها لداود مائة سنة ، وأتم لآدم عمره ألف سنة ، تفرد به أحمد وعلى بن زيد ، فى حديثه نكارة .

ورواه الطبرانى : عن على بن عبد العزيز ، عن حجاج بن منهال ، عن حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس وغير واحد ، عن الحسن قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ثلاثاً » وذكره . وقال الإمام مالك بن أنس فى موطئه عن زيد بن أبى أنيسة : أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا بلى [1]) الآية ، فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها

---

(١) الآية : ١٧٢ سورة الأعراف .

فقال : «إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار ، و يعمل أهل النار يعملون » ، فقال رجل : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ : « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة ، و إذا خلق الله العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمـال أهل النار فيدخل به النار » .

وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو حاتم ابن حبان فى صحيحه من طرق عن الإمام مالك به . وقال الترمذى هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر . وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم : و بينهما نعيم بن ربيعة . وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية ، عن عمر بن جُشم عن زيد بن أبى أنيسة ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث قال الحافظ الدارقطنى : وقد تابع عمر بن جُشم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوى ، عن زيد بن أبى أنيسة قال : وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ، وقسمتهم قسمين : أهل اليمين وأهل الشمال ، وقال هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى . فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية — فلم يجىء فى الأحاديث الثابتة . وتفسير الآية التى فى سورة الأعراف وحملها على هذا — فيه نظر كما بيناه هناك . وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها ، فمن أراد تحريره فليراجعه ثم . والله أعلم.

فأما الحديث الذى رواه أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير — يعنى ابن حازم — عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان[1] يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا قال : (ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ۞ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا ... إلى قوله ـ المبطلون)[2] فهو بإسناد جيد قوى على شرط مسلم . رواه النسائى وابن جرير والحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد المروزى به . وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر فروى عنه مرفوعاً هوقوفاً ، وكذا روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً . وهكذا رواه العوفى والوالبى والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله . وهذا أكثر

(١) جبل بقرب عرفة، ويقال نعمان السحاب . قال فى اللسان : وأضافه إلى السحاب لأنه ركد فوقه لعلوه .

(٢) الآيتان : ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة الأعراف .

وأثبت والله أعلم . وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفاً ومرفوعاً ، والموقوف أصح .

واستأنس القائلون بهذا القول — وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور — بما قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثني شعبة عن أبي عمران الجوني ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم . فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي » . أخرجاه من حديث شعبة به .

وقال أبو جعفر الرازي : عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ..) الآية والتي بعدها ، قال : فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة ، فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم (ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . . .) الآية ، قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ، أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا . اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ، ولا تشركوا بي شيئاً ، وإني سأرسل إليكم رسلا ينذرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتابي — قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم ، فرأى فيهم الغني والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يارب لو سويت بين عبادك ؟ فقال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذي يقول الله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً)[1] وهو الذي يقول : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)[2] وفي ذلك قال : (هذا نذير من النذر الأولى)[3] وفي ذلك قال : (وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) رواه الأئمة : عبد الله بن أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه — في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر، وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والسدي ، وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث .

وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم — امتثلوا كلهم الأمر الإلهي ، وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له ، فطرده الله وأبعده ، وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها ، وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً .

---

(١) الآية : ٨ من سورة الأحزاب (٢) الآية: ٣١ من سورة الروم (٣) الآية : ٥٧ من سورة النجم.

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، ويعلى ومحمد ابنا عبيد ، قالوا حدثنا الأعمش عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد — اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار » . ورواه مسلم من حديث وكيع وأبى معاوية عن الأعمش به . ثم لما أسكن آدم الجنة التى أسكنها ، سواء أكانت فى السماء أم فى الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه — أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام ، يأكلان منها رغداً حيث شا آ ، فلما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها — سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض . وقد ذكرنا الاختلاف فى مواضع هبوطه منها .

واختلفو فى مقدار مقامه فى الجنة : فقيل بعض يوم من أيام الدنيا ، وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً . وخلق آدم فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة ، وتقدم أيضاً حديثه عنه ، وفيه — يعنى يوم الجمعة — خلق آدم ، وفيه أخرج منها . فإن كان اليوم الذى خلق فيه — فيه أخرج ، وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام — فقد لبث بعض يوم من هذه ، وفى هذا نظر . وإن كان إخراجه فى غير اليوم الذى خلق فيه ، أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير — فقد لبث هناك مدة طويلة .

قال ابن جرير : ومعلوم أنه خلق فى آخر ساعة من يوم الجمعة ، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فمكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة ، وأقام فى الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر ، والله تعالى أعلم .

وقد روى عبد الرزاق عن هشام بن حسان عن سوار خبر عطاء بن أبى رباح : أنه كان لما أهبط رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء ، فحطه الله إلى ستين ذراعاً . وقد روى عن ابن عباس نحوه . وفى هذا نظر ؛ لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » ، وهذا يقتضى أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً ، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن .

وذكر ابن جرير عن ابن عباس : إن الله قال : يا آدم إن لى حرماً بحيال عرشى ، فانطلق فابن لى فيه بيتاً ، فطف به كما تطوف ملائكتى بعرشى ، وأرسل الله له ملكا فعرفه مكانه وعلمه المناسك ، وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك .

وعنه : أن أول طعام أكله آدم فى الأرض — أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة ، فقال : ما هذا ؟ قال هذا من الشجرة التى نهيت عنها فأكلت منها ، فقال وما أصنع بهذا ؟ قال ابذره

فى الأرض ، فبذره . وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف ، فنبتت فحصده ، ثم درسه ثم ذراه ، ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ، فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد ، وذلك قوله تعالى : (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) .

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن : جزاه ثم غزلاه ، فنسج آدم له جبة ، ولحواء درعاً وخماراً .
واختلفوا : هل ولد لهما بالجنة شىء من الأولاد ؟ فقيل : لم يولد لهما إلا فى الأرض ، وقيل بل ولد لهما فيها ، فكان قابيل وأخته ممن ولد بها . والله أعلم .

وذكروا أنه كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى ، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخته التي ولدت معه ، والآخر بالأخرى وهلم جرا ، ولم يكن تحل أخت لأخيها الذى ولدت معه .

ذكر قصة ابنى آدم : « قابيل ، وهابيل »

قال الله تعالى : (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين * إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ، قال يا ويلتى ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوأة أخى ، فأصبح من النادمين[1]) . وقد تكلمنا على هذه القصة فى سورة المائدة فى التفسير بما فيه كفاية . ولله الحمد .

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف فى ذلك : فذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة — أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى ، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل ، وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن ، فأرادها بيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً ، وذهب آدم ليحج إلى مكة ، واستحفظ السموات على بنيه فأبين ، والأرضين والجبال فأبين ، فتقبل قابيل بحفظ ذلك . فلما ذهب قربا قربانهما ؛ فقرب هابيل جذعة سمينة ، وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرعه ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختى ، فقال إنما يتقبل الله من المتقين . وروى عن ابن عباس

(١) الآيات : ٣١ — ٣٥ من سورة المائدة .

من وجوه أخر ، وعن عبد الله بن عمرو . وقال عبد الله بن عمرو ، وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ، ولـكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده .

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل ، فقال قابيل لآدم : إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لى ، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه . فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى ، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به ، فلما ذهب إذا هو به ، فقال له : تقبل منك ولم يتقبل منى ، فقال : إنما يتقبل الله من المتقين ، فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله . وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته . وقيل : بل خنقه خنقاً شديداً وعضه كما تفعل السباع فمات . والله أعلم .

وقوله له لما توعده بالقتل : (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ؛ إنى أخاف الله رب العالمين) — دل على خلق حسن ، وخوف من الله تعالى وخشية منه ، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذى أراد منه أخوه مثله . ولهذا ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا تواجه[1] المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا يارسول الله هذا القاتل . فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » وقوله : (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتـكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) : أى إنى أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى — إذ قد عزمت على ما عزمت عليه — أن تبوء بإثمى وإثمك ؛ أى تتحمل إثم قتلى مع مالك من الآثام المتقدمة قبل ذلك . قاله مجاهد والسدّى وابن جرير وغير واحد . وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض من قال ؛ فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك .

وأما الحديث الذى يورده بعض من لا يعلم عن النبى ﷺ أنه قال : ما ترك القاتل على المقتول من ذنب — فلا أصل له ، ولا يعرف فى شىء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً . ولـكن قد يتفق فى بعض الأشخاص يوم القيامة ، أن يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفى بهذه المظلمة ، فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل ، كما ثبت به الحديث الصحيح فى سائر المظالم ، والقتل من أعظمها والله أعلم . وقد حررنا هذا كله فى التفسير ولله الحمد .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى : عن سعد بن أبى وقاص ، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستـكون فتنة ؛ القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى » قال أفرأيت إن دخل علىّ بيتى فبسط يده إلى ليقتلنى ، قال

---

(١) فى رواية : إذا التقى المسلمان .

« كن كابن آدم » . ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً . وقال : كن كخير ابنى آدم . وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائى عن أبى ذر نحو هذ .

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع ، قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه كان أول من سن القتل » . ورواه الجماعة سوى أبى داود من حديث الأعمش به . وهكذا روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص و إبراهيم النخعى أنهما قالا مثل هذا سواء . وبجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم ، مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها ، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب . فالله أعلم بصحة ذلك .

وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة أحمد بن كثير — وقال إنه كان من الصالحين — أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل ، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له ، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء — فأجابه إلى ذلك ، وصدقه فى ذلك رسول الله ﷺ ، وقال : إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان فى كل يوم خميس . وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا — لم يترتب عليه حكم شرعى . والله أعلم .

وقوله تعالى : (فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين) ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة ، وقال آخرون حمله مائة سنة ، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين . قال السدى بإسناده عن الصحابة : أخوين ، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر ، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه ، فلما رآه يصنع ذلك قال : ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ ففعل مثل مافعل الغراب فواراه ودفنه .

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً ، وأنه قال فى ذلك شعراً ، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذى لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم : أبا هابيل قد قتلا جميعاً ... وصار الحى كالميت الذبيح

وجاء بشرة قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح

وهذا الشعر فيه نظر . وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن به بلغته ، فألفه بعضهم إلى هذا ، وفيه أقوال والله أعلم . وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه ؛ فعلقت ساقه إلى فخذه ، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت ، تنكيلا به وتعجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه . وقد جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة — من البغى وقطيعة الرحم » .

والذى رأيته فى الكتاب الذى بأيدى أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة : أن الله عز وجل أجله وأنظره ، وأنه سكن فى أرض « نود » فى شرقى عدن وهم يسمونه قنين . وأنه ولد له خنوخ ، ولخنوخ عندر ، ولعندر محوايل ، ولمحوايل متوشيل ، ولمتوشيل لامك . وتزوج هذا امرأتين : عدا وصلا . فولدت « عدا » ولداً اسمه ابل ، وهو أول من سكن القباب واقتنى المال . وولدت أيضاً نوبل ، وهو أول من أخذ فى ضرب الونج والصنج[1] . وولدت « صلا » ولداً اسمه توبلقين ، وهو أول من صنع النحاس والحديد ، وبنتاً اسمها « نعمى » . وفيها أيضاً أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه « شيث » ، وقالت من أجل أنه قد وهب لى خلفاً من هابيل الذى قتله قابيل . وولد لشيث أنوش ، قالوا وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة ، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمساً وستين ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين . وولد له بنون وبنات غير أنوش : فولد لأنوش « قينان » وله من العمر تسعون سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة ستة وأربعين سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له « يرد » ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات . فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له « خنوخ » ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات . فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلح ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة ولد له « لامك » وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له « نوح » وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون : سام وحام ويافث . هذا مضمون ما فى كتابهم صريحاً .

وفى كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر ، كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين

---

(١) قال فى القاموس : الونج محركة ضرب من الأوتار أو العود أو المعزف . والصنج : شىء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها .

عليهم فى ذلك . والظاهر أنها مقحمة فيها ، ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير . وفيها غلط كثير كما سنذكره فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه عن بعضهم : أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً فى عشرين بطناً . قاله ابن اسحق وسماهم والله تعالى أعلم . وقيل مائة وعشرين بطناً فى كل واحد ذكر وأنثى ، أولهم قابيل وأخته قليما ، وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث . ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا ، وامتدوا فى الأرض ونموا ؛ كما قال الله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . . .)(١) الآية .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة . والله أعلم . وقال تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون)(٢) الآيات . فهذا تنبيه أولا بذكر آدم ، ثم استطرد إلى الجنس . وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء — بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس كما فى قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين)(٣) وقال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين)(٤) ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هى أعيان مصابيح السماء ، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة ، عن النبى ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم عند هذه الآية ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به — فقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . فهذه علة قادحة ث الحديث أنه روى موقوفاً على الصحابى وهذا أشبه . والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات ، وهكذا روى موقوفاً على ابن عباس . والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار ودونه . والله أعلم .

وقد فسر الحسن البصرى هذه الآيات بخلاف هذا ، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه

---

(١) أول سورة النساء (٢) الآيتان : ١٨٩ — ١٩٠ من سورة الأعراف
(٣) الآيتان : ١٣ — ١٤ من سورة المؤمنون (٤) من الآية : ٦ من سورة الملك .

إلى غيره والله أعلم . وأيضاً فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر ، وليبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر فى هذا الحديث إن كان محفوظاً ؟ .

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبى ﷺ خطأ ، والصواب وقفه . والله أعلم . وقد حررنا هذا فى كتابنا التفسير ولله الحمد .

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما فى هذا ؛ فإن آدم أبو البشر الذى خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شىء وأسكنه جنته . وقد روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر قال : قلت يارسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » . قلت يارسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » قلت يارسول الله من كان أولهم ؟ قال : آدم . قلت يارسول الله نبى مرسل ؟ قال : نعم . خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا »

وقال الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهانى ، حدثنا شيبان بن فروخ ، حدثنا نافع بن هرمز عن عطاء ابن أبى رباح ، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل الملائكة — جبريل ، وأفضل النبيين آدم ، وأفضل الأيام يوم الجمعة ، وأفضل الشهور شهر رمضان ، وأفضل الليالى ليلة القدر ، وأفضل النساء مريم بنت عمران » وهذا إسناد ضعيف ، فإن نافعاً أبا هرمز كذبه ابن معين ، وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم . والله أعلم .

وقال كعب الأحبار : ليس أحد فى الجنة له لحية إلا آدم ، لحيته سوداء إلى سرته . وليس أحد يكنى فى الجنة إلا آدم ؛ كنيته فى الدنيا أبو البشر وفى الجنة أبو محمد . وقد روى ابن عدى من طريق سبيح ابن أبى خالد عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله مرفوعاً : أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد . ورواه ابن عدى أيضاً من حديث على بن أبى طالب ، وهو ضعيف من كل وجه . والله أعلم .

وفى حديث الإسراء الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو فى السماء الدنيا ، قال له مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح ، قال : وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى فقلت ياجبريل ماهذا ؟ قال هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه ، فإذا نظر قبل أهل اليمين — وهم أهل الجنة — ضحك ، وإذا نظر قبل أهل الشمال — وهم أهل النار — بكى . هذا معنى الحديث . وقال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى حدثنى يزيد بن هارون ، أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال : كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده .

وقال بعض العلماء فى قوله ﷺ : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن » — قالوا : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام . وهذا مناسب ، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ،

ونفخ فيه من روحه ، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه . وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضاً موقوفاً ومرفوعاً : أن الله تعالى لما خلق الجنه ، قالت الملائكة يار بنا اجعل لنا هذه ، فإنك خلقت لبنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان . وقد ورد الحديث المروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم على صورته[1] » وقد تكلم العلماء على هذا الحديث ، فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها . والله أعلم .

ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث « عليه السلام »

ومعنى شيث : هبة الله ، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل . قال أبو ذر فى حديثه عن رسول الله ﷺ : « إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، على شيث خمسين صحيفة » . قال محمد بن إسحاق : ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار ، وعلمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك . قال : ويقال إن أنساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى إلى شيث ، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا . والله أعلم .

ولما توفى آدم عليه السلام — وكان ذلك يوم الجمعة — جاءته الملائكة بحنوط ، وكفن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثا عليه السلام . قال ابن إسحاق : وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن . وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن يحيى - هو ابن ضمرة السعدى - قال : رأيت شيخاً بالمدينة تكلم فسألت عنه فقالوا هذا أبى بن كعب ، فقال : إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أى بنى ! إنى أشتهى من ثمار الجنة ، قال فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ، ومعهم الفوس والمساحى والمكاتل ، فقالوا لهم : يابنى آدم ماتريدون وماتطلبون؟ أوماتريدون وأين تطلبون؟ قالوا أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة ، فقالوا لهم ارجعوا فقد قضى أبوكم . فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم ، فقال إليك عنى فإنى إنما أتيت من قبلك ، فخلى بينى وبين ملائكة ربى عزوجل . فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه ، وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه ، ثم أدخلوه قبره فوضعوه فى قبره ، ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يابنى آدم هذه سنتكم إسناد صحيح إليه .

وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن بن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « كبرت الملائكه على آدم أربعا ، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعا ، وكبر عمر على أبى بكر أربعا ، وكبر صهيب على عمر أربعا » . قال ابن عساكر : ورواه غيره عن ميمون فقال عن ابن عمر .

(١) أي على هيئته التامة الخلق ، فلم يمر بأطوار الجنين ؛ فيكون علقة فمضغة . إلخ .

واختلفوا فى موضع دفنه : فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذى أهبط منه فى الهند ، وقيل بجبل أبى قبيس بمكة . ويقال إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء فى تابوت ، فدفنهما ببيت المقدس . حكى ذلك ابن جرير . وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال : رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس . وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة . واختلف فى مقدار عمره عليه السلام ؛ فقدمنا فى الحديث عن ابن عباس وأبى هريرة مرفوعاً : أن عمره اكتتب فى اللوح المحفوظ ألف سنة . وهذا لا يعارضه مافى التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود ، إذا خالف الحق الذى بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم . وأيضاً فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين مافى الحديث ؛ فان مافى التوراة إن كان محفوظاً — محمول على مدة مقامه فى الأرض بعد الإهباط ، وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية — وهى بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة ، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه فى الجنة قبل الاهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره ، فيكون الجميع ألف سنة .

وقال عطاء الخراسانى : لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام ، رواه ابن عساكر . فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام ، وكان نبياً بنص الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه ، عن أبى ذر مرفوعاً أنه أنزل عليه خمسون صحيفة . فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ، ثم بعده ولده قاين ، ثم من بعده ابنه مهلاييل — وهو الذى يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة ، وأنه أول من قطع الأشجار ، وبنى المدائن والحصون الكبار . وأنه هو الذى بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى . وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها . وأنه قتل خلقا من مردة الجن والغيلان ، وكان له تاج عظيم ، وكان يخطب الناس . ودامت دولته أربعين سنة ، فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ — وهو إدريس عليه السلام على المشهور .

ذكر إدريس عليه السلام

قال الله تعالى : (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً[1]) فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية ، وهو خنوخ هذا . وهو فى عمود نسب رسول الله ﷺ على ماذكره غير واحد من علماء النسب . وكان أول بنى آدم ، أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام . وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم ، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمانى سنين . وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه فى حديث معاوية بن الحكم السلمى لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الآيتان : ٥٧ — ٥٨ من سورة مريم

عن الخط بالرمل فقال : « إنه كان نبى يخط به فمن وافق خطه فذاك » . ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم فى ذلك ، ويسمونه هرمس الهرامسه ، ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء . وقوله تعالى (ورفعناه مكاناً علياً) هو كما ثبت فى الصحيحين فى حديث الإسراء — أن رسول الله ﷺ مر به وهو فى السماء الرابعة . وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى ، عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطيه ، عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له : ماقول الله تعالى لإدريس (ورفعناه مكاناً علياً) ؟ فقال كعب : أما إدريس فإن الله أوحى إليه : إنى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم — لعله من أهل زمانه — فأحب أن يزداد عملا ، فأتاه خليل له من الملائكة فقال : إن الله أوحى إلى كذا وكذا ، فكلم ملك حتى أزداد عملا ، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء ، فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً ، فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس ، فقال وأين إدريس ؟ قال هو ذا على ظهرى ، فقال ملك الموت ياللعجب ! بعثت وقيل لى اقبض روح إدريس فى السماء الرابعة ، فجعلت أقول : كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض ؟ فقبض روحه هناك . فذلك قول الله عز وجل (ورفعناه مكاناً علياً) . ورواه ابن أبى حاتم عند تفسيرها . وعنده فقال لذلك الملك : سل لى ملك الموت كم بقى من عمرى ؟ فسأله وهو معه كم بقى من عمره ؟ فقال لا أدرى حتى أنظر ، فنظر فقال إنك لتسألنى عن رجل ما بقى من عمره إلا طرفة عين ، فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر . وهذا من الاسرائليات ، وفى بعضه نكارة . وقول ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله : (ورفعناه مكاناً علياً) قال : إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى . إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففى هذا نظر ، وإن أراد أنه رفع حياً إلى السماء ثم قبض هناك — فلا ينافى ما تقدم عن كعب الأحبار . والله أعلم .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (ورفعناه مكاناً علياً) : رفع إلى السماء السادسة فمات بها ، وهكذا قال الضحاك . والحديث المتفق عليه من أنه فى السماء الرابعة أصح ، وهو قول مجاهد وغير واحد . وقال الحسن البصرى : (ورفناه مكاناً علياً) قال إلى الجنة ، وقال قائلون رفع فى حياة أبيه يرد بن مهلاييل . والله أعلم . وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل فى زمان بنى إسرائيل .

قال البخارى : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس — أن إلياس هو إدريس ، واستأنسوا فى ذلك بما جاء فى حديث الزهرى عن أنس فى الإسراء : أنه لما مر به عليه السلام قال له : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم : مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح . قالوا فلو كان فى عمود نسبه لقال له كما قال له . وهذا لا يدل ولا بد لأنه قد لا يكون الراوى حفظه جيداً ، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع ، ولم ينتصب له فى مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبى البشر ، وإبراهيم الذى هو خليل الرحمن وأكبر أولى العزم بعد محمد . صلوات الله عليهم أجمعين

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ – وهو إدريس – بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام. كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة، فيما ذكره ابن جرير وغيره. وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان فى صحيحه: حدثنا محمد بن عمر ابن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه، حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد ابن سلام، سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة: أن رجلا قال: يارسول الله أنبى كان آدم؟ قال: نعم مكلم. قال فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون. قلت وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. فإن كان المراد بالقرن مائة سنة – كما هو المتبادر عند كثير من الناس – فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذقد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبى أمامة يدل على الحصر فى عشرة قرون، وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام. وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب — أن قابيل وبنيه عبدوا النار. والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما فى قوله تعالى: (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) وقوله: (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) وقال تعالى: (وقرونا بين ذلك كثيراً) وقال: (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وكقوله عليه السلام: « خير القرون قرنى . . . » الحديث، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهر الطويلة — فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين. والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس فى الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد. فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة. وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره.

واختلفوا فى مقدار سنه يوم بعث؛ فقيل كان ابن خمسين سنة، وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة. حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة — فى غير ما موضع من كتابه العزيز؛ ففى الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون

والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت . وأنزل فيه سورة كاملة[(١)] . فقال فى سورة الأعراف :
(لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ۞ قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ۞ قال ياقوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين ۞ أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ۞ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ۞ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين[(٢)]) وقال فى سورة يونس : (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون ۞ فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ۞ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ، وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين[(٣)]) وقال تعالى فى سورة هود : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ۞ أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ۞ فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ۞ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ۞ وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ۞ وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ۞ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ۞ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ۞ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ۞ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون ۞ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ۞ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ۞ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ۞ و يصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ۞ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ۞ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ۞ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ۞ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع

(١) هى سورة نوح كما سيأتى (٢) الآيات : ٥٩ ـ ٦٤ (٣) الآيات : ٧٢ ـ ٧٤

الكافرين * قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين * وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين * ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين * قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين)(١) * وقال تعالى فى سورة الأنبياء : (ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين(٢)) وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين * قال رب انصرنى بما كذبون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك : إلا من سبق عليه القول منهم ، ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون * فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين(٣)) وقال تعالى فى سورة الشعراء : (كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون * قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمى بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين * قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين * قال رب إن قومى كذبون * فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين * فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم)(٤) وقال تعالى فى سورة العنكبوت : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً

---

(١) الآيات : ٢٦ — ٥٠ (٢) الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

(٣) الآيات : ٢٤ — ٣١ . (٤) الآيات : ١٠٦ — ١٢٣

فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناه آية للعالمين) ، وقال تعالى فى سورة والصافات : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقون * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على نوح فى العالمين * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين[1]) ، وقال تعالى فى سورة اقتربت : (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[2]) وقال تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال يا قوم إنى لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً * ثم إنى دعوتهم جهاراً * ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا * ما لكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا * والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا * والله جعل لكم الأرض بساطا * لتسلكوا منها سبلا فجاجا * قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا * ومكروا مكراً كبارا * وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا * وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا * مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا * رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا[3]) وقد تكلمنا على كل موضع من هذه فى التفسير . وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار . وقد جرى ذكره أيضاً فى مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه ؛ فقال تعالى فى سورة النساء : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحيا إلى إبراهيم وإسماعيل

---

(١) الآيات : ٧٦ — ٨٣ . (٢) الآيات ١٠ — ١٧ (٣) سورة نوح بتمامها .

وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما[١]) وقال فى سورة الأنعام : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ، وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم[٢]) الآيات ، وتقدمت قصته فى الأعراف . وقال فى سورة براءة : (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[٣]) ، وتقدمت قصته فى يونس وهود . وقال فى سورة إبراهيم : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب[٤]) ، وقال فى سورة سبحان : (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا) ، وقال فيها أيضاً : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) ، وتقدمت قصته فى الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت . وقال فى سورة الأحزاب : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً[٥]) وقال فى سورة صٓ : (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب[٦]) وقال فى سورة غافر : (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار[٧]) وقال فى سورة الشورى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب[٨]) وقال تعالى فى سورة قٓ : (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد[٩]) وقال فى الذاريات : (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين[١٠]) وقال

---

(١) الآيات : ١٦٣ — ١٦٥ (٢) الآيات : ٨٤ — ٨٨ (٣) الآية : ٧٢ (٤) الآية : ١٠
(٥) الآية : (٧) ٦ الآيات : ١١ — ١٣ (٧) الآيتان : ٥ — ٦
(٨) الآية : ١٢ (٩) الآيات : ١١ — ١٣ (١٠) الآية : ٤٥

فى النجم : (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) ، وتقدمت قصته فى سورة اقتربت الساعة .
وقال تعالى فى سورة الحديد : (ولقد أرسلنا نوحاً و إبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ؛ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون[1]) وقال تعالى فى سورة التحريم : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين) .

وأما مضمون ماجرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار ، فقد قدمنا عن ابن عباس : أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، رواه البخارى . وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ماسلف . ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الاصنام . وكان سبب ذلك مارواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً) قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ[2] العلم عبدت . قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح — فى العرب بعد . وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق .

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران عن سفيان ، عن موسى عن محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لوصورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم . وروى ابن أبى حاتم عن عروة ابن الزبير أنه قال : ود و يغوث ويعوق وسواع ونسر — أولاد آدم ، وكان «ود» أكبرهم وأبرهم به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب عن أبى المطهر قال : ذكروا عند أبى جعفر — هو الباقر — وهو قائم يصلى يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب ، أما إنه قتل فى أول أرض عبد فيها غير الله تعالى . قال ذكروداً قال : كان رجلا صالحاً ، وكان محبباً فى قومه ، فلما مات عكفوا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه فى صورة إنسان ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا نعم . فصور لهم مثله ، قال: فوضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه .

---

(١) الآية : ٢٧ . (٢) زال ودرس

فلما رأى مابهم من ذكره قال : هل لكم أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له فى بيته فتذكرونه ؟ قالوا نعم . قال فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون مايصنعون به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ماعبد غير الله « وداً » الصنم الذى سموه وداً .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس . وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان — جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عزوجل . ولهم فى عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها فى مواضعها من كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة — تلك الكنيسة التى رأينها بأرض الحبشة ، ويقال لها مارية ، وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال : «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل » .

والمقصود أن الفساد لما انتشر فى الأرض وعم البلاء بعباد الأصنام فيها — بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام ، يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه . فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حيان عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة ، قال : « فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى مانحن فيه ومابلغنا ؟ فيقول : ربى قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهانى عن شجرة فعصيت ، نفسى نفسى . اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يانوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى إلى مانحن فيه ؟ ألا ترى إلى مابلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل ؟ فيقول : ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، نفسى نفسى » وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخارى فى قصة نوح[1] :

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام ، دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له ، وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتاً[2] وأن يعترفوا بوحدانيته ، وأنه لا إله غيره ولارب سواه ، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته ، كما قال تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين[3]) . وقال

---

(١) تمامه : ائتوا النبى صلعم : فيأتونى فأسجد تحت العرش ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعطه . (٢) الطاغوت : الكاهن والشيطان وكل رأى ضلال (٣) الآية : ٧٩ من سورة الصافات .

فيـه وفى إبراهيم : (وجعلنا فى ذريتهما النبوة والـكتاب) — أى كل نبى من بعـد نوح فمن ذريته .
وكذلك إبراهيم . قال الله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)
وقال تعالى : (واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟) وقال تعالى :
(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ولهذا قال نوح لقومه :
(اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقال : (ألا تعبدوا إلا الله إنى
أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وقال : (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون) وقال : (يا قوم
إنى لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون... إلى.. وقد خلقكم أطوارا) الآيات الـكريمات(١) .
فذكر أنهم دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار ، والسر والإجهار ، بالترغيب تارة والترهيب
أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم ، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان .
ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به ، وتوعدوهم بالرجم والإخراج ،
ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم . (قال الملأ من قومه) أى السادة الـكبراء منهم : (إنا لنراك فى ضلال
مبين * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولـكنى رسول من رب العالمين) — أى لست كما تزعمون من أنى
ضال ، بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين ، أى الذى يقول للشىء كن فيكون ، (أبلغكم
رسالات ربى وأنصح لـكم وأعلم من الله مالا تعلمون) . وهـذا شأن الرسول أن يكون بليغاً — أى
فصيحاً ناصحاً — أعلم الناس بالله عز وجل . وقالوا له فيما قالوا : (ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك
إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين(٢)) . تعجبوا أن يكون
بشراً رسولا ، وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم . وقد قيل إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم —
كما قال هرقل وهم أتباع الرسل ، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق . وقولهم بادى الرأى — أى
بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية . وهـذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون
بسببه رضى الله عنهم ؛ فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فـكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه
والانقياد له متى ظهر . ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصديق : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام
إلا كانت له كبوة غير أبى بكر ؛ فإنه لم يتلعثم » . ولهذا كانت بيعته يوم الثقيفة أيضاً سريعة من غير
نظر ولا روية ؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضى الله عنهم . ولهذا قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب الـكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه ،
قال : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر رضى الله عنه » . وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به :
(وما نرى لـكم علينا من فضل) أى لم يظهر لـكم أمر بعـد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا (بل

---

(١) من سورة نوح التى تقدمت (٢) من الآية : ٢٩ من سورة هود .

نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون[١]).

وهذا تلطف فى الخطاب معهم: وترفق بهم فى الدعوة إلى الحق، كما قال تعالى: (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى[٢]) وقال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن[٣]) وهذا منه يقول لهم: (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده) أى النبوة والرسالة، (فعميت عليكم) أى فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها، (أنلزمكموها) أى أنغضبكم بها ونجبركم عليها؟ (وأنتم لها كارهون) أى ليس لى فيكم حيلة والحالة هذه. (وياقوم لا أسالكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) أى لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم، إن أطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خير لى، وأبقى مما تعطوننى أنتم.

وقوله: (وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم، ولكنى أراكم قوماً تجهلون) كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك، فأبى عليهم ذلك وقال: (إنهم ملاقوا ربهم) أى فأخاف إن طردتهم أن يشكونى إلى الله عز وجل. ولهذا قال: (وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون). ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين؛ كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم — نهاه الله عن ذلك، كما بيناه فى سورتى الأنعام والكهف، (ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك) أى بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمنى به، ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه، ولا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله. (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) يعنى من أتباعه: (لن يؤتيهم الله خيراً، الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين) أى لا أشهد عليهم بإنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسهم: إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قالوا فى المواضع الأخر: (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمى بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين)[٤].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه و بينهم كما قال تعالى: (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أى ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم، وكان كل ما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته. وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه

---

(١) الآية: ٢٨ من سورة هود (٢) الآية: ٤٦ من سورة طه (٣) الآية: ١٣٧ من سورة النحل.
(٤) الآيات: ١١٣ — ١١٧ من سورة الشعراء

كلامه — وصاه فيما بينه و بينه ، ألا يؤمن بنوح أبداً ماعاش ودائماً مابقى . وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ، ولهذا قال : (ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) ولهذا قالوا : (قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين[1]) أى إنما يقدر على ذلك الله عز وجل ، فإنه الذى لايعجزه شىء ولا يكترثه أمر ، بل هو الذى يقول للشىء كن فيكون . (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن الله كان يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون) أى من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته ، هو الذى يهدى من يشاء و يضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد ، وهو العزيز الحكيم ، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

(وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) تسلية له عما كان منهم إليه ، (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) . وهذه تعزية لنوح عليه السلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، أى لايسوأنك ماجرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) . وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنهم لاخير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق ، من فعال ومقال — دعا عليهم دعوة غضب ، فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وقومه من الكرب العظيم[2]) . وقال تعالى : (ونوحاً إذا نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) . وقال تعالى : (قال رب إن قومى كذبون * فافتح بينى و بينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين) . وقال تعالى : (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) . وقال تعالى : (قال رب انصرنى بما كذبون) . وقال تعالى : (مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً * فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا * وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم . فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك — وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها . وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره ، وحل بهم بأسه الذى لايرد عن القوم المجرمين — أنه لايعاوده فيهم ولا يراجعه ؛ فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة . ولهذا قال : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون * و يصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أى يستهزئون به استبعاداً لوقوع ماتوعدهم به ، (قال إن تسخروا منا فإنا

(١) الآيتان : ٣٤ — ٣٥ من سورة هود ، وكذلك الآيات بعد . (٢) سورة الصافات .

نسخر منكم كما تسخرون) أى نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم . (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) . وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا ، وهكذا فى الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول ، كما قال البخارى : حدثنا موسى بن إسمعيل ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الأعمش عن أبى صالح ، عن أبى سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ « يجىء نوح عليه السلام وأمته ، فيقول الله عز وجل هل بلغت ؟ فيقول : نعم أى رب ، فيقول لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون : لا — ماجاءنا من نبى ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فتشهد أنه قد بلغ » . وهو قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا)[1] . والوسط العدل . فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق ، بأن الله قد بعث نوحاً بالحق ، وأنزل عليه الحق وأمره به ، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه ، وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتى إنه حذر قومه المسيح الدجال ، و إن كان لا يتوقع خروجه فى زمانهم ؛ حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم ، كما قال البخارى : حدثنا عبدان ، حدثنا عبدالله عن يونس عن الزهرى ، قال سالم قال ابن عمر : قام رسول الله ﷺ فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : « إنى لأنذركموه ، وما من نبى إلا وقد أنذره قومه . لقد أنذره نوح قومه ، ولكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور » . وهذا الحديث فى الصحيحين أيضاً من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ماحدث به نبى قومه ؟ إنه أعور . وإنه يجىء معه بمثال الجنة والنار[2] والتى يقول عليها الجنة هى النار ، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه » . لفظ البخارى .

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب الله له ، أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة ، فغرسه وانتظره مائة سنة ، ثم نجره فى مائة أخرى ، وقيل فى أربعين سنة والله أعلم . قال محمد بن إسحق عن الثورى : وكانت من خشب الساج ، وقيل من الصنوبر وهو نص التوراة . قال الثورى : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً ، وعرضها خمسين ذراعاً ، وأن يطلى ظاهرها و باطنها بالقار ،

---

(١) من الآية : ١٤٥ من سورة البقرة . والحديث فى البخارى فى كتاب : أحاديث الأنبياء .

(٢) عند ابن عساكر : تمثال — أى صورة

وأن يجعل لها جؤجؤاً[١] أزور[٢] يشق الماء . وقال قتادة : كان طولها ثلثمائة ذراع فى عرض خمسين ذراعاً . وهذا الذى فى التوراة على مارأيته . وقال الحسن البصرى : ستمائة فى عرض ثلثمائة ، وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة ذراع . وقيل كان طولها ألفى ذراع وعرضها مائة ذراع . قالوا كلهم : وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ، وكانت ثلاث طبقات ، كل واحدة عشرة أذرع ؛ فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للناس ، والعليا للطيور . وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

قال الله تعالى : (قال رب انصرنى بما كذبون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) — أى بأمرنا لك ، وبمرأى منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا لذلك ، لنرشدك إلى الصواب فى صنعتها . (فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون)[٣] فتقدم إليه بأمره العظيم العالى : أنه إذا جاء أمره وحل بأسه — أن يحمل فى هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر مافيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله — أى أهل بيته — إلا من سبق عليه القول منهم ؛ أى إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لاترد ، ووجب عليه حلول البأس الذى لايرد . وأمر أنه لايراجعه فيهم إذا حل بهم مايعاينه من العذاب العظيم ، الذى قد حتمه عليهم الفعال لما يريد ، كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور — وجه الأرض ، أى نبعت الأرض من سائر أرجائها ، حتى نبعت التنانير التى هى محال النار . وعن ابن عباس : التنور عين فى الهند ، وعن الشعبى بالكوفة ، وعن قتادة بالجزيرة . وقال على بن أبى طالب : المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر — أى إشراقه وضياؤه . أى عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين . وهذا قول غريب . وقوله تعالى : (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم — أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . وفى كتاب أهل الكتاب : أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ، ومالا يؤكل زوجين ذكر وأنثى . وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى فى كتابنا الحق . (اثنين) إن جعلنا ذلك مفعولا به ، وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف — فلاينافى . والله أعلم .

وذكر بعضهم — ويروى عن ابن عباس : أن أول ما دخل من الطيور الدرّة ، وآخر مادخل من الحيوانات الحمار . ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار . وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن

(١) أى صدرا . (٢) أى مائلا . (٣) الآيتان : ٢٨ — ٣٩ من سورة المؤمنون .

صالح ، حدثنى الليث ، حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين — قال أصحابه : وكيف نطمئن ؟ أو كيف تطمئن المواشى ومعنا الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمىّ ، فكانت أول حمى نزلت فى الأرض . ثم شكوا الفأرة ، فقالوا : الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها . هذا مرسل . وقوله : (وأهلك إلا من سبق عليه القول) أى من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر ، فكان منهم ابنه « يام » الذى غرق كما سيأتى بيانه . (ومن آمن) أى واحمل فيها من آمن بك من أمتك ، قال الله تعالى : (وما آمن معه إلا قليل) هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ، ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات ، والتهديد والوعيد تارة ، والترغيب والوعيد أخرى .

وقد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة . فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل كانوا عشرة ، وقيل إنما كانوا نوحا و بنيه الثلاثة وكنائنه[1] الأربع بامرأة « يام » الذى انخزل وانعزل ، وتسلل عن طريق النجاة فما عدل إذ عذل . وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية ، بل هى نص فى أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به ، كما قال : (ونجنى ومن معى من المؤمنين) ، وقيل كانوا سبعة . وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم : وهم حام وسام ، و يافث ، و يام « ويسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذى قد غرق » ، وعابر — فقد ماتت قبل الطوفان . قيل إنها غرقت مع من غرق ، وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها . وعند أهل الكتاب أنها كانت فى السفينة ، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك ، أو أنها أنظرت ليوم القيامة . والظاهر الأول لقوله : (لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) . قال الله تعالى : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلنى منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين) أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة ، فنجاه بها وفتح بينه و بين قومه ، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه ، كما قال تعالى : (والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون)[2] . وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور : أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكون عاقبتها محمودة ، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر : (وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا[3]) . وقد امتثل نوح عليه

---

(١) جمع كنة . بالفتح — وهى امرأة الابن (٢) الآيات : ١٢ — ١٤ من سورة الزخرف .
(٣) الآية : ٨٠ من سورة الإسراء .

السلام هذه الوصية (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم) — أى على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ؛ (إن ربى لغفور رحيم) أى وذو عقاب أليم ، مع كونه غفوراً رحيما ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره . قال الله تعالى : (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) . وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده ، كان كأفواه القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها . كما قال تعالى : (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ✲ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ✲ وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ✲ وحملناه على ذات ألواح ودسر)[١] . والدسر[٢] المسامير (تجرى بأعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها (جزاء لمن كان كفر) .

وقد ذكر ابن جرير وغيره : أن الطوفان كان فى ثالث عشر من شهر آب فى حساب القبط . وقال تعالى : (إن لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) أى السفينة (لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً ، وهو الذى عند أهل الكتاب . وقيل ثمانين ذراعا ، وعم جميع الأرض طولها والعرض ، سهلها وحزنها ، وجبالها وقفارها ورمالها . ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء - عين تطرف ، ولا صغير ولا كبير . قال الإمام مالك عن زيد ابن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكن بقعة فى الأرض إلا ولها مالك وحائز . رواهما ابن أبى حاتم . (ونادى نوح ابنه وكان فى معزل ، يا بنى اركعب معنا ولا تكن مع الكافرين ✲ قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين[٣]) وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام و يافث ، وقيل اسمه كنعان . وكان كافراً عمل عملا غير صالح ، فخالف أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك . هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب ، لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب . (وقيل يا أرض ابلعى ماءك و ياسماء أقلعى ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين[٤]) أى لما فرغ من أهل الأرض ، ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل — أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها ، وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر ، (وغيض الماء) أى نقص عما كان ، (وقضى الأمر) أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره ؛ من إحلاله بهم ما حل بهم ، (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى نودى عليهم بلسان القدرة : بعداً لهم من الرحمة والمغفرة ، كما قال تعالى : (فكذبوه فأنجيناه والذين معه

---

(١) سورة اقتربت الساعة وانشق القمر . (٢) جمع دسار بالكسر — وهى خيوط من ليف تشدبها ألواح السفينة ، وقيل هى المسامير . (٣) الآيتان : ٤٢ — ٤٣ من سورة هود (٤) الآية : ٤٤ من سورة هود .

فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين)[١] وقال تعالى : (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين)[٢] وقال تعالى : (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين)[٣] وقال تعالى : فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم)[٤] وقال تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وقال تعالى : (ثم أغرقنا الآخرين) وقال : (ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)[٥] وقال تعالى : (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)[٦] . وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة — دعوته ، فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الإمامان : أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم — فى تفسيريهما من طريق يعقوب ابن محمد الزهرى ، عن قائد مولى عبد الله بن أبى رافع : أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : «فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبى» . قال رسول الله ﷺ : « مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة — يعنى إلا خمسين عاماً — وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة فى البر كيف تجرى ؟ قال سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع الماء وصار فى السكك خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حباً شديداً . فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبى» . وهذا حديث غريب . وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد — شبيه لهذه القصة . وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار . والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين دياراً ، فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق — ويقال ابن عناق[٧] — كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى . ويقولون كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً . ويقولون كان لغير رشدة ، بل ولدته أمه بنت آدم من زنا . وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه فى عين الشمس ، وأنه كان يقول لنوح وهو فى السفينة : ما هذه القصيعة التى

---

(١) الآية : ٦٤ من سورة الأعراف (٢) الآية : ٧٣ من سورة يونس (٣) الآية : ٧٧ من سورة الأنبياء
(٤) الآيات : ١١٩ — ١٢٢ من سورة الشعراء (٥) سورة القمر (٦) سورة نوح .
(٧) قال شارح القاموس : الصواب أنه ابن عوق لا كما اشتهر من أنه ابن عنق . وكذلك جاء فى اللسان أنه ابن عوق

لك ؟ ويستهزئ به . ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا ، إلى غير ذلك من الهذيانات التى لولا أنها مسطرة فى كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الغام – لما تعرضنا لحكاياتها ؛ لسقاطتها وركاكتها . ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول :

أما المعقول فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره ، وأبوه نبى الأمة وزعيم أهل الإيمان — ولا يهلك عوج بن عنق و يقال عناق ، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا ؟ وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبى ولا الصبى ؟ ويترك هذا الدعى الجبار العنيد الفاجر ، الشديد الكافر ، الشيطان المريد على ما ذكروا ؟ وأما المنقول فقد قال الله تعالى : (ثم أغرقنا الآخرين) وقال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) . ثم هذا الطول الذى ذكروه مخالف لما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحى يوحى) — أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، أى لم يزل الناس فى نقصان فى طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم جرا إلى يوم القيامة . وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه ، فكيف يترك هذا و يذهل عنه ؟ و يصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب ، الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه . وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم .

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه فى ولده ، وسؤاله له عن غرقه — على وجه الاستلام والاستكشاف . ووجه السؤال أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم وقد غرق ، فأجيب بأنه ليس من أهلك — أى الذين وعدت بنجاتهم . أى أنا قلنا لك : (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره ، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان ، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان . ثم قال تعالى : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض ، وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها — أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى « وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور » . وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال . (بسلام منا و بركات) أى اهبط سالماً مباركا عليك ، وعلى أمم ممن سيولد بعد — أى من أولادك ؛ فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقباً سوى نوح عليه السلام . قال

تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم — ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم : « سام ، وحام ، و يافث » .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافس أبو الروم » . ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدى عن يزيد بن زريع ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعاً نحوه . وقال الشيخ ابو عمرو بن عبد البر ، وقد روى عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ مثله . قال : والمراد بالروم هنا الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام . ثم روى من حديث اسمعيل بن عياش ، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : ولد نوح ثلاثة : سام و يافث وحام ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ؛ فولد سام : العرب وفارس والروم . وولد يافث : الترك والسقالبة و يأجوج ومأجوج . وولد حام : القبط والسودان والبربر . قلت وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا إبراهيم بن هانئ ، وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا : حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى ، حدثنى أبى عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولد لنوح : سام وحام و يافث ؛ فولد لسام : العرب وفارس والروم والخير فيهم . وولد ليافث : يأجوج ومأجوج والترك والسقالبة ولا خير فيهم . وولد لحام : القبط والبربر والسودان » . ثم قال : لا نعلم يروى مرفوعاً إلا من هذا الوجه . تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه ، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلا ولم يسنده ، وإنما جعله من قول سعيد . قلت وهذا الذى ذكره أبو عمرو — هو المحفوظ عن سعيد قوله . وهكذا روى عن وهب بن منبه مثله والله أعلم . و يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ضعيف بمرة لا يعتمد عليه . وقد قيل إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان ، وإنما ولد له قبل السفينة : كنعان الذى غرق ، وعابر مات قبل الطوفان .

والصحيح أن الاولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة . وقد ذكر أن « حاما » واقع امرأته فى السفينة ، فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته ، فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان . وقيل بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه ، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته ، وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته .

وذكر الامام أبو جعفر بن جرير من طريق على بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها . قال فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه ، وقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا

الله ورسوله أعلم ، قال : هذا كعب حام بن نوح . قال : وضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب . فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت : قال لا — ولكنى مت وأنا شاب ، ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت . قال : حدثنا عن سفينة نوح . قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير . فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام — أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث . ولما وقع الفار يخرز السفينة بقرضه — أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام : أن اضرب بين عينى الأسد ، فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفار . فقال له عيسى كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت ؟ قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت . قال : ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها ، فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التى فى عنقها ، ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت . قال : فقالوا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا و يحدثنا ؟ قال كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال : فقال له عد بإذن الله ، فعاد ترابا . وهذا أثر غريب جداً .

وروى علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم ، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً ، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه ، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض ، فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه ، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين ، فعرف نوح أن الماء قد نضب ، فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة ، إحداها العربى . وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض ، فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيره :ركبوا فى السفينة فى اليوم العاشر من شهر رجب ، فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودى شهراً . وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم . وقد روى ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا ، وأنهم صاموا يومهم ذلك . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو جعفر ، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى عن أبيه حبيب بن عبد الله ، عن شبل عن أبى هريرة قال : مر النبى ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال ماهذا الصوم ؟ فقالوا هذا اليوم الذى نجا الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا اليوم استوت فيه السفينة على الجودى ، فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل ، فقال النبى ﷺ : « أنا

أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم » ، وقال لأصحابه : « من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه » . وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من وجه آخر ، والمستغرب ذكر نوح أيضاً والله أعلم . وأما مايذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ، ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها ، وطحنوا الحبوب يومئذ ، واكتحلوا بالأثمد لتقوية أبصارهم لما انبهارت من الضياء بعدما كانوا فى ظلمة السفينة — فكل هذا لايصح فيه شىء ، وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بنى إسرائيل لايعتمد عليها ولا يقتدى بها . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان — أرسل ريحاً على وجه الأرض ، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقص و يغيض و يدبر ، وكان استواء الفلك — فيما يزعم أهل التوراة — فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه . وفى أول يوم من الشهر العاشر رئيت رءوس الجبال . فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التى صنع فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له مافعل الماء فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعاً ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له مافعل الماء فلم ترجع ، فرجعت حين أمست وفى فيها ورق زيتونة ، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض . ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين — برز وجه الأرض ، وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك .

وهذا الذى ذكره ابن إسحق هو بعينه مضمون سياق التوراة التى بأيدى أهل الكتاب . قال ابن إسحق : وفى الشهر الثانى من سنة اثنين فى ست وعشرين ليلة منه (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) . وفيما ذكر أهل الكتاب — أن الله كلم نوحاً قائلا له : اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك . وجميع الدواب التى معك ، ولينموا وليكبروا فى الأرض . فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قرباناً إلى الله عز وجل . وعهد الله إليه أن لايعيد الطوفان على أهل الأرض . وجعل تذكاراً لميثاقه إليه — القوس الذى فى الغمام ، وهو قوس قزح الذى قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق . قال بعضهم : فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر ، أى أن هذا الغمام لايوجد منه طوفان كأول مرة .

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ، واعترف به آخرون منهم وقالوا : إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا . قالوا : ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابر ، من لدن

كيومرث — يعنون آدم — إلى زمامنا هـذا ، وهـذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان . وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليـغ ، ومكابرة للمحسوسات ، وتـكذيب لرب الأرض والسموات .

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن — مع ماتواتر عند الناس فى سائر الأزمان — على وقوع الطوفان ، وأنه عم جميـع البلاد ، ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد ؛ استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم ، وتنفيذاً لما سبق فى القدر المحتوم .

ذكر شىء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى : (إنه كان عبداً شكوراً)[1] . قيل : إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أسامة ، حدثنا زكريا بن بى زائدة عن سعيد بن أبى بردة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث أسامة . والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميـع الطاعات القلبية والقولية والعملية ؛ فإن الشكر يـكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر :

أفادتـكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

ذكر صومه عليه السلام

وقال ابن ماجة : باب صيام نوح عليه السلام . حدثنا سهل بن أبى سهل ، حدثنا سعيدبن أبى مريم عن ابن هيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبى فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى » . هكذا رواه ابن ماجة عن طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه . وقد قال الطبرانى : حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج ، حدثنا عمر بن خالد الحرانى ، حدثنا ابن لهيعة عن أبى قتادة عن يزيد بن رباح أبى فراس — أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى ، وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر » .

ذكر حجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبى عن زمعة — هو ابن أبى صالح — عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادى عسفان قال :

(١) من الآية : ٣ من سورة الإسراء

« يا أبا بكر أىّ واد هذا ؟ » قال هذا وادى عسفان . قال : « لقد مر بهذا نوح وهود و إبراهيم على بكرات لهم حمر ، خطمهم الليف ، أزرهم العباء وأرديتهم النمار[1] يحجون البيت العتيق » . فيه غرابة .

ذكر وصيته لولده عليه السلام

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير عن زيد بن أسلم — قال حماد — أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان[2] مزرورة بالديباج فقال : « ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس — أو قال — يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ، ورفع كل راع ابن راع » ، قال فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال : « لا أرى عليك لباس من لا يعقل » ، ثم قال : « إن نبى الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه : إنى قاص عليك وصية ؛ آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة — رجحت بهن لا إله إلا الله . ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة[3] قصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله و بحمده — فإن بها صلات كل شىء ، و بها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر » . قال : قلت — أو قيل — يارسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شرا كان حسنان ؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال : «لا» . قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : « لا » . قلت — أو قيل — يارسول الله فما الكبر ؟ قال : « سفه الحق وغمط الناس » . وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

ورواه أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن إسحق ، عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « كان فى وصية نوح لابنه : أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين » ، فذكر نحوه . وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم بن سعيد ، عن أبى معاوية الضرير عن محمد بن إسحق ، عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن النبى ﷺ بنحوه . والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، كما رواه أحمد والطبرانى . والله أعلم .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة — كان عمره ستمائة سنة . وقدمنا عن ابن عباس مثله ، وزاد : وعاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة ، وفى هذا القول نظر . ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن — فهو خطأ محض ؛ فإن القرآن يقتضى أن نوحاً مكث فى قومه بعد البعثة وقبل

(١) قال فى القاموس :النمرة : شملة فيها خطوط بيض وسود ، أو بردة من صوف تلبسها الأعراب .
(٢) الذى فى القاموس واللسان : السيج . العباءة المخططة . وضرب من البرود ، والجمع سيوح .
(٣) المبهم : المغلق من الأبواب ، والأصمت .

الطوفان — ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك ؟ فإن كان ماذكر محفوظاً عن ابن عباس — من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة ، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة — فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

وأما قبره عليه السلام : فروى ابن جرير والأزرقى عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلا — أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام . وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المتأخرين، من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر . والله أعلم .

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، و يقال إن هودا هو عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح ، و يقال هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح عليه السلام . ذكره ابن جرير . وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح . وكانوا عربا يسكنون الأحقاف — وهى جبال الرمل — وكانت باليمن من عمان وحضرموت ، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر ، واسم واديهم « مغيث » .

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد)[1] أى عاد إرم وهم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه . وأما عاد الأولى فهم عاد (إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد) أى مثل القبيلة ، وقيل مثل العمد . والصحيح الأول كما بيناه فى التفسير .

ومن زعم أن « إرم » مدينة تدور فى الأرض ؛ فتارة فى الشام ، وتارة فى اليمن ، وتارة فى الحجاز، وتارة فى غيرها — فقد أبعد النجعة ، وقال مالا دليل عليه ، ولا برهان يعول عليه ، ولا مستند يركن إليه .

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر » . و يقال إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية ، وزعم وهب ابن منبه أن أباه أول من تكلم بها ، وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل آدم وهو الأشبه ، وقيل غير ذلك . والله أعلم .

و يقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام — العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة : منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، ومدين ، وعملاق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان ، وبنو يقطن ، وغيرهم . وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل . وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام — أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم

---

(١) سورة الفجر . وذات العماد : ذات البناء الرفيع ، أو الرفعة وعلو القدر والثبات

الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى ، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان . وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمقصود أن عاداً — وهم عاد الأولى — كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكانت أصنامهم ثلاثة : صدا ، وصمودا ، وهرا . فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح ، وما كان من أمرهم فى سورة الأعراف : (وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين)[١] وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح فى سورة هود : (وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره إن أنتم إلا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون * ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوماً غيركم ، ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ * ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود[٢]) . وقال تعالى فى سورة « قد أفلح المؤمنون » بعد قصة قوم نوح : (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً

---

(١) الآيات من ٦٥ — ٧٢ (٢) الآيات : من ٥٠ — ٦٠ .

أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرنى بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين)(١) . وقال تعالى فى سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً : (كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * و إذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون* واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام و بنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * و إن ربك لهو العزيز الرحيم)(٢) وقال تعالى فى سورة حم السجدة : (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات، لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون)(٣)

وقال تعالى فى سورة الأحقاف : (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ماأرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحو لايرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين)(٤) . وقال تعالى فى الذاريات : (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) وقال تعالى فى النجم : (وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ماغشى * فبأى آلاء ربك تتمارى) وقال تعالى فى سورة اقتربت : (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) . وقال فى الحاقة : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية* فهل ترى لهم من باقية) وقال فى سورة الفجر : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد *

---

(١) الآيات : ٣١ — ٤١ (٢) الآيات : ١٢٣ — ١٤٠ (٣) الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٤) الآيات : ٢١ — ٢٥ .

وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ✲ وفرعون ذى الأوتاد ✲ الذين طغوا فى البلاد ✲ فأكثروا فيها الفساد ✲ فصب عليهم ربك سوط عذاب ✲ إن ربك لبالمرصاد) . وقد تكلمنا على كل من هذه القصص فى أماكنها من كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد فى سورة براءة و إبراهيم والفرقان والعنكبوت ، وفى سورة ص ، وفى سورة ق . ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات ، مع مايضاف إلى ذلك من الأخبار . وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان . وذلك بين فى قوله لهم : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة) — أى جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش . وقال فى المؤمنون : (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) وهم قوم هود على الصحيح . وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله : (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء) . قالوا : وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) . وهذا الذى قالوه لايمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتى فى قصة أهل مدين أصحاب الأيكة ؛ فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات ، ثم لاخلاف أن عاداً قبل ثمود .

والمقصود أن عاداً كانوا عربا جفاة كافرين ، عتاة متمردين فى عبادة الأصنام ، فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له ، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره ، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة ، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة — (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) أى هذا الأمر الذى تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى مانحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يرتجى منها النصر والرزق ، ومع هذا نظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك . (قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين) ، أى ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون (أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) والبلاغ يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، و يستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة ، لالبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب . وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم ؛ لايبتغى منهم أجرا ولايطلب منهم جعلا ، بل هو مخلص لله عز وجل فى الدعوة إليه والنصح لخلقه ، لايطلب أجره إلا من الذى أرسله ، فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يديه وأمره إليه . ولهذا (قال ياقوم لاأسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) — أى أمالكم عقل تميزون به ؟ وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين ؟ الذى تشهد به فطركم التى خلقتم عليها ، وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق . وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه ، بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع . ولهذا قال مؤمن «يس» [1] : (اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون ✲ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه

---

(١) هو حبيب النجار من الحواريين . قيل كان يعبد الله فى غار ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه .

ترجعون ؟) وقال قوم هود له فيما قالوا: (ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ، يقولون ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به ، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك ؛ بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته ، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه . وعندنا أنه إنما أصابك هذا ـ لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك فى عقلك ، فاعتراك جنون بسبب ذلك . وهو قولهم : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون) . وهذا تحد منه لهم ، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها ، وبيان أنها لاتنفع شيأ ولاتضر ، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله . فإن كانت ـ كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر ـ فها أنا برىء منها لاعن لها (فكيدونى ثم لاتنظرون) أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ، ولاتؤخرونى ساعة واحدة ولاطرفة عين ؛ فإنى لا أبالى بكم ولا أفكر فيكم ، ولا أنظر إليكم . (إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلاهو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم) أى أنا متوكل على الله ومتأيد به ، وواثق بجنابه الذى لايضيع من لاذبه واستند إليه ، فلست أبالى مخلوقاً سواه ، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه . وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله ، وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله ؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولانالوا منه مكروهاً . فدل على صدقه فيما جاءهم به ، وبطلان ماهم عليه وفساد ماذهبوا إليه .

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله فى قوله : (يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله — فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون[١]) . وهكذا قال الخليل عليه السلام : (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيأ ، وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم[٢]) (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون[٣]) استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشرياً . وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً ، كما قال تعالى : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس[٤]) وقال تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم

---

(١) من الآية : ٧١ من سورة يونس (٢) الآيات : ٨٠ — ٨٣ (٣) الآيات : ٣٣ — ٣٥

(٤) أول سورة يونس .

الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا[١]) . ولهذا قال لهم هود عليه السلام : (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) . أى ليس هذا بعجيب ؛ فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقوله : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين * قال ربى انصرنى بما كذبون) استبعدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً ، وقالوا : هيهات هيهات - أى بعيد بعيد هذا الوعد ، (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) أى يموت قوم ويحيا آخرون . وهذا هو اعتقاد الدهرية ، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة : أرحام تدفع وأرض تبلع .

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة ، وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال ، وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل ، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون ، كما قال تعالى : (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون)[٢] وقال لهم فيما وعظهم به : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) . يقول لهم : أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيما هائلا كالقصور ونحوها ، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام ، كما قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد) فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التى تحمل الخيام .

ومن زعم أن «إرم» مدينة من ذهب وفضة وهى تتنقل فى البلاد — فقد غلط وأخطأ ، وقال مالا دليل عليه . وقوله : (وتتخذون مصانع) قيل هى القصور ، وقيل بروج الحمام ، وقيل مآخذ الماء (لعلكم تخلدون) أى رجاء منكم أن تعمروا فى هذه الدار أعماراً طويلة (وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . وقالوا له مما قالوا : (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ! فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) — أى أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه ؟ فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال ، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك ، كما قالوا : (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين) . أما على قراءة فتح الخاء - فالمراد به اختلاق الأولين ، أى إن هذا الذى جئت به إلا اختلاق منك ،

---

(١) الآيتان : ٩٤ ، ٩٥ من سورة الإسراء (٢) الآية : ١١٣ من سورة الأنعام .

أخذته من كتب الأولين . هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين . وأما على قراءة ضم الخاء واللام — فالمراد به الدين ؛ أى إن هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ، ولن نتحول عنه ولا نتغير ، ولا نزال متمسكين به . و يناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم : (وما نحن بمعذبين) . قال : (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) أى قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله ، أتعارضون عبادة الله وحده لاشريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ؟ اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ، مانزل الله بها من سلطان . أى لم ينزل على ماذهبتم إليه دليلا ولا برهاناً . وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم فى الباطل ، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا — فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم ، و بأسه الذى لا يرد ، ونكاله الذى لا يصد .

وقال تعالى : (قال رب انصرنى بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين) وقال تعالى : (قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ، قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين) .

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم فى غير ما آية كما تقدم مجملا ومفصلا ، كقوله : (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) ، وكقوله : (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة و يوم القيمة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) ، وكقوله : (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين) ، وقال تعالى : (فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى : (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) — كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب ، أنهم كانوا ممحلين[١] مسنتين[٢] ، فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً فى السماء وظنوه سقيا رحمة ، فإذا هو سقيا عذاب . ولهذا قال تعالى : (بل هو ما استعجلتم به) — أى من وقوع العذاب ، وهو قولهم : (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) . ومثلها فى الأعراف .

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذى ذكره الإمام محمد بن إسحق بن بشار ، قال : فلما أبوا

---

(١) أصابهم المحل ، وهو الشدة وانقطاع المطر (٢) أصابتهم السنة ، وهى الجدب والقحط

إلا الكفر بالله عز وجل — أمسك عنهم المطر ثلاث سنين ، حتى جهدهم ذلك . قال : وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه — إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته . وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون ، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر ، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخيبرى[1] .
قال : فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلا ليستقوا لهم عند الحرم ، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً ؛ يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان « قينتان لمعاوية[2] » ، وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر . فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة على قومه ، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف — عمل شعراً يعرض لهم فيه بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنيهم به ، فقال :

ألا ياقيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمنحنا غماما
فيسقى أرض عاد إن عاداً ... قد امسوا لايبينون الكلاما
من العطش الشديد وليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش يأتيهم جهارا ... ولا يخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم ، فدعا داعيهم وهو « قيل » ابن عنز ، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء : اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب ، فقال : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء ، فناداه مناد : اخترت رمادا رمددا ، لاتبقى من عاد أحدا ، لا والداً يترك ولا ولداً ، إلا جعلته همداً ، إلا بنى اللوذية الهمداء قال وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة ، فلم يصبهم ماأصاب قومهم . قال : ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة . قال : وساق الله السحابة السوداء التى اختارها « قيل » بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فيقول تعالى : (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ✲ تدمر كل شىء بأمر ربها) أى تهلك كل شىء أمرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون — امرأة من عاد يقال لها « مهد »[3] ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا مارأيت يامهد ؟ قالت رأيت ريحاً فيها شبه النار ،

---

(١) فى نسخة : كالهدة ، والخيبرى . (٢) قال فى القاموس : الجرادتان : مغنيتان كانتا بمكة .
(٣) فى نسخه : مهدد ، وفى أخرى : مميد .

أمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما « والحسوم الدائمة » فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك . قال : واعتزل هود عليه السلام — فيما ذكر لى — فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلذ الأنفس ، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة . وذكر تمام القصة .

وقد روى الإمام أحمد حديثا فى مسنده يشبه هذه القصة فقال : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى ، حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن الحارث — وهو ابن حسان — ويقال ابن يزيد البكرى ، قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة[1] ، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها ، فقالت لى : يا عبدالله إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ فقلت ماشأن الناس ؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها ، قال فجلست ، قال فدخل منزله — أو قال رحله ـ فاستأذنت عليه فأذن لى ، فدخلت فسلمت فقال ﷺ : «هل كان بينكم وبين بنى تميم شيء» ؟ فقلت نعم . وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها ، فسألتنى أن أحملها إليك وهاهى بالباب ، فأذن لها فدخلت ، فقلت يارسول الله : إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بنى تميم حاجزاً ـ فاجعل الدهماء فإنها كانت لنا ، قال فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يارسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال فقلت . إن مثلى ما قال الأول : « معزى حملت حتفها » ؛ حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لى خصما ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال : «هيه وما وافد عاد؟» وهو أعلم بالحديث منى ولكن يستطعمه ، قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له «قيل» ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه ، فمرب به سحابات سود فنودى منها ـ اختر ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودى منها ـ خذها رماداً رمدداً ، لاتبقى من عاد أحداً . قال: فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكو . قال أبو وائل وصدق ، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد . وهكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به . ورواه النسائى من حديث سلام أبى المنذر عن عاصم بن بهدلة ، ومن طريقه رواه ابن ماجة . وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة — غير واحد

---

١ الربذة بالتحريك . مدفن أبى ذر الغفاري قرب المدينة ؛ وهي أيضاً خرقة من الصوف يهنأ بها البعير ويجلو بها الصائغ الحلي .

من المفسرين كابن جرير وغيره . وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة ؛ فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة ، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل ، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل ، فنزلت جرهم عندهم كما سيأتى ، وعاد الأولى قبل الخليل . وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره ، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى ، ولا يشبه كلام المتقدمين . وفيه أن فى تلك السحابة شرر نار ، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر . وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين : هى الباردة ، والعاتية الشديد الهبوب .

(سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) أى كوامل متتابعات . قيل كان أولها الجمعة ، وقيل الأربعاء (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) شبههم بأعجاز النخل التى لا رءوس لها ، وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء ؛ ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس ، كما قال : (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) أى فى يوم نحس عليهم ، مستمر عذابه عليهم ، (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) . ومن قال إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء ، وتشاءم به لهذا الفهم — فقد أخطأ وخالف القرآن ؛ فإنه قال فى الآية الأخرى : (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات) ، ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات ، فلو كانت نحسات فى أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤمة ، وهذا لا يقوله أحد . وإنما المراد فى أيام نحسات — أى عليهم . وقال تعالى : (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) أى التى لا تنتج خيراً ، فإن الريح المفردة لا تثير سحابا ولا تلقح شجراً ، بل هى عقيم لا نتيجة خير لها ، ولهذا قال : (ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) أى كالشىء البالى الفانى الذى لا ينتفع به بالكلية . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور »[1]

وأما قوله تعالى : (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم[2]) — فالظاهر أن عاداً هذه هى عاد الأولى ، فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون فى هذه القصة هم عاد الثانية . ويدل عليه ماذكرنا وما سيأتى من الحديث عن عائشة رضى الله عنها . وأما قوله : (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) — فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء فى الجو كالسحاب — ظنوه سحاب مطر ، فإذا هو سحاب عذاب . اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة . رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر . قال الله تعالى : (بل هو ما استعجلتم به) أى من العذاب ، ثم فسره بقوله : (ريح

---

(١) الصبا : ريح طيبة تهب من المشرق عند استواء الليل والنهار ، ويقابلها الدبور التى تهب من جهة المغرب

(٢) الآية : ٢١ من سورة الأحقاف .

فيها عذاب أليم) . يحتمل أن ذلك العـذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوط ، التى استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً ، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران[١] فتلفهم وتخرجهم وتهلـكهم ، وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة ، فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا : من أشد منا قوة — ساط الله عليهم ماهو أشد منهم قوة ، وأقدر عليهم ، وهو الريح العقيم .

ويحتمل أن هذه الريح أثارت فى آخر الأمر سحابة ، ظن من بقى منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقى منهم ، فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً ، كما ذكره غير واحد . ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين ، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار ، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة ، مع الصيحة التى ذكرها فى سورة قد أفلح المؤمنون . والله أعلم .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس . حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : « مافتح الله على عاد من الريح التى أهلـكوا بها — إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد — الريح وما فيها (قالوا هذا عارض ممطرنا) ، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة . وقد رواه الطبرانى عن عبدان بن أحمد عن إسماعيل بن زكريا الـكوفى ، عن أبى مالك عن مسلم الملائى ، عن مجاهد وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر ، فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا . وكان أهل البوادى فيها ، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلـكوا » . قال عتت عن خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب . قلت : وقال غيره خرجت بغير حساب .

والمقصود أن هذا الحديث فى رفعه نظر . ثم اختلف فيه على مسلم المـلائى ، وفيه نوع اضطراب والله أعلم . وظاهر الآية أنهم رأوا عارضا والمفهوم منه لمغة السحاب ، كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكرى ، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة . وأصرح منه فى ذلك ماروأه مسلم فى صحيحه حيث قال : حدثنا أبو بكر الطاهر ، حدثنا ابن وهب قال : سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبى رباح ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ماأرسلت به » قالت : و إذا عبيت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر . فإذا أمطرت سرى عنه . فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : « لعله

---

(١) جمع غار ، وهو الجحر فى الجبل يأوى إليه الوحشى .

يا عائشة كما قال قوم عاد : (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة ، من حديث ابن جريج .

طريق أخرى . قال الإمام أحمد : حدثنا هرون بن معروف ، أنبأنا عبد الله بن وهب ، أنبأنا عمرو — وهو ابن الحارث — أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت : مارأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته[1] ، إنما كان يتبسم . وقالت : كان إذا رأى غيما أو ريحاً عرف ذلك فى وجهه ، قالت يارسول الله : إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية ، فقال : «ياعائشة مايؤمننى أن يكون فيه عذاب ! قد عذب قوم نوح بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا» . فهذا الحديث كالصريح فى تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولا . فعلى هذا تكون القصة المذكورة فى سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية . وتكون بقية السياقات فى القرآن خبراً عن عاد الأولى ، والله أعلم بالصواب .

وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف ، وأخرجه البخارى وأبو داود من حديث ابن وهب . وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام . وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام فى بلاد اليمن . وذكر آخرون أنه بدمشق ، وبجامعها مكان فى حائطه القبلى يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام . والله أعلم .

قصة صالح عليه السلام « نبى ثمود »

وهم قبيلة مشهورة ، يقال ثمود باسم جدهم ثمود أخى جديس ، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح . وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتى بيانه . وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك ، فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو عبد الله ورسوله : صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر ابن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح . فدعاهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولايشركوا به شيئاً . فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وهموا بقتله ، وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . كما قال تعالى فى سورة الأعراف : (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ۞ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين ۞ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا

(١) جمع لهاة : وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دراهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين)[1] وقال تعالى فى سورة هود : (و إلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب * قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، أتنهانا أن نترك مايعبد آباؤنا ؟ و إننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب * قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير * وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى دراهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعد الثمود)[2] وقال تعالى فى سورة الحجر : (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون)[3] وقال سبحانه وتعالى فى سورة سبحان : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً)[4] وقال تعالى فى سورة الشعراء : (كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فيما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم)[5] . وقال تعالى فى سورة النمل : (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله ، فإذا هم فريقان يختصمون * قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطيرنا بك و بمن معك ، قال طائركم

---

(١) الآيات : ٧٣ — ٧٩ (٢) الآيات : ٦١ — ٦٨ (٣) الآيات : ٨٠ — ٨٤ (٤) الآية : ٥٩
(٥) الآيات : ١٤١ — ١٥٩ .

عند الله بل أنتم قوم تفتنون * وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكراً ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)[١] . وقال تعالى فى سورة حم السجدة : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)[٢] . وقال تعالى فى سورة اقتربت : (كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحد نتبعه ، إنا إذا لفى ضلال وسعر * أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر * سيعلمون غدا من الكذاب الأشر * إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)[٣] . وقال تعالى : (كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها)[٤] . وكثيراً ما يقرن الله فى كتابه بين ذكر عاد وثمود ، كما فى سورة براءة وإبراهيم والفرقان ، وسورة ص ، وسورة ق ، والنجم والفجر . ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب ، وليس لهما ذكر فى كتابهم التوراة . ولكن فى القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما ، كما قال تعالى فى سورة إبراهيم : (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ..)[٥] الآية . الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ، ولا اعتنوا بحفظه ، وإن كان خبرهما كان مشهوراً فى زمان موسى عليه السلام . وقد تكلمنا على هذا كله فى التفسير متقصياً . ولله الحمد والمنة .

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم ، وكيف نجى الله نبيه صالحا عليه السلام ومن آمن به ، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ، ومخالفتهم رسولهم عليه السلام .

وقد قدمنا أنهم كانوا عربا ، وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم . ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام : (اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد عاد ،

---

(١) الآيات : ٤٥ — ٥٣ (٢) الآيتان : ١٧ ، ١٨ (٣) الآيات : ٢٣ — ٣٢ (٤) سورة والشمس وضحاها (٦) الآيتان : ٨ ، ٩ .

وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين) أى إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم ، وتعملوا بخلاف عملهم . وأباح لكم هذه الأرض تبنون فى سهولها القصور ، (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين) — أى حاذقين فى صنعتها وإتقانها وإحكامها . فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح ، والعبادة له وحده لاشريك له . وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته ؛ فإن عاقبة ذلك وخيمة ، ولهذا وعظهم بقوله : (أتتركون فيما ههنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم) أى متراكم كثير حسن بهى ناضج . (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) . وقال لهم أيضاً : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من آله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) — أى هو الذى خلقكم فأنشأكم من الأرض ، وجعلكم عمارها ، أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار ، فهو الخالق الرزاق ، وهو الذى يستحق العبادة وحده لاسواه . (فاستغفروه ثم توبوا إليه) أى أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته ؛ فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم (إن ربى قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة ، وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة ، وترك ما كنا نعبده من الأنداد ، والعدول عن دين الآباء والأجداد . ولهذا قالوا : (أتنهانا أن نترك مايعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب * قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ؟ فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير) . وهذا تلطف منه لهم فى العبارة ولين الجانب ، وحسن تأت فى الدعوة لهم إلى الخير . أى فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ؟ ماذا عذركم عند الله ؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته ؟ وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب على ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى . فأنا لاأزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له ، حتى يحكم الله بينى وبينكم . وقالوا له أيضاً : (إنما أنت من المسحرين) أى من المسحورين ، يعنون مسحوراً لاتدرى ماتقول فى دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده ، وخلع ماسواه من الأنداد . وهذا القول عليه الجمهور . وهو أن المراد بالمسحرين — المسحورين . وقيل من المسحرين : أى ممن له سحر — وهو الرئى — كأنهم يقولون إنما أنت بشر مثلنا . وقولهم : (فأت بآية إن كنت من الصادقين) سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ماجاءهم (قال هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم) ، وقال : (قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) ، وقال تعالى : (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) .

وقد ذكر المفسرون . أن ثمود اجتمعوا يوماً فى ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله ، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة ؛ من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنتوا فيها . وأن تكون عشراء طويلة ، من صفتها كذا وكذا . فقال لهم النبى صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ماسألتم على الوجه الذى طلبتم ؟ أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ماقدر له ، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ماطلبوا . فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذى طلبوا ـ أو على الصفة التى نعتوا . فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلا ، وقدرة باهرة ودليلا قاطعاً وبرهاناً ساطعاً . فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم . ولهذا قال :(فظلموا بها) أى جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها — أى أكثرهم . وكان رئيس الذين آمنوا : جندع بن عمرو ابن محلاه بن لبيد بن جواس . وكان من رؤسائهم . وهمّ بقية الأشراف بالإسلام فصدهم ذؤاب بن عمرو ابن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعر بن جلمس . ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة — وكان من أشرافهم ، فهم بالإسلام فنهاه أولئك ، فمال إليهم ، فقال فى ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش ابن غنمة بن الذميل رحمه الله .

وكانت عصبة من آل عمرو   إلى دين النبى دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعا   فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً   وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر   تولوا بعد رشدهم ذآبا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام : (هذه ناقة الله) أضافها الله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم ؛ كقوله بيت الله وعبد الله ، (لكم آية) أى دليلا على صدق ماجئتكم به (فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) . فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ، ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يوماً بعد يوم . وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم . ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، ولهذا قال : (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) ، ولهذا قال تعالى : (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) أى اختبارا لهم ، أيؤمنون بها أم يكفرون ؟ والله أعلم بما يفعلون . (فارتقبهم) أى انتظر ما يكون من أمرهم (واصطبر) على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية . (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) . فلما طال عليهم الحال هذا —

اجتمع ملؤهم ، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ، ليستريحوا منها و يتوفر عليهم ماؤهم . وزين لهم الشيطان أعمالهم . قال الله تعالى : (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) . وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم : قدار بن سالف بن جندع ، وكان أحمر أزرق أصهب . وكان يقال إنه ولد زانية ولد على فراش سالف ، وهو ابن رجل يقال له صيبان . وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم ، فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم .

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين : أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما «صدوق» ابنة المحيا ابن زهير بن المختار . وكانت ذات حسب ومال ، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته ، فدعت ابن عم لها يقال له «مصرع» بن مهرج بن المحيا ، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة . واسم الأخرى «عنيزة» بنت غنيم بن مجلز ، وتكنى أم عثمان . وكانت عجوزا كافرة ، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء . فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف ، إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء ، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا فى قومهم بذلك ، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة . وهم المذكورون فى قوله تعالى : (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) ، وسعوا فى بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها ، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى ذلك . فانطلقوا يرصدون الناقة ، فلما صدرت من وردها كمن لها « مصرع » ، فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها ، وجاء النساء يزمرن القبيلة فى قتلها ، وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم . فابتدرهم قدار بن سالف ، فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض . ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ، ثم طعن فى لبتها فنحرها ، وانطلق سقبها — وهو فصيلها — فصعد جبلا منيعا ودعا ثلاثا .

وروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن أنه قال : يارب أين أمى ؟ ثم دخل فى صخرة فغاب فيها ، ويقال بل اتبعوه فعقروه أيضاً . قال الله تعالى : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر) . وقال تعالى : (إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) أى احذروها (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها) .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا هاشم — هو أبو عزرة — عن أبيه عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : « إذ انبعث أشقاها : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه — مثل أبى زمعة »[1] أخرجاه من حديث هشام عارم ، أى شهم . عزيز أى رئيس : منيع أى مطاع فى قومه . وقال محمد بن إسحاق : حدثنى يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب عن محمد بن خيثم عن يزيد عن عمار بن ياسر . قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « ألا

(١) هو : الأسود بن عبد المطلب ، عم الزبير بن العوام ، وكان ذا منعة وعز فى قومه .

أحدثك بأشقى الناس ؟ قال : بلى . قال رجلان : أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضر بك ياعلى على هذا — يعنى قرنه — حتى تبتل منه هـذه — يعنى لحيته » . رواه ابن أبى حاتم . وقال تعالى : (فعقروا الناقة وعتوا من أمر ربهم ، وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) . فجمعوا فى كلامهم هذايين كفر بليغ من وجوه : منها أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية . ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين : أحدهما الشرط عليهم فى قوله : (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) وفى آية عظيم ، وفى الأخرى أليم ، والكل حق . والثانى استعجالهم على ذلك . ومنها أنهم كذبوا الرسول الذى قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه ، وهم يعلمون ذلك علما جازماً ، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم . قال الله تعالى : (فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) . وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله ، فعرقبها فسقطت إلى الأرض ، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها . فلما عاين ذلك سقبها — وهو ولدها — شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ، ورغا ثلاث مرات ، فلهذا قال لهم صالح : (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) أى غير يومهم ذلك ، فلم يصدقوه أيضاً فى هذا الوعد الأكيد . بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا — فيما يزعمون — أن يلحقوه بالناقة . (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) أى لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه ، ثم نجحدنّ قتله ونتنكرنّ ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه . ولهذا قالوا : (ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) . قال الله تعالى : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذى آمنوا وكانوا يتقون)[1] .

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح — حجارة رضختهم سلفاً وتعجيلا قبل قومهم ، وأصبحت ثمود يوم الخميس — وهو اليوم الأول من أيام النظرة — ووجوههم مصفرة ، كما أنذرهم صالح عليه السلام . فلما أمسوا نادوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من الأجل . ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل — وهو يوم الجمعة — ووجهم محمرة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قدمضى يومان من الأجل . ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع — وهو يوم السبت — ووجوهم مسودة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى الأجل . فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة ، لايدرون كيف يفعل بهم ؟ ولا من أى جهة يأتيهم العذاب ؟ فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ، ورجفة شديدة من أسفل

---

(١) الآيات : ٤٩ — ٥٣ من سورة النمل .

منهم ، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات ، وخشعت الأصوات ، وحقت الحقائق فأصبحوا فى دراهم جاثمين ، جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها . قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة و اسمها « كلبة » بنت السلق — ويقال لها الذريعة — وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شىء ، فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء ، فلما شربت ماتت . قال الله تعالى : (كأن لم يغنوا فيها) أى لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء ، (ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود) — أى نادى عليهم لسان القدر بهذا .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لاتسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، فكانت — يعنى الناقة — ترد من هذا الفج [1] وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها . وكانت تشرب ماءهم يوماً و يشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحداً كان فى حرم الله » فقالوا : من هو يارسول الله ؟ قال : « هو أبو رغال [2] ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » . وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو فى شىء من الكتب الستة . والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق أيضاً ، قال معمر : أخبرنى إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال ، فقال : « أتدرون من هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : « هذا قبر أبى رغال رجل من ثمود ، كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » . قال عبد الرزاق قال معمر قال الزهرى : أبو رغال أبو ثقيف . هذا مرسل من هذا الوجه .

وقد جاء من وجه آخر متصلا كما ذكره محمد بن إسحق فى السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبى بجير ، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف ، فمررنا بقبر ، فقال : « إن هذا قبر أبى رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه . وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب — إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه ، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن » . وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحق به . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله : هذا حديث حسن عزيز . قلت تفرد به بجير بن أبى بجير هذا ، ولا يعرف إلا بهذا الحديث ، ولم يرو عنه سوى

---

(١) الفج : الطريق الواسع بين جبلين .

(٢) اسمه : زيد بن مخلف وكان عبد السيدنا صالح

إسماعيل بن أمية . قال شيخنا فيحتمل أنه وهم فى رفعه ، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زامله . والله أعلم . قلت : لكن فى المرسل الذى قبله وفى حديث جابر أيضاً — شاهد له . والله أعلم .

وقوله تعالى : (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) — إخبار عن صالح عليه السلام ، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم ، وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم : (ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) أى جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى ، وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى (ولكن لا تحبون الناصحين) — أى لم تكن سجايا كم تقبل الحق ولا تريده ، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، المستمر بكم المتصل إلى الأبد ، وليس لى فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان . والذى وجب على من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ، ولكن الله يفعل ما يريد . وهكذا خاطب النبى ﷺ أهل قليب بدر[1] بعد ثلاث ليال : وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً » وقال لهم فيما قال : « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم » . فقال له عمر : يارسول الله تخاطب أقواماً قد جيفوا ؟[2] فقال : « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون » . وسيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ويقال إن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال : « يا أبا بكر أى واد هذا ؟ » قال : وادى عسفان قال : « لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأرديتهم النمار[3] يلبون يحجون البيت العتيق » . إسناد حسن . وقد تقدم فى قصه نوح عليه السلام من رواية الطبرانى ، وفيه نوح وهود وإبراهيم .

ذكر مرور النبى صلى الله عليه وسلم بوادى الحجر من أرض ثمود « عام تبوك »

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور ، فأمرهم رسول الله فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجين

---

(١) القليب : البئر ، أو العادية القديمة منها ، ويؤنث . (٢) أى أنتنت أجسامهم . يقال : جافت الجيفة تجيف ـ أنتنت
(٣) قال فى القاموس: النمرة شملة فيها خطوط بيض وسود . أو بردة من صوف تلبسها الأعراب .

الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا[١] «إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم» . وقال أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : «لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم » . أخرجاه فى الصحيحين من غير وجه . وفى بعض الروايات : أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم . قنع رأسه[٢] وأسرع راحلته ، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين . وفى رواية : « فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم » . صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون ، حدثنا المسعودى عن إسمعيل بن أوسط عن محمد بن أبى كبشة الأنبارى عن أبيه — واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر بن سعد — رضى الله عنه قال : لما كان فى غزوة تبوك سارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس : « الصلاة جامعة » ، قال فأتيت النبى ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول : « ماتدخلون على قوم غضب الله عليهم » ، فناداه رجل : نعجب منهم يارسول الله ! قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ؛ فإن الله لايعبأ بعذابكم شيئاً . وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » . إسناد حسن ولم يخرجوه .

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة ، فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم ، فنحتوا لهم بيوتاً فى الجبال . وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سألوه آية ، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة — أمرهم بها وبالولد الذى كان فى جوفها ، وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء ، وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك . وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب . فبعثوا القوابل فى البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه ، فكانوا على ذلك دهراً طويلا ، وانقرض جيل وأتى جيل آخر . فلما كان فى بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله فى الرياسة ، فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة : وهو قدار بن سالف ، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم ، فنشأ نشأة سريعة ، فكان يشب فى الجمعة كما يشب غيره فى شهر ، حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم . فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم — وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام . فلما وقع من أمرهم ماوقع من عقر الناقة ، وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام — جاءهم باكياً عليها ، فتلقوه يعتذرون إليه ، ويقولون : إن هذا لم يقع عن ملأ منا .

---

(١) لعل هنا جملة ساقطة هى : وقال لهم . (٢) أى سترها .

وإنما فعل هـذا هؤلاء الأحداث فينا . فيقال إنه أمرهم باستدراك سقبها[1] حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها ، فذهبوا وراءه فصعد جبلا هناك ، فلما تصاعدوا فيه وراءه — تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير ، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه . ثم استقبل صالحاً عليه السلام ودعا ثلاثاً ، فعندها قال صالح : (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب) وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً ، ثم تحمر وجوههم فى الثانى ، وفى اليوم الثالث تسود وجوههم . فلما كان فى اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة ، فأخذتهم فأصبحوا فى دارهم جاثمين . وفى بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر مايفهم من القرآن فى شأنهم وقصتهم كما قدمنا . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

قصة إبراهيم الخليل « عليه السلام »

هو إبراهيم بن تسارخ « ٢٥٠ » بن ناحور « ١٤٨ » بن ساروغ « ٢٣٠ » بن راعو « ٢٣٩ » ابن فالغ « ٤٣٩ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » بن أرنخشذ « ٤٣٨ » بن سام « ٦٠٠ » ابن نوح عليه السلام . هذا نص أهل الكتاب فى كتابهم ، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندى كما ذكروه من المدد[2] . وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته . وحكى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه ، عن إسحق بن بشر الكاهلى صاحب كتاب المبتدأ — أن اسم أم ابراهيم « أميلة » . ثم أورد عنه فى خبر ولادتها له — حكاية طويلة . وقال الكلبى : اسمها « بونا » بنت كربنا بن كرثى — من بنى أرنخشذ بن سام بن نوح .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان إبراهيم عليه السلام يكنى « أبا الضيفان » قالوا : ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة — ولد له إبراهيم عليه السلام ، وناحور وهاران . وولد لهاران «لوط» . وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط ، وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها ، وهى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل . وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار ، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر ، بعد ماروى من طريق هشام بن عمار عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق ، فى قرية يقال لها برزة ، فى جبل يقال له قاسيون . ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل . وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام . قالوا فتزوج إبراهيم سارة ، وناحور «ملكا» ابنة هاران — يعنون

---

(١) السقب : ولد الناقة ، أو ساعة يولد .

(٢) « تنبيه » هذه الأرقام موافقة لما فى التوراة ، أما الأسماء فأكثرها مخالف لما فيها . مثلا : فيها تارخ بدل تسارخ ، وسروج بدل ساروغ ، وفالج بدل فالغ ، وأرفكشاد بدل أرنخشذ ، ورعو بدل راعو . وأرقام الأعمار بعد كل اسم .

ابنة أخيه . قالوا : وكانت سارة عاقراً لاتلد ، قالوا : وانطلق تارخ بابنة إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران ، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، فنزلوا حران فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة . وهذا يدل على أنه لم يولد بحران ، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهى أرض بابل وما والاها . ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين ، وهى بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهى أرض الكشدانيين فى ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً . وكانوا يعبدون الكواكب السبعة . والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين ، يستقبلون القطب الشمالى و يعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال . ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة — هيكل لكوكب منها ، ويعملون لها أعياداً وقرابين . وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً ،سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام .

وكان الخليل عليه السلام هو الذى أزال الله به تلك الشرور ، وأبطل به ذاك الضلال ؛ فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده فى صغره ، وابتعثه رسولا واتخذه خليلا فى كبره ، قال تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين [1]) أى كان أهلا لذلك .

وقال تعالى : (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون * وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين * أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير * يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون * وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أوحرقوه ، فأنجاه الله من النار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين)[2] . ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) الآية : ٥١ من سورة الأنبياء (٢) الآيات : ١٦ — ٢٧ من سورة العنكبوت .

وكان أول دعوته لأبيه – وكان أبوه ممن يعبد الأصنام — لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له ، كما قال تعالى : (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً * يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً * ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً * قال أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً)[1] . فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة ، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة ؛ بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التى لاتسمع دعاء عابدها ولاتبصر مكانه ، فكيف تغنى عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ؟ ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه : (ياأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً) – أى مستقيما واضحاً سهلا حنيفاً ، يفضى بك إلى الخير فى دنياك وأخراك فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه — لم يقبلها منه ، ولا أخذها عنه ، بل تهدده وتوعده . قال : (أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك) قيل بالمقال وقيل بالفعال . (واهجرنى ملياً) أى واقطعنى وأطل هجرانى . فعندها قال له إبراهيم : (سلام عليك) أى لا يصلك منى مكروه ولا ينالك منى أذى ، بل أنت سالم من ناحيتى . وزاده خيراً فقال : (سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً) . قال ابن عباس وغيره : **أى لطيفاً** ، يعنى فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له . ولهذا قال : (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً) .

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده فى أدعيته ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، كما قال تعالى : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم)[2] .

وقال البخارى : حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنى أخى عبد الحميد عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لاتعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى أن لاتخزينى يوم يبعثون . فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ[3] متلطخ[4] ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » ، هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفرداً .

---

(١) الآيات : ٤١ — ٤٨ من سورة مريم . (٢) الآية : ١١٤ من سورة التوبة

(٣) الذيخ : كل مايذبح ، وذكر الضبع الكثير الشعر . (٤) ملوث ماقى على الأرض

وقال فى التفسير : وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبى ذؤيب عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة . وهكذا رواه النسائى عن أحمد بن حفص بن عبد الله عن أبيه عن إبراهيم بن طهمان به . وقد رواه البزار عن حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه ، وفى سياقه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبى سعيد عن النبى ﷺ بنحوه . وقال تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) . هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر ، وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس — على أن اسم أبيه تارح . وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة ، فقيل : إنه لقب بصنم كان يعبده — اسمه آزر . وقال ابن جرير : والصواب أن اسمه آزر . ولعل له اسمان علمان ، أو أحدهما لقب والآخر علم . وهذا الذى قاله محتمل . والله أعلم .

ثم قال تعالى : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ؟ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم - أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم)[1] .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة — لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شىء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقى بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه . فبين لهم أولا عدم صلاحية الكوكب لذلك . قيل هو الزهرة ، ثم ترقى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها . ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء . فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة ، كما قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)[2] ولهذا قال : (فلما رأى الشمس بازغة) أى طالعة (قال هذا ربى هذا أكبر) فلما أفلت قال

---

(١) الآيات : ٧٥ — ٨٣ من سورة الأنعام (٢) الآية : ٣٧ من سورة فصلت .

يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً) . أى لست أبالى هـذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله ؛ فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل ، بل هى مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهر أن موعظته هذه فى الكواكب لأهل حران ؛ فانهم كانوا يعبدونها . وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً ، كما ذكره ابن إسحق وغيره . وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ، ولا سيما إذا خالفت الحق .

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم فى عبادتها وكسرها عليهم ، وأهانها وبين بطلانها ، كما قال تعالى : (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) ، وقال فى سورة الأنبياء : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هـذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون * قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) (١) .

وقال فى سورة الشعراء : (واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ * أو ينفعونكم أو يضرون ؟ * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) (٢)
وقال تعالى فى سورة الصافات : (وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم * إذ قال لأبيه وقومه

---

(١) الآيات : ٥١ — ٧٠ من سورة الأنبياء (٢) الآيات : ٦٩ ـ ٨٣.

ماذا تعبدون ؟ * أئفكا آلهة دون الله تريدون ؟ * فما ظنكم برب العالمين * فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم * فتولوا عنه مدبرين * فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ؟ * مالكم لا تنطقون ؟ * فراغ عليهم ضربا باليمين * فأقبلوا إليه يزفون * قال أتعبدون ما تنحتون ؟ * والله خلقكم وما تعملون * قال ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين)[1] .

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام ، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها ، فقال : (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟) أى معتكفون عندها وخاضعون لها ، قالوا : (وجدنا آباءنا لها عابدين) . ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد . (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم ضلال مبين) كما قال تعالى : (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون * أئفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين) . قال قتادة : فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وقال لهم : (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟ * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) . سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً ، وإنما الحامل لهم على عبادتها — الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم فى الضلال من الآباء الجهال . ولهذا قال لهم : (أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) . وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام ؛ لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أوتؤثر لأثرت فيه . (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟) يقولون : هذا الكلام الذى تقوله لنا وتتنقص به آلهتنا ، وتطعن بسببه فى آبائنا — أتقوله محقاً جاداً فيه أم لاعباً ؟ (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) ، يعنى بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، ربكم ورب كل شىء ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق . فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .

وقوله : (وتالله لأكيدن أصنامكم بعدأن تولوا مدبرين) ، أقسم ليكيدن هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم . قيل إنه قال هذا خفية فى نفسه . وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم ، وكان لهم عيد يذهبون إليه فى كل عام مرة إلى ظاهر البلد ، فدعاه أبوه ليحضره فقال إنى سقيم . كما قال تعالى : (فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم) . عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده : من إهانة أصنامهم ، ونصرة دين الله الحق ، و بطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن يهان غاية الإهانة . فلما خرجوا إلى عيدهم ، واستقر هو فى بلدهم (راغ إلى آلهتهم) — أى ذهب إليها مسرعامستخفياً ، فوجدها فى بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها :

---

(١) الآيات : ٨٣ ـ ٩٨ .

(فقال) لها على سبيل التهكم والازدراء (ألا تأ كلون ﴿ مالـكم لا تنطقون ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين) لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر ، فكسرها بقدوم فى يده ، كما قال تعالى : (فجعلهم جذاذا) أى حطاما ، كسرها كلها (إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) . قيل إنه وضع القدوم فى يد الـكبير ، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار . فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم — (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) .

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون ، وهو ماحل بآلهتهم التى كانوا يعبدونها . فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء ، لـكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم : (من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) أى يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها ، فهو المقيم عليها والـكاسر لها . وعلى قول ابن مسعود ، أى يذكرهم بقوله : (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) ـ أى فى الملأ الأكبر على رءوس الأشهاد ، لعلهم يشهدون مقالته و يسمعون كلامه ، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه . وكان هذا أكبر مقاصد الخليل ـ عليه السلام ـ أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ماهم عليه ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : (موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) . فلما اجتمعوا وجاؤا به كما ذكروا (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا) . قيل معناه : هو الحامل لى على تـكسيرهم ، و إنما عرض لهم فى القول (فاسئلوهم إن كانوا ينطقون) . و إنما أراد بقوله هذا — أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ، (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنـكم أنتم الظالمون) أى فعادوا على أنفسهم بالملامة ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون — أى فى تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها . (ثم نـكسوا على رءوسهم) . قال السدى : أى ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : (إنكم أنتم الظالمون) — أى فى عبادتها .

وقال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء . أى فأطرقوا ثم قالوا : (لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) أى لقد علمت ياإبراهيم أن هذه لا تنطق ، فـكيف تأمرنا بسؤالها ؟ فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام : (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيأ ولا يضركم ، أف لـكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟) كما قال : (فأقبلوا إليه يزفون) قال مجاهد : يسرعون . قال : (أتعبدون ما تنحتون) أى كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون (والله خلقـكم وماتعملون) .
وسواء كانت «ما» مصدرية أو بمعنى الذى — فمقتضى الـكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة ، فـكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله ؟ فإنه ليس عبادتـكم لها بأولى من عبادتها لـكم . وهذا باطل فالآخر باطل للتحكم ؛ إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له . (قالوا ابنوا له بنياناً

فألقوه فى الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) . عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ماهم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الرب جل جلاله ، وأعلى كلمته ودينه و برهانه . كما قال تعالى : (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) .

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له ، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم . ثم عمدوا إلى جوبة [١] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار ، فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلاها شرر لم ير مثله قط . ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام فى كفة منجنيق [٢] صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له « هيزن » وكان أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . ثم أخذوا يقيدونه و يكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لاشريك لك . فلما وضع الخليل عليه السلام فى كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار — قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . كما روى البخارى عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قيل له : (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء [٣] . . .) الآية .

وقال أبو يعلى : حدثنا أبو هشام الرفاعى ، حدثنا إسحق بن سليمان عن أبى جعفر الرازى عن عاصم ابن أبى النجود عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال ﷺ : « لما ألقى إبراهيم فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك » .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له فى الهواء فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . و يروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال : جعل ملك المطر يقول : متى أومر فأرسل المطر ؟ فكان أمر الله أسرع . (قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) . قال على بن أبى طالب : أى لا تضر يه . وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله قال : وسلاماً على إبراهيم لأذى إبراهيم بردها . وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ، ولم يحرق منه سوى وثاقه . وقال الضحاك : يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شىء غيره . وقال السدى : كان معه أيضاً ملك الظل ، وصار إبراهيم عليه السلام فى مثل الجوبة [٤] حوله نار ، وهو فى روضة خضراء ، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ، ولا هو يخرج إليهم . فعن أبى هريرة أنه قال : أحسن كلمة

---

(١) أى حفرة (٢) آلة مخصوصة ترمى بها الحجارة (٣) الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .
(٤) الجوبة : الحفرة والمكان الواطىء فى جلد .

قالها أبو إبراهيم ، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبرهيم . وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته : يا بنى إنى أريد أن أجىء إليك فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك ، فقال : نعم . فأقبلت إليه لا يمسها شىء من حر النار ، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت .

وعن المنهال بن عمرو أنه قال : أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً ، وأنه قال : ما كنت أياماً وليالى أطيب عيشاً إذ كنت فيها ، ووددت أن عيشى وحياتى كلها مثل إذ كنت فيها . صلوات الله وسلامه عليه . فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) ، وفى الآية الأخرى (الأسفلين) ففازوا بالخسارة والسفال ، هذ فى الدنيا . وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً ، بل هى كما قال تعالى :(إنها ساءت مستقراً ومقاماً) .

قال البخارى : حدثنا عبدالله بن موسى أو ابن سلام عنه : أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير ، عن سعيد بن المسيب عن أم شريك : أن رسول الله ﷺ — أمر بقتل الوزغ[1] ، وقال : « وكان ينفخ على إبراهيم » . ورواه مسلم من حديث ابن جريج . وأخرجاه النسائى وابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة ، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة به . وقال أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ابن جريج ، أخبرنى عبد الله بن عبدالرحمن بن أبى أمية : أن نافعا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم » . قال فكانت عائشة تقتلهن . وقال أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع — أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت : ما هذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به الأوزاغ ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : « أن إبراهيم لما ألقى فى النار جعلت الدواب كلها تطفىء عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها عليه » . تفرد به أحمد من هذين الوجهين .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا جرير ، حدثنا نافع ، حدثتنى سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت : دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحا موضوعا ، فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به ، فإن رسول الله ﷺ حدثنا : «أن إبراهيم حين ألقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا تطفىء عنه النار ، غير الوزغ كان ينفخ عليه» ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله . ورواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به .

---

(١) جمع وزغة وهى : سام أبرص ، سميت بذلك لخفتها وسرعة حركتها .

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع العظيم الجليل في العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى : (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ؛ إذ قال إبراهيم ربى الذى يحى ويميت ، قال أنا أحى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لايهدى القوم الظالمين)[١] .

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد ، الذى ادعى لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل عليه دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة ، وأوضح له طريق المحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه النمرود بن كنعان ابن كوش بن سام بن نوح . قاله مجاهد . وقال غيره : نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح . قال مجاهد وغيره : وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان . والكافران : النمرود ، وبختنصر . وذكروا أن نمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة . وكان طغا وبغا ، وتجبر وعتا ، وآثر الحياة الدنيا . ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لاشريك له — حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع ، فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل : (ربى الذى يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت) .

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحق : يعنى أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر — فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر . وهذا ليس بمعارضة للخليل . بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا بمعارضة . بل هو تشغيب محض ، وهو انقطاع فى الحقيقة ؛ فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات ؛ من إحياء الحيوانات وموتها — على وجود فاعل . ذلك الذى لابد من استنادها إلى وجوده ، ضرورة عدم قيامها بنفسها . ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة : من خلقها وتسخيرها ، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر ، وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ، ثم إماتتها . ولهذا (قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت) فقول هذا الملك الجاهل : أنا أحيي وأميت : إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات — فقد كابر وعاند ، وإن عنى

(١) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

ماذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحق — فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل ؛ إذ لم يمنع مقدمة ، ولا عارض الدليـــل .

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم — ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع ، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة . (قال فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) — أى هذه الشمس مسخرة كل يوم ، تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها — وهو الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء . فإن كنت كما زعمت من أنك الذى تحيي وتميت — فأت بهذه الشمس من المغرب ؛ فإن الذى يحيي ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شىء ودان له كل شىء . فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت . وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شىء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها ، فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه ، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به ، بل انقطع وسكت . ولهذا قال : (فبهت الذى كفر : والله لا يهدى القوم الظالمين) .

وقد ذكر السدى : أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ، ولم يكن اجتمع به يومئذ ، فكانت بينهما هذه المناظرة . وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم : أن النمرود كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة ، فكانت بينهما هذه المناظرة . ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس ، بل خرج وليس معه شىء من الطعام . فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب ، فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلى إذا قدمت عليهم . فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام ، فقامت امرأته سارة إل العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً ، فعملت منه طعاماً . فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه ، فقال : أنى لكم هذا ؟ قالت من الذى جئت به ، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل . قال زيد بن أسلم : وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار — ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية فأبى عليه ، ثم الثالثة فأبى عليه وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعى . فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاماً بادية ، ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمائة سنة ، عذبه الله تعالى بها . فكان يضرب رأسه بالمزارب فى هذه المدة كلها ، حتى أهلكه الله عز وجل بها .

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام، ودخوله الديار المصرية واستقراره فى الأرض المقدسة

قال الله : (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب، وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين[1]) وقال تعالى : (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين * ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين[2]) . لما هجر قومه فى الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر — وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب. فكل نبى بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الأنبياء من بعده — فعلى أحد نسله وعقبه؛ خلعة من الله وكرامة له، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل، ودعوة الخلق إليه. والأرض التى قصدها بالهجرة — أرض الشام، وهى التى قال الله عز وجل : (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) . قاله أبى بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم. وروى العوفى عن ابن عباس قوله : (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) — مكة. ألم تسمع إلى قوله : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين)[3] . وزعم كعب الأحبار أنها حران.

وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب : أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط، وأخوه ناحور، وامرأة إبراهيم سارة، وامرأة أخيه « ملكا » — فنزلوا حران، فمات تارح أبو إبراهيم بها.

وقال السدى : انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقى إبراهيم سارة — وهى ابنة ملك حران — وقد طعنت على قومها فى دينهم، فتزوجها على أن لا يغيرها. رواه ابن جرير وهو غريب. والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذى تنسب إليه حران. ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلى عن القتيبى والنقاش — فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم. ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً — فليس له على ذلك دليل. ولو فرض أن هذا كان مشروعاً فى وقت — كما هو منقول عن الربانيين من اليهود — فإن الأنبياء لا تتعاطاه. والله أعلم. ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل — خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم. والله أعلم.

---

(١) الآيتان : ٢٦، ٢٧ من سورة العنكبوت (٢) الآيتان : ٧١ — ٧٣ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية : ٩٦ من سورة آل عمران.

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه : إنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك ، فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة ، وضرب قبته شرقى بيت المقدس ثم انطلق مرتحلا ، إلى التيمن ، وأنه كان جوع — أى قحط وشدة وغلاء ، فارتحلوا إلى مصر . وذكروا قصة سارة مع ملكها ، وأن إبراهيم قال لها قولى أنا أخته ، وذكروا إخدام الملك إياها هاجر . ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن — يعنى أرض بيت المقدس وماوالاها ، ومعه دواب وعبيد وأموال .

وقد قال البخارى : حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبى هريرة قال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : ثنتان منهن فى ذات الله ، قوله : (إنى سقيم) ، وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقال : بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال من هذه ؟ قال أختى . فأتى سارة فقال : ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى . فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق . فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان وإنما أتيتمونى بشيطان ، فأخدمها هاجر . فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيم ؟[1] فقالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره ، وأخدم هاجر . قال أبو هريرة : فتلك أمكم يابنى ماء السماء » . تفرد به من هذا الوجه موقوفاً .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن على الفلاس عن عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن ابراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات ، كل ذلك فى ذات الله ، قوله : (إنى سقيم) وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلا ، فأتى الجبار فقيل له إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه فسأله عنها فقال إنها أختى . فلما رجع إليها قال : إن هذا سألنى عنك فقلت إنك أختى ، وإنه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك ، و إنك أختى فلا تكذبينى عنده . فانطلق بها ، فلما ذهب يتناولها أخذ ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت له فأرسل . فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأرسل — ثلاث مرات ، فدعا أدنى حشمه فقال إنك لم تأتنى بإنسان ولكن أتيتنى بشيطان . أخرجها وأعطها هاجر . فجاءت وإبراهيم قائم يصلى ، فلما أحس بها انصرفت ، فقال مهيم ؟ فقالت كفى الله كيد الظالم ، وأخذ منى هاجر » . وأخرجاه من حديث هشام . ثم

---

(١) هى كلمة استفهام . أى ماحالك وماشأنك ؟ أو ما وراءك ؟ أو أحدث لك شىء ؟

قال البزار : لا يعلم سنده عن محمد عن أبى هريرة إلا هشام . ورواه غيره موقوفا .

وقال الإمام أحمد . حدثنا على بن حفص عن ورقاء — هو ابن عمر اليشكرى — عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعى إلى آلهتهم ، فقال : (إنى سقيم) ، وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقوله لسارة : « إنها أختى » . قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذه معك ؟ قال أختى . قال فأرسل بها ، قال فأرسل بها إليه ، وقال لا تكذبى قولى ، فإنى قد أخبرته أنك أختى ، إن ما على الأرض مؤمن غيرى وغيرك . فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسلك . وأحصنت فرجى إلا على زوجى — فلا تسلط على الكافر . قال فغط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة إنها قالت : اللهم إن يمت يقال هى قتلته ، قال فأرسل . قال : ثم قام إليها ، قال فقامت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى — فلا تسلط على الكافر . قال فغط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبى هريرة إنها قالت : اللهم إن يمت يقل هى قتلته ، قال فأرسل . قال : فقال فى الثالثة أو الرابعة — ما أرسلتم إلى إلا شيطاناً . أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر . قال فرجعت ، فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة . تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح . وقد رواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب بن أبى حمزة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ به مختصراً . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سفيان عن على بن زيد بن جدعان ، عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ فى كلمات ابراهيم الثلاث التى قال : « ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله ؛ فقال إنى سقيم ، وقال بل فعله كبيرهم هذا ، وقال للملك حين أراد امرأته هى أختى » .

فقوله فى الحديث : هى أختى — أى فى دين الله . وقوله لها : إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك — يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك ويتعين حمله على هذا لأن لوطاً كان معهم وهو نبى عليه السلام . وقوله لها لما رجعت إليه : مهيم ؟ معناه ما الخبر . فقالت إن الله رد كيد الكافرين . وفى رواية : الفاجر وهو الملك وأخدم جارية . وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك . قام يصلى لله عز وجل ، ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء . وهكذا فعلت هى أيضاً . فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم . ولهذا قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلوة) ، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله ابراهيم عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم عليهن السلام . والذى عليه الجمهور أنهن صديقات رضى الله عنهن وأرضاهن . ورأيت فى بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها ، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه . وكان مشاهداً لها وهى عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته ؛ فإنه كان يحبها حباً شديداً ؛ لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر ؛ فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها — أحسن منها ، رضى الله عنها . ولله الحمد والمنة .

وذكر بعض أهل التواريخ : أن فرعون مصر هذا — كان أخا للضحاك — الملك المشهور بالظلم ، وكان عاملا لأخيه على مصر . ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق بن لاودبن سام ابن نوح . وذكر ابن هشام فى التيجان : أن الذى أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون بن سبأ ، وكان على مصر . نقله السهيلى والله أعلم .

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن — وهى الأرض المقدسة التى كان فيها — ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية . ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك — إلى أرض الغور ، المعروف بغور زغر ، فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان . وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً . وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل : فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر ، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض . وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة ، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية . ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ : « إن الله زوى (١) لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » قالوا ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه ، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ أمواله — قتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيراً ، وهزمهم وساق فى آثارهم حتى وصل إلى شرقى دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة ، وأظن مقام إبراهيم إنما سمى لأنه كان موقف جيش الخليل . والله أعلم .

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده ، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين ، واستقر ببلاده . صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) أي جمع .

ذكر مولد إسماعيل «عليه السلام» من هاجر

قال أهل الكتاب : إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة ، و إن الله بشره بذلك . وإنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة — قالت سارة لإبراهيم عليه السلام : إن الرب قد أحرمنى الولد ، فادخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولدا ، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام ، فحين دخل بها حملت منه . قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها ، فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها : افعلى بها ما شئت ، فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك . فقال لها ملك من الملائكة : لا تخافى فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيراً ، وأمرها بالرجوع و بشرها أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل ، و يكون وحش الناس ؛ يده على الكل ، ويد الكل به ، و يملك جميع بلاد إخوته . فشكرت الله عز وجل على ذلك . وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإنه الذى سادت به العرب ، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً ، وأتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح مالم تؤت أمة من الأمم قبلهم . وماذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل ، و بركة رسالته و يمن بشارته ، وكماله فيما جاء به ، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام ، قالوا وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة ، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة . ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة ، فخر لله ساجداً ، وقال له : قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيراً ، و يولد له اثنا عشر عظيما ، وأجعله رئيساً لشعب عظيم . وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيماهم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر ، المبشر بهم فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبى ﷺ قال : «يكون اثنا عشر أميراً » . ثم قال كلمة لم أفهمها ، فسألت أبى ما قال . قال : « كلهم من قريش» . أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية : « لايزال هذا الأمر قائماً — وفى رواية عزيزاً — حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» ، فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضاً ، ومنهم بعض بنى العباس . وليس المراد أنهم يكونون اثنى عشر نسقاً بل لابد من وجودهم . وليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة ، الذين أولهم على بن أبى طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا — وهومحمد بن الحسن العسكرى فيما يزعمون ؛ فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من على وابنه الحسن بن على ، حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية ، وأخمد نار الفتنة وسكن رحى الحروب بين المسلمين ، والباقون من جملة الرعايا لم يكن

لهم حكم على الأمة فى أمر من الأمور . وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا — فذاك هوس فى الرءوس ، وهذيان فى النفوس ، لاحقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولدلها إسماعيل — اشتدت غيرة سارة منها ، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها و بولدها ، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم . و يقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا . فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما — قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه ، وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا ؟ فلم يجبها ، فلما ألحت عليه وهو لايجيبها قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت فإذاً لايضيعنا . وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبى زيد رحمه الله فى كتاب النوادر : أن سارة غضبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها ، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها ، وأن تخفضها ، فتبر قسمها . قال السهيلى : فكانت أول من اختتن من النساء ، وأول من ثقبت أذنها منهن ، وأول من طولت ذيلها .

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر — إلى جبال فاران وهى أرض مكة ، وبنائه البيت العتيق

قال البخارى : قال عبد الله بن محمد — هو أبو بكر بن أبى شيبة — حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة يزيد أحدهما على الآخر . عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق [1] من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم اسماعيل ، فقالت : ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت إذاً لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه — استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) [2] .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد مافى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يلتوى — أو قال يتلبط [3] فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا

---

(١) هو مايشد به الوسط . (٢) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

(٣) يتمرغ ويضرب : بلبه الأرض . وفى القاموس يتلبط — تحير واضطجع وتمرغ .

أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحـداً ؟ فلم تر أحـداً . فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : «فلذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : « صه » — تريد نفسها — ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قـد أسمعت إن كان عندك غواث[1] فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوّضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من المـاء فى سقائها وهو يفور بعـد ماتغرف . قال ابن عباس قال النبى ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم — أو قال : « لو لم تغرف من الماء لـكانت زمزم عيناً معيناً » . قال : فشربت وأرضعت ولدها . فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم[2] ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأو طائراً عائفاً[3] : فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى ومافيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين[4] فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأم إسمعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم . ولـكن لا حق لـكم فى الماء عندنا قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبى ﷺ : « فألفى ذلك أم إسمعيل وهى تحب الأنس »[5] فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجوه امرأة منهم .

وماتت أم إسمعيل ، فجاء إبراهيم بعد ماتزوج إسمعيل يطالع تركته فلم يجد إسمعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغـير عتبة بابه . فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم جاءنا شيخ كذا كذا فسألنـا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت نعم . أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ؛ وطلقها

(١) رواه الأكثرون بفتح الغين ، وبعضهم بالضم وبالكسر . (٢) ابن قحطان ، حى من اليمن .
(٣) أى يتردد على الماء ويحوم حوله . (٤) الجرى : الرسول والأجير ، والوكيل ؛ لأنه يجرى
(٥) أى فوجد ذلك الحى أم إسماعيل وهى تحب الأنس . روى بضم الهمزة وبكسرها .

وتزوج منهم أخرى ، ولبث عنهم إبراهيم ماشاء الله . ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل . فقال ماطعامكم ؟ قالت اللحم . قال فما شرابكم ؟ قالت الماء . قال : « اللهم بارك لهم فى اللحم والماء » .

قال النبى ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه » ؛ قال فهما لايخلو عليهما أحد[١] بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسمعيل قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم . أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال فأوصاك بشىء ؟ قالت نعم . هو يقرأ عليك السلام و يأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسمعيل يبرى نبلاله تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . ثم قال : ياإسمعيل إن الله أمرنى بأمر قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسمعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر[٢] فوضعه له . فقام عليه وهو يبنى وإسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

ثم قال : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان — خرج بإسمعيل وأم إسمعيل ، ومعهم شنة[٣] فيها ماء . وذكر تمامه بنحو ماتقدم . وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه ، وفى بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات . وفيه أن إسمعيل كان رضيعاً إذ ذاك . وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسمعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم ، وذلك بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر إسمعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة . وهذا امتثال لأمر الله عز وجل فى أهله ، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب . ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال ، كما هو مقرر فى موضعه .

وقد ثبت فى الحديث الذى رواه البخارى : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن

---

(١) أى لا يقتصر عليهما أحد . يقال خلا على بعض الطعام — اقتصر عليه .

(٢) هو الحجر الذى سمى بعد ذلك مقام إبراهيم .

(٣) الشنة والشن : القربة الخلق الصغيرة ، والجمع شنان .

القرشى عن أبى الزناد ، عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « اختتن إبراهيم النبى عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم[١] » . تابعه عبد الرحمن بن إسحق عن أبى الزناد ، وتابعه عجلان عن أبى هريرة ، ورواه محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة . وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به . وفى بعض الألفاظ : « اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم » . والقدوم هو الآلة ، وقيل موضع . وهذا اللفظ لا ينافى الزيادة على الثمانين . والله أعلم ؛ لما سيأتى من الحديث عند ذكر وفاته . عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . رواه ابن حبان فى صحيحه . وليس فى هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسمعيل . ولم يذكر فى قد مات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات : أو لاهن بعد أن تزوج إسمعيل بعد موت هاجر ، وكيف تركهم من حين صغر الولد — على ماذكر — إلى حين تزويجه لا ينظر فى حالهم . وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له . وقيل إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم ، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم فى غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة ؟ وكان بعض هذا السياق متلقى من الاسرائيليات ومطرز بشىء من المرفوعات ، ولم يذكر فيه قصة الذبيح . وقد دللنا على أن الذبيح هو إسمعيل على الصحيح فى سورة الصافات

قصة الذبيح

قال الله تعالى : (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ۞ رب هب لى من الصالحين ۞ فبشرناه بغلام حليم ۞ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ۞ فلما أسلما وتله للجبين ۞ وناديناه أن يا إبراهيم ۞ قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ۞ إن هذا لهو البلاء المبين ۞ وفديناه بذبح عظيم ۞ وتركنا عليه فى الآخرين ۞ سلام على إبراهيم ۞ كذلك نجزى المحسنين ۞ إنه من عبادنا المؤمنين ۞ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ۞ وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين[٢]) . يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه ، سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فبشره الله تعالى بغلام حليم ، وهو إسماعيل عليه السلام ؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل . وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل ؛ لأنه أول ولده وبكره . وقوله : (فلما بلغ معه السعى) أى شب وصار يسعى فى مصالحه كأبيه . قال مجاهد : (فلما بلغ معه السعى) أى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل . فلما كان هذا — رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا . وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعاً : « رؤيا الأنبياء وحى » قاله عبيد بن عمير أيضاً . وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله

---

(١) القدوم بالتشديد : قرية بالشام ، وبالتخفيف آلة النجار . (٢) الآيات : ٩٩ — ١١٣ من سورة الصافات

فى أن يذبح هذا الولد العزيز الذى جاءه على كبر ، وقد طعن فى السن ، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر ، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع . فامتثل أمر الله فى ذلك ، وتركها هناك ثقة بالله وتوكلا عليه ، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان .

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذى قد أفرده عن أمر ربه ، وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره — أجاب ربه وامتثل أمره ، وسارع إلى طاعته . ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ، (قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟) فبادر الغلام الحليم ، سر والده الخليل إبراهيم ، فقال : (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) . وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد . قال الله تعالى : (فلما أسلما وتله للجبين) قيل أسلما — أى استسلما لأمر الله وعزما على ذلك . وقيل هذا من المقدم والمؤخر . والمعنى : تله للجبين — أى ألقاه على وجهه . قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده فى حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك . وقيل بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقى طرف جبينه لاصقا بالأرض ، وأسلما — أى سمى إبراهيم وكبر ، وتشهد الولد للموت . قال السدى وغيره : أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً ، ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس . والله أعلم .

فعند ذلك نودى من الله عز وجل : (أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ، ومبادرتك إلى أمر ربك وبذلك ولدك للقربان — كما سمحت ببدنك للنيران ، وكما مالك مبذول للضيفان . ولهذا قال تعالى : (إن هذا لهو البلاء المبين) أى الاختبار الظاهر البين وقوله : (وفديناه بذبح عظيم) أى وجعلنا فداء ذبح ولده — ما يسره الله تعالى له من العوض عنه .

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين[1] أقرن[2] ، رآه مربوطاً بسمرة فى ثبير . قال الثورى عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً . وقال سعيد بن جبير : كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير ، وكان عليه عهن أحمر . وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه ، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبى حاتم . قال مجاهد : فذبحه بمنى ، وقال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا ، وعن الحسن أنه كان تيساً من الأروى — واسمه جرير — فلا يكاد يصح عنهما .

ثم غالب ماههنا من الآثار مأخوذ من الاسرائيليات . وفى القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر ، وأنه فدى بذبح عظيم ، وقد ورد فى الحديث أنه كان كبشاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ، وقالت

---

(١) عظيم سواد العين فى سعة (٢) أى له قرنان

مرة إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله ﷺ ؟ قال : قال لى رسول الله : « إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرها ، نخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى » . قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا . وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسمعيل ؛ لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحق لا نعلم أنه قدمها فى حال صغره . والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسمعيل ؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) . ومن جعله حالا فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحق إنما هو إسرائيليات . وكتابهم فيه تحريف ، ولا سيما ههنا قطعاً لامحيد عنه ؛ فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيده ، وفى نسخة من المعربة بكره إسحق ، فلفظة إسحق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة ؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر . إنما ذاك إسمعيل .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب ؛ فإن إسمعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ ، وإسحق والد يعقوب — وهو إسرائيل — الذين ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم — فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . وقد قال بأنه إسحق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه — والله أعلم — من كعب الأحبار ، أو من صحف أهل الكتاب ، وليس فى ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز . ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل — على أنه إسميل . وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظى على أنه إسمعيل وليس بإسحق — من قوله : (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) ، قال : فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يأمر بذبح إسحق وهو صغير قبل أن يولد له ؟ هذا لا يكون ؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم .

وقد اعترض السهيل على هذا الاستدلال بما حاصله : أن قوله : (فبشرناها بإسحق) — جملة تامة ، وقوله : (ومن وراء إسحاق يعقوب) — جملة أخرى ليست فى حيز البشارة . قال لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر ؛ فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو ، حتى يقال ومن بعده بعمر . وقال : فقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) — منصوب بفعل مضمر تقديره : (ووهبنا لإسحق يعقوب) . وفى هذا الذى قاله نظر . ورجح أنه إسحق ، واحتج بقوله : (فلما بلغ معه السعى) قال : وإسماعيل لم يكن عنده ، إنما كان فى حال صغره هو وأمه بجبال مكة ، فكيف يبلغ معه السعى ؟ وهذا أيضاً فيه نظر : لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب

فى كثير من الأوقاف راكباً البراق إلى مكة ، يطلع على ولده وابنه ثم يرجع . والله أعلم .

فمن حكى القول عنه بأنه إسحق كعب الأحبار . وروى عن عمر والعباس وعلى وابن مسعود ، ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ، وعطاء والشعبى ومقاتل وعبيد بن عمر ، وأبى ميسرة وزيد ابن أسلم وعبد الله بن شقيق ، والزهرى والقاسم وابن أبى بردة ومكحول ، وعثمان بن حاضر والسدى والحسن وقتادة ، وأبى الهذيل وابن سابط . وهو اختيار ابن جرير ، وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ولكن الصحيح عنه — وعن أكثر هؤلاء — أنه إسماعيل عليه السلام . قال مجاهد وسعيد والشعبى ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد — عن ابن عباس : هو إسماعيل عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن قيس عن عطاء بن أبى رياح عن ابن عباس أنه قال : المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه : هو إسماعيل . وقال ابن أبى حاتم سألت أبى عن الذبيح فقال : الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن على وابن عمر وأبى هريرة ، وأبى الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير والحسن ، ومجاهد والشعبى ومحمد بن كعب ، وأبى جعفر محمد بن على وأبى صالح — أنهم قالوا : الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . وحكاه البغوى أيضا عن الربيع بن أنس والكلبى وأبى عمرو بن العلاء . قلت : وروى عن معاوية ، وجاء عنه : أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : يا ابن الذبيحين ، فضحك رسول الله ﷺ . وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وكان الحسن البصرى يقول لا شك فى هذا .

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمى عن محمد بن كعب : إنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام — يعنى استدلاله بقوله بعد العصمة : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) — فقال له عمر : إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت . ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام ، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم . قال : فسأله عمر بن عبد العزيز : أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق ، لأن إسحق أبوهم . وقد ذكرنا هذه المسئلة مستقصاة بأدلتها وآثارها فى كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى : (و بشرناه بإسحق نبياً من الصالحين * و باركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) . وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم ، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى . قال الله تعالى : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما ، قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب * قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هـذا لشىء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله و بركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد[1]) . وقال تعالى : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال إنا منكم وجلون * قالوا لاتوجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ؟ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون[2]) . وقال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون ؟ * فأوجس منهم خيفة ، قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم[3]) .

يذكر تعالى : أن الملائكة — قالوا : «وكانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل» — لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافاً ، فعاملهم معاملة الضيوف ، وشوى لهم عجلا سميناً من خيار بقره ، فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام (فنكرهم) إبراهيم (وأوجس منهم خيفة ، قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) — أى لندمر عليهم ، فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم . وكانت قائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم . فلما ضحكت استبشاراً بذلك ، قال الله تعالى : (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) أى بشرتها الملائكة بذلك ، (فأقبلت امرأته فى صرة) أى فى صرخة (فصكت وجهها) أى كما يفعل النساء عند التعجب وقالت : (يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً) ، أى كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضاً ، وهذا بعلى — أى زوجى — شيخاً ؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه .

---

(١) الآيات : ٦٩ — ٧٣ من سورة هود . (٢) الآيات : ٥١ — ٥٦ من سورة الحجر .

(٣) الآيات : ٢٤ — ٣٠ من سورة الذاريات .

ولهذا قالت : (إن هذا الشيء عجيب ۞ قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) . وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحا بها ، (قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ؟ ۞ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) . أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه ، فبشروهما (بغلام عليم) ، وهو إسحق أخو إسماعيل . غلام عليم مناسب لمقامه و صبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر . وقال في الآية الأخرى : (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) . وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن إسحق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ — وهو المشوى — رغيفاً من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن . وعندهم أنهم أكلوا وهذا غلط محض . وقيل كانوا يودون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء . وعندهم أن الله تعالى قال لابراهيم : أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة ، وأبارك عليها وأعطيك منها ابنا ، وأباركه ، ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه . فخر إبراهيم على وجهه — يعنى ساجدا — وضحك قائلا في نفسه : أبعد مائة سنة يولد لي غلام ؟ أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة ؟ وقال إبراهيم لله تعالى : ليت إسماعيل يعيش قدامك ، فقال الله لإبراهيم : بحقي إن امرأتك سارة تلد لك غلاما وتدعو اسمه إسحق إلى مثل هذا الحين من قابل ، وأوثقه ميثاقي إلى الدهر ولخلفه من بعده . وقد استجبت لك في إسماعيل و باركت عليه وكبرته ونميته جداً كثيراً ، ويولد له اثنا عشر عظيما وأجعله رئيسا لشعب عظيم . وقد تكلمنا على هذا بما تقدم والله أعلم .

فقوله تعالى : (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب)— دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق ، ثم من بعده بولد ولده يعقوب . أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده . ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحق — فائدة . ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به و يسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله . وقال تعالى : (ووهبنا له إسحق و يعقوب كلا هديناه) ، وقال تعالى : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب[1]) وهذا إن شاء الله ظاهر قوى . و يؤيده ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال : قلت يارسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : «المسجد الأقصى » . قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » قلت ثم أي ؟ قال : « ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد » .

---

(١) من الآية : ٤٩ من سورة مريم .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله ، وهذا متجه . ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو — إسرائيل — عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء . وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحق ؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا ، قال فى دعائه كما قال تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ۞ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم ۞ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غيرى ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ۞ ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن ، ومايخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ۞ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء ۞ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء ۞ ربنا اغفر لى ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)(١) . وما جاء فى الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا كما ذكرناه عند قوله : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) ، وكما سنورده فى قصته — فالمراد من ذلك — والله أعلم — أنه جدد بناءه ؛ كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه . وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

ذكر بناية البيت العتيق

قال الله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئاً ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ۞ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق)(٢) وقال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين)(٣) وقال تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين ۞ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ۞ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ۞ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ۞ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا

---

(١) الآيات : ٣٥ — ٤٣ من سورة إبراهيم (٢) الآيتان : ٢٦ — ٢٧ من سورة الحج
(٣) الآيتان : ٩٦ — ٩٧ من سورة آل عمران .

وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم)[١] .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم : أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس ، يعبدون الله فيه . وبوأه الله مكانه ـ أى أرشده إليه ودله عليه . وقد روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وغيره : أنه أرشد إليه بوحى من الله عز وجل . وقد قدمنا فى صفة خلق السموات : أن الكعبة بحيال البيت المعمور ، بحيث أنه لو سقط لسقط عليها ، وكذلك معابد السموات السبع ؛ كما قال بعض السلف : إن فى كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء ، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض . فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ـ أن يبنى له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات . وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له ، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبت فى الصحيحين : أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . ولم يجىء فى خبر صحيح عن معصوم ـ أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك فى هذا بقوله : (مكان البيت) ـ فليس بناهض ولا ظاهر ؛ لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله ، المقرر فى قدرته ، المعظم عند الأنبياء موضعه ، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم .

وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة ، وأن الملائكة قالوا له : قد طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك . ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل . وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها ، فأما إن ردها الحق فهى مردودة . وقد قال الله : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) . أى أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى ـ البيت الذى ببكة . قيل مكة ، وقيل محل الكعبة . (فيه آيات بينات) أى على أنه بناء الخليل ، والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده ، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته . ولهذا قال : (مقام إبراهيم) أى الحجر الذى كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ؛ ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء . كما تقدم فى حديث ابن عباس الطويل .

وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة ، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأخره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت . واتبع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى هذا ؛ فإنه قد وافقه ربه فى أشياء : منها قوله لرسوله ﷺ : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) . وقد كانت آثار قدمى الخليل باقية فى الصخرة إلى أول الإسلام . وقد قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة .

---

(١) الآيات : ١٢٤ ـ ١٢٩ من سورة البقرة .

وثور [١] ومن أرسى ثبيراً [٢] مكانه ... وراقٍ لبرٍّ [٣] فى حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافـل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذ ا كتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

يعنى أن رجله الكريمة غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لامنتعلة . ولهذا قال تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) أى فى حال قولهما : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) فهما فى غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل ، وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ماهما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور . (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع ، فى واد غير ذى زرع . ودعا لأهلها بالبركة ، وأن يرزقوا من الثمرات ، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار ، وأن يجعله حرما محرماً وآمناً محتما . فاستجاب الله ـ وله الحمد ـ له مسألته ، ولبى دعوته ، وأتاه طلبته ، فقال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ؟ [٤]) وقال تعالى : (أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟) . وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم ـ أى من جنسهم ، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة ؛ لتتم عليهم النعمتان : الدنيوية والدينية ، سعادة الأولى والأخرى .

وقد استجاب الله له : فبعث فيهم رسولا وأى رسول . ختم به أنبياءه ورسله ، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله ، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ؛ فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء ، لشرفه فى نفسه وكمال ما أرسل به ، وشرف بقعته وفصاحة لغته ، وكمال شفقته على أمته ، ولطفه ورحمته ، وكريم محتده وعظيم مولده ، وطيب مصدره ومورده . ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض — أن يكون منصبه ومحله وموضعه ، فى منازل السموات ورفيع الدرجات ، عند البيت المعمور : الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور : الذى يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور . وقد ذكرنا فى التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت ، وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية . فمن أراده فليراجعه ثم . ولله الحمد .

---

(١) جبل بمكة فيه الغار المذكور فى القرآن (٢) جبل قرب مكة فى طريق الذاهب إلى عرفة (٣) البر : الحج والطاعة والخير
(٤) من الآية : ٦٧ من سورة العنكبوت .

فمن ذلك ما قال السدى : لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت – لم يدريا أين مكانه ، حتى بعث الله ريحاً يقال له الخجوج[١] لهاجناحان ورأس فى صورة حية ، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول ، وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس . وذلك حين يقول تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) ، فلما بلغا القواعد وبنيا الركن ، قال إبراهيم لإسماعيل : يا بنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعامة . وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس ، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال : يا أبتى من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك ، فبنيا وهما يدعوان الله : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) . وذكر ابن أبى حاتم أنه بناه من خمسة أجبل ، وأن ذا القرنين – وكان ملك الأرض إذ ذاك – مر بهما وهما يبنيانه فقال : من أمركما بهذا ؟ فقال إبراهيم : الله أمرنا به . فقال : وما يدرينى بما تقول ؟ فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق . وذكر الأزرقى : أنه طاف مع الخليل بالبيت .

وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة ، ثم بعد ذلك بنتها قريش ، فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلى الشام على ما هى عليه اليوم . وفى الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم : أن عبد الله بن محمد بن أبى بكر أخبر عن ابن عمر عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : « ألم ترَىْ أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ » فقلت يارسول الله : ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : « لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » . وفى رواية « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية — أو قال بكفر — لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر » .

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله فى أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين — كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه . فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامى وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار فى جوف الكعبة ، فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية ، كما هو مشاهد إلى اليوم . ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين – ندموا على ما فعلوا ، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك . ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور – استشار الإمام مالك بن أنس فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير فقال له : إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة — يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد — فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

---

(١) الخجوج : الريح الشديدة المر ، أو المتلوية فى هبوبها .

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماماً ، قال ومن زريتى ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين) . لما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة — جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه . وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه ، وباقية فى نسبه ، وخالدة فى عقبه — فأجيب إلى ما سأل ورام ، وسلمت إليه الإمامة بزمام ، واستثنى من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون . كما قال تعالى : (ووهبنا له إسحق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين[١]) . وقال تعالى : (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين ۞ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ۞ وإسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ۞ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم[٢]) . فالضمير فى قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور . ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل فى الذرية تغليبا ، وهذا هو الحامل للقائل الآخر — أن الضمير على نوح كما قدمنا فى قصته . والله أعلم . وقال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب...[٣]) . الآية . فكل كتاب أنزل من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل — فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهى ، ومرتبة علية لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان : إسمعيل من هاجر ، ثم إسحق من سارة . وولد لهذا يعقوب — وهو إسرائيل — الذى ينتسب إليه سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذى بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة ، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بنى إسرائيل .

وأما إسمعيل عليه السلام ، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ؛ كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى . ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم ، وفخر بنى آدم فى الدنيا والآخرة : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى ، المكى ثم المدنى . صلوات الله وسلامه عليه . فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف — سوى هذه الجوهرة الباهرة ، والدرة الزاهرة ، وواسطه العقد الفاخرة ، وهو السيد الذى يفتخر به أهل الجمع ، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة . وقد ثبت عنه فى صحيح مسلم كما سنورده أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق كلهم

---

(١) الآية : ٢٧ من سورة العنكبوت (٢) الآيات : ٨٤ — ٨٧ من سورة الأنعام .
(٣) الآية : ٢٦ من سورة الحديد .

حتى إبراهيم » . فمدح إبراهيم أباء مدحة عظيمة فى هذا السياق ، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق ، فى هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بهما إسمعيل وإسحق : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »[١] ورواه أهل السنن من حديث منصور به : وقال تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى . ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم)[٢] . ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها فى التفسير . وقررناها بأتم تقرير .

والحاصل أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل : فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور . واختلفوا فى تعيينها على أقوال ، والمقصود حاصل على كل تقدير ؛ فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ، ويخلط ذلك بعضه فى بعض ، ثم يقسمه قسما ويجعل على كل جبل منهن جزأ ـ ففعل ما أمر به . ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه ، وكل ريشة تأتى إلى أختها ، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه ، وهو ينظر إلى قدرة الذى يقول للشىء كن فيكون . فأتين إليه سعياً ؛ ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته ، من أن يأتين طيراناً .

ويقال إنه أمر أن يأخذ رءوسهن فى يده ، فجعل كل طائر يأتى فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان ، فلا إله إلا الله . وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله . وقال تعالى : (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ✲ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ؟ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ✲ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين)[٣] ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى دعوى كل من الفريقين ـ كون الخليل على ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منهم ، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى قوله : (وما أنزلت التوراة والإنجيل

---

(١) العين اللامة : هى العين التى تصيب بسوء ، أو هى كل ما يخاف من فزع وشر .

(٢) الآية : ٢٦٠ من سورة البقرة .   (٣) الآيات : ٦٥ ـ ٦٨ من سورة آل عمران .

إلا من بعده)، أى فكيف يكون على دينكم ؟ وأنتم إنما شرع لكم ماشرع بعده بمدد متطاولة ؟ ولهذا قال : (أفلا تعقلون) إلى أن قال : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) . فبين أنه كان على دين الله الحنيف : وهو القصد إلى الإخلاص ، والانحراف عمداً عن الباطل إلى الحق الذى هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية ، كما قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون * تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون * وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم * صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون * قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون * أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون)[1] . فنزه الله عزوجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وبين أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين . ولهذا قال تعالى : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) يعنى الذين كانوا على ملته من أتباعه فى زمانه ، ومن تمسك بدينه من بعدهم . (وهذا النبى) يعنى محمداً ﷺ . فإن الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل ، وكمله الله تعالى له ، وأعطاه مالم يعط نبياً ولا رسولا من قبله ، كما قال تعالى : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[2] وقال تعالى : *(إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين[3] .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن

---

(١) الآيات : ١٣٠ — ١٤٠ من سوره البقرة

(٢) الآيات : ١٦١ — ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآيات : ١٢٠ ـ ١٢٣ من سورة النحل .

عباس أن النبي ﷺ لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت . ورأى إبراهيم و إسمعيل بأيديهما الأزلام فقال : «قاتلهم الله ، والله إن [1] استقسما بالأزلام قط » لم يخرجه مسلم . وفى بعض ألفاظ البخارى : «قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط» . وقوله : (أمة) أى قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير ، يقتدى به فيه ، (قانتاً لله) أى خاشعاً له فى جميع حالاته وحركاته وسكناته ، (حنيفاً) أى مخلصاً على بصيرة ، (ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه) أى قائماً بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ، (اجتباه) أى اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته ، واتخذه خليلا ، وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة . قال تعالى : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا [2]) يرغب تعالى فى اتباع إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم ، وقد قام بجميع ماأمره به ربه ، ومدحه تعالى بذلك فقال : (و إبراهيم الذى وفى) ، ولهذا اتخذه الله خليلا ، والخلة هى غاية المحبة كما قال بعضهم :

قد تخللت مسلك الروح منى   وبذا سمى الخليل خليلا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلى وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أيها الناس ، إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » . وقال أيضاً فى آخر خطبة خطبها : « أيها الناس لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » . أخرجاه من حديث أبى سعيد ، وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود . وروى البخارى فى صحيحه : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال : إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم إبراهيم .

وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم ، حدثنا إسمعيل بن أحمد بن أسيد ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى بمكة ، حدثنا عبد الله الحنفى ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة ابن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم و إذا بعضهم يقول : عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلا ! فإبراهيم خليله ، وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما ، وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال : « قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى كليمه وهو كذلك ، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ،

---

(١) « إن » نافية بمعنى « ما » . أى والله ما استقسما بالأزلام قط (٢) الآية : ١٢٥ من سورة النساء .

وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . ألا و إنى حبيب الله ولا فخر ، ألا و إنى أول شافع ، وأول مشفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر » . هـذا حديث غريب من هـذا الوجه ، وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم .

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم ؟ والكلام لموسى ؟ والرؤية لمحمد ؟ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمود بن خالد المسلمى ، حدثنا الوليد عن إسحاق بن بشار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى فى قلبه الوجل ، حتى إن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد ، كما يسمع خفقان الطير فى الهواء . وقال عبيد بن عمير : كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس ، فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه ، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائماً ، فقال : ياعبد الله ماأدخلك دارى بغير إذنى ؟ قال دخلتها بإذن ربها . قال ومن أنت ؟ قال أنا ملك الموت ، أرسلنى ربى إلى عبد من عباده، أبشره بأن الله قد اتخذه خليلا . قال من هو ؟ فوالله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتيته ، ثم لا أبرح له جاراً ، حتى يفرق بيننا الموت . قال :ذلك العبد أنت .قال أنا ! قال نعم . قال فيم اتخذنى ربى خليلا ؟ قال بأنك تعطى الناس ولا تسألهم . رواه ابن أبى حاتم .

وقد ذكره الله تعالى فى القرآن كثيراً فى غير ما موضع ـ بالثناء عليه والمدح له ، فقيل : إنه مذكور فى خمسة وثلاثين موضعاً ، منها خمسة عشر فى البقرة وحدها . وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء فى آيتى الأحزاب والشورى ، وهما قوله تعالى : (و إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) ، وقوله : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . .) الآية . ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد ﷺ . وهو الذى وجده عليه السلام فى السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لايعودون إليه آخر ماعليهم . وما وقع فى حديث شريك ابن أبى نمير عن أنس فى حديث الإسراء ؛ من أن إبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة + فمما انتقد على شريك فى هذا الحديث . والصحيح الأول .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم — يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن » . تفرد به أحمد . ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى —

الحديث الذى قال فيه : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم » . رواه مسلم من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه . وهذا هو المقام المحمود الذى أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » . ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » الحديث . وهكذا رواه البخارى فى مواضع أخر ، ومسلم والنسائى من طريق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله — وهو ابن عمر — العمرى به .

قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبيد الله ، حدثنى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة قال : قيل يارسول الله من أكرم الناس ؟ قال : « أكرمهم أتقاهم » فقالوا ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن نبى الله ابن خليل الله » . قالوا ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادن العرب تسألونى ؟ » قالوا نعم . قال : « فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا » . ثم قال البخارى : قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله عن سعيد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . قلت : وقد أسنده فى موضع آخر من حديثهما ، وحديث عبدة بن سليمان والنسائى من حديث محمد بن بشر — أربعتهم عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . وقال أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله » تفرد به أحمد . وقال البخارى : حدثنا عبدة ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم » . تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن سفيان ، حدثنى مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ : « يحشر الناس حفاة عراة عزلا ، فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام » ثم قرأ : (كما بدأنا أول خلق نعيده) — فأخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج ، كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعى الكوفى ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به . وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضى الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها ؛ مما ثبت لصاحب المقام المحمود ، الذى يغبطه به الأولون والآخرون . وأما الحديث الآخر الذى قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وأبو نعيم ، حدثنا سفيان — هو الثورى — عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال : قال رجل للنبى ﷺ : ياخير البرية فقال : « ذاك إبراهيم » — فقد رواه مسلم من حديث الثورى وعبد الله بن إدريس ، وعلى بن مسهر ومحمد بن فضيل — أربعتهم عن المختار بن فلفل . وقال الترمذى حسن صحيح . وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال : « لاتفضلونى على الأنبياء » . وقال :

« لاتفضلونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور ؟ » . وهذا كله لاينافى ما ثبت بالتواتر عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة . وكذلك حديث أبى بن كعب فى صحيح مسلم : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم » .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم — بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — أمر المصلى أن يقول فى تشهده ؛ ما ثبت فى الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره ، قال : قلنا يارسول الله ، هذا السلام عليك قد عرفناه . فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وقال تعالى : (و إبراهيم الذى وفى) ، قالوا : وفى جميع ما أمر به ، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه . وكان لايشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ، ولاينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار . قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس فى قوله تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) — قال : ابتلاه الله بالطهارة : خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد . فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والسواك ، والاستنشاق ، وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الأبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن أبى حاتم . وقال : وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبى والنخعى وأبى صالح وأبى الجلد ـ نحو ذلك . قلت : وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « الفطرة خمس : الختان ، والاستحداد [1] ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الأبط » . وفى صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكيع عن زكريا بن أبى زائدة عن مصعب بن شيبة العبدرى المكى الحجبى عن طلق بن حبب العترى عن عبد الله بن الزبير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم [2] ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ـ يعنى الاستنجاء » . وسيأتى فى ذكر مقدار عمره الكلام على الختان . والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لايشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة — عن مراعاة مصلحة بدنه ، وإعطاء كل عضو مايستحقه من الإصلاح والتحسين ، و إزالة مايشين ؛ من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح [3] أو وسخ . فهذا من جملة قوله تعالى فى حقه من المدح العظيم : (وإبراهيم الذى وفى) .

ذكر قصره فى الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطى ومحمد بن موسى القطان قالا :

---

(١) حلق شعر العانة (٢) جمع برجمة ، وهى مفاصل الأصابع من ظهر الكف . (٣) صفرة الأسنان .

حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة قصرا ـ أحسبه قال من لؤلؤة ـ ليس فيه فصم ولا وهى ، أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا » . قال البزار : وحدثنا أحمد بن جميل المروزى ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه ، ثم قال : وهذا الحديث لا نعلم من رواه عن حماد بن سلمة فأسنده — إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل . وغيرهما يرويه موقوفاً . قلت : لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح . ولم يخرجوه .

ذكر صفة إبراهيم « عليه السلام »

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس وحجين قالا : حدثنا الليث عن أبى الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عُرِض علىّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً ـ عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً ـ دحية » . تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ . وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن عثمان ـ يعنى ابن المغيرة ـ عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم ؛ فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم » . قالوا له : فإبراهيم ؟ قال : « انظروا إلى صاحبكم ـ يعنى نفسه » . وقال البخارى : حدثنا بنان بن عمرو ، حدثنا النضر أنبأنا ابن عون عن مجاهد أنه سمع ابن عباس ، وذكروا له الدجال وأنه مكتوب بين عينيه كافر و « ك ف ر » ، فقال لم أسمعه[1] ، ولكنه قال : قال ﷺ : « أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبة[2] كأنى أنظر إليه انحدر فى الوادى » . ورواه البخارى أيضاً ومسلم عن محمد بن المثنى عن ابن أبى عدى عن عبد الله بن عون به . وهكذا رواه البخارى أيضاً فى كتاب الحج وفى اللباس ، ومسلم ـ جميعاً عن محمد بن المثنى عن ابن أبى عدى عن عبد الله بن عون به .

ذكر وفاة إبراهيم الخليل وما قيل فى عمره

ذكر ابن جرير فى تاريخه : أن مولده كان فى زمن النمرود بن كنعان ، وهو ـ فيما قيل ـ الضحاك الملك المشهور ، الذى يقال إنه ملك ألف سنة ، وكان فى غاية الغشم والظلم . وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام ، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا . وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر ، فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود ، فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك ، فقالوا : يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يديه ، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء ، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين ، فكان مولد إبراهيم الخليل فى ذلك الحين ، فحماه الله

---

(١) الذى فى البخارى : عن محمد بن المثنى عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال : إنه مكتوب بين عينيه كافر ، وقال ابن عباس لم أسمعه ، قال ذلك ولكنه قال : أما إبراهيم ... لخ (٢) حبل من ليف .

عز وجل وصانه من كيد الفجار ، وشب شباباً باهراً وأنبته الله نباتاً حسناً ، حتى كان من أمره ما تقدم .

وكان مولده بالسوس ، وقيل ببابل ، وقيل بالسواد من ناحية كُوثَى [١] . وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقى دمشق ، فلما أهلك الله نمرود على يديه ــ هاجر إلى حران ، ثم إلى أرض الشام ، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا . وولد له إسماعيل وإسحق . وماتت سارة قبله بقرية « حبرون » التى فى أرض كنعان ، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب ، فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ، ورثاها رحمها الله ، واشترى من رجل من بنى حيث يقال له « عفرون بن صخر » ــ مغارة بأربع مائة مثقال ، ودفن فيها سارة هنالك .

قالوا ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحق فزوجه « رفقا » بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح ، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل ، قالوا : ثم تزوج إبراهيم عليه السلام « قنطورا » فولدت له : زمران ، ويقشان ، ومادان ، ومدين ، وشياق ، وشوح . وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا .

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف ، عن أخبار أهل الكتاب فى صفة مجىء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام — أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها . وقد قيل إنه مات فجأة ، وكذا داود وسليمان . والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك . قالوا : ثم مرض إبراهيم عليه السلام ، ومات عن مائة وخمس وسبعين ، وقيل وتسعين سنة ، ودفن فى المغارة المذكورة التى كانت بحبرون الحيثى ، عند امرأته سارة التى فى مزرعة عفرون الحيثى ، وتولى دفنه إسمعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقد ورد مايدل على أنه عاش مائتى سنة كما قاله ابن الكلبى . وقال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه : أنبأنا المفضل بن محمد الجندى بمكة ، حدثنا على بن زياد اللخمى ، حدثنا أبو قرة عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . وقد رواه الحافظ بن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمرى عن يحيى بن سعيد عن سعيد عن أبى هريرة موقوفاً .

ثم قال ابن حبان : ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر — وهم . أخبرنا محمد بن عبد الله ابن الجنيد [٢] حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث عن ابن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اختتن إبراهيم حين بلغ مائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، واختتن بقدوم » . وقد رواه الحافظ بن عساكر من طريق يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن أبيه عن

---

(١) موضع بسواد العراق .

(٢) الذى فى ترجمة قتيبة بن سعيد : أن ممن روى عنه : محمد بن عبد الله بن نمير ، وليس غيره مسمى بهذا الاسم .

أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه سلم وقد أتت عليه ثمانون سنة . ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنه قال : القدوم اسم القرية . قلت : الذى فى الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة . وفى رواية وهو ابن ثمانين سنة ، وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم . وقال محمد بن إسماعيل الحسانى الواسطى ـ زاد فى تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات ـ حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريره قال : كان إبراهيم أول من تسرول ، وأول من فرق ، وأول من استحد وأول من اختتن بالقدوم ، وهو ابن عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، وأول من قرى الضيف ، وأول من شاب . هكذا رواه موقوفاً . وهو أشبه بالمرفوع خلافاً لابن حبان . والله أعلم .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال : كان إبراهيم أول من أضاف الضيف ، وأول الناس اختتن ، وأول الناس قص شاربه ، وأول الناس رأى الشيب . فقال يارب ماهذا ؟ فقال الله : «وقار» . فقال يارب زدنى وقاراً . وزاد غيرهما : وأول من قص شاربه ، وأول من استحد ، وأول من لبس السراويل . فقبره وقبر ولده إسحق وقبر ولد ولده يعقوب — فى المربعة التى بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون ، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم . وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل من زمن بنى إسرائيل ، وإلى زماننا هذا ـ أن قبره بالمربعة تحقيقاً . فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم . فينبغى أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها ، وأن تبجل وأن تجل أن يداس فى أرجائها ، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام — تحتها . وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبه قال : وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة .

ألهى جهولا أمله يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وكيف يبقى آخر من مات عنه أوله
والمرء لا يصحبه فى القبر إلا عمله

ذكر أولاد إبراهيم الخليل

أول من ولد له : إسماعيل من هاجر القبطية المصرية ، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل . ثم تزوج بعدها «قنطورا» بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة : مدين ، وزمران ، وسرج ، ويقشان ، ونشق ، ولم يسم السادس . ثم تزوج بعدها «حجون» بنت أمين ، فولدت له خمسة : كيسان ، وسورج ، وأميم ، ولوطان ونافس . هكذا ذكره أبو القاسم السهيلى فى كتابه : « التعريف والأعلام »

ومما وقع فى حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة : قصة قوم لوط عليه السلام ، وما حل بهم من

النقمة العميمة . وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح ـ وهو آزر كما تقدم ـ ولوط ابن أخى إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا . ويقال إن هاران هذا هو الذى بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته لما بأيدى أهل الكتاب والله أعلم .

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه ، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر ، وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها . ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية ، وأرداهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكران من العالمين ، وترك ماخلق الله من النسوان لعباده الصالحين . فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له ، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات ، والفواحش المنكرات ، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم من البأس الذى لايرد مالم يكن فى خلدهم وحسبانهم ، وجعلهم مثلة فى العالمين ، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين . ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم فى غير ماوضع فى كتابه المبين . فقال تعالى فى سورة الأعراف : (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين[1]) .

وقال تعالى فى سورة هود : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً ، قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب * قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشىء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد * فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود * ولما جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟ * قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد * قالوا يالوط إنا رسل ربك لن

(١) الآيات : ٨٠ — ٨٤ .

يصلوا إليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟ * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد[١]) .

وقال تعالى فى سورة الحجر : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون * قالوا لاتوجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ؟ * قالوا بشرناك بالحق فلاتكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون * قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين * فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وآتيناك بالحق و إنا لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين * وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * * فجعلناها عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن فى ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن فى ذلك لآية للمؤمنين[٢]) وقال تعالى فى سورة الشعراء : (كذبت قوم لوط المرسلين * * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين * قال إنى لعملكم من القالين * رب نجنى وأهلى مما يعملون * فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم[٣]) .

وقال تعالى فى سورة النمل : (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين[٤]) .

وقال تعالى فى سورة العنكبوت : (ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من

---

(١) الآيات : ٦٩ — ٨٣ (٢) الآيات : ٥٠ — ٧٧ (٣) الآيات : ١٦٠ — ١٧٥ .
(٤) الآيات : ٥٤ — ٨٥ .

أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرنى على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون)(١) .

وقال تعالى فى سورة الصافات : (وإن لوطاً لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً فى الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون)(٢) .

وقال تعالى فى الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم : (قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين * فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين * وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم)(٣) .

وقال فى سورة القمر : (كذبت قوم لوط بالنذر * إنا أرسلنا إليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر * نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر * فذوقوا عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)(٣) .

وقد تكلمنا على هذه القصص فى أماكنها من هذه السور فى التفسير . وقد ذكر الله لوطاً وقومه فى مواضع أخر من القرآن ؛ تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود . والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم ، وما أحل الله بهم — مجموعاً من الآيات والآثار . وبالله المستعان .

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطى ما ذكر الله عنهم من الفواحش — لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به ، حتى ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركوا ما عنه نهوا . بل استمروا على حالهم ، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم . وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم — إذ كانوا لا يعقلون — إلا أن قالوا : (أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضى الإخراج . وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج ، فطهره الله وأهله إلا امرأته ، وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم فى محلتهم خالدين . لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج . لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج ،

---

(١) الآيات : ٢٨ — ٣٥ (٢) الآيات : ١٣٣ — ١٣٨

(٣) الآيات : ٣١ — ٣٧ (٤) الآيات : ٣٣ — ٤٠

وبحر يتوهج ، وماؤها ملح أجاج . وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التى لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا . ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها .

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويأتون فى ناديهم — وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم — المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه . حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم ، ولا يستحيون من مُجالسهم ، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ولا يستنكفون ، ولا يرعون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل . وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ، ولم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر ، ولا ندموا على ما سلف من الماضى ، ولا راموا فى المستقبل تحويلا ، فأخذهم الله أخذا وبيلا . وقالوا له فيما قالوا : (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) . فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم ، وحلول البأس العظيم . فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم ، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين — أن ينصره على القوم المفسدين . فغار الله لغيرته ، وغضب لغضبته ، واستجاب لدعوته ، وأجابه إلى طلبته . وبعث رسله الكرام ، وملائكته العظام ، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم . وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم . (قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين) . وقال : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) . وقال الله تعالى : (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) . وذلك أنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا ، ولهذا قال تعالى : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب * ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) — أى أعرض عن هذا وتكلم فى غيره ؛ فإنه قد حتم أمرهم ، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ، (إنه قد جاء أمر ربك) — أى قد أمر به من لا يرد أمره ، ولا يرد بأسه ، ولا معقب لحكمه . (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) .

وذكر سعيد بن جبير والسدى وقتادة ومحمد بن إسحق : أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا لا . قال فمائتا مؤمن ؟ قالوا لا . قال فأربعون مؤمناً ؟ قالوا لا . قال فأربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا لا . قال ابن إسحاق — إلى أن قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا . (قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ..) الآية . وعند أهل الكتاب أنه قال : يارب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحاً ؟ فقال الله : « لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحاً » . ثم تنازل إلى عشرة فقال الله : « لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون » . قال الله تعالى : (ولما جاءت

رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب) . قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم — وهم جبريل وميكائيل و إسرافيل — أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم ، فى صور شبان حسان ، اختباراً من الله تعالى لقوم لوط و إقامة للحجة عليهم . فاستضافوا لوطاً ـ عليه السلام ـ وذلك عند غروب الشمس ، نخشى إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره ، وحسبهم بشراً من الناس ، و (سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال هذا يوم عصيب) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد ابن إسحاق : شديد بلاؤه ، وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم فى غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لايضيف أحداً ، ولكن رأى من لايمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة : أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها ، فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرّض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية و ينزلون فى غيرها ، فقال لهم فيما قال : ياهؤلاء ماأعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلا ، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أمروا أن لايهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأتوها نصف النهار . فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان : اسم الكبرى « ريثا » ، والصغرى «زغرتا» . فقالوا لها ياجارية ، هل من منزل ؟ فقالت لهم : نعم . مكانكم لاتدخلوا حتى آتيكم ، فرقت عليهم من قومها ، فأتت أباها فقالت : ياأبتاه ! أرادك فتيان على باب المدينة ، مارأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم ، لايأخذهم قومك فيفضحوهم . وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا ، فقالوا : خل عنا فلنضف الرجال ، فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فقالت : إن فى بيت لوط رجالا مارأيت مثل وجوههم قط ، فجاءه قومه يهرعون إليه . وقوله : (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) — أى هذا مع ماسلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ، (قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) . يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً ؛ لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، كما ورد فى الحديث ، وكما قال تعالى : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم[١]) وفى قول بعض الصحابة والسلف : وهو أب لهم . وهذا كقوله : (أتأتون الذكران من العالمين ۞ وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون[٢]) . وهذا هو الذى نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق ، وهو الصواب .

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب ، وقد تصحف عليهم ، كما أخطأوا فى قولهم : إن الملائكة كانوا اثنين ، و إنهم تعشوا عنده . وقد خبط أهل الكتاب فى هذه القصة تخبيطاً عظيماً .

(١) من الآية : ٥ من سورة الأحزاب (٢) الآيتان : ١٦٥ ، ١٦٦ من سورة الشعراء .

وقوله : (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟) — نهى لهم عن تعاطى مالا يليق من الفاحشة ، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة[١] ولا فيه خير ، بل الجميع سفهاء ، فجرة أقوياء ، كفرة أغبياء . وكان هـذا من جملة ماأراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه — عليهم لعنة الله الحميد المجيد — مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد : (لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد) . يقولون — عليهم لعائن الله — لقد علمت يالوط أنه لا أرب لنا فى نسائنا ، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا . واجهوا بهـذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ، ولم يخافوا سطوة العظيم ، ذى العذاب الأليم . ولهـذا قال عليه السلام : (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) . ودأن لو كان له بهم قوة ، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ، ليحل بهم مايستحقونه من العذاب على هذا الخطاب .

وقد قال الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعاً : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى» . ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبىهريرة . وقال محمد بن عمرو بن علقمة عنأبى سلمة عن أبى هريرة إن رسول الله ﷺ قال : «رحمة الله على لوط ، إن كان ليأوى إلى ركن شديد — يعنى الله عز وجل — فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه » . وقال تعالى : (وجاء أهل المدينة يستبشرون ۞ قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ۞ واتقوا الله ولا تخزون ۞ قالوا أو لم ننهك عن العالمين۞ قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) . فأمرهم بقربان نسائهم ، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم . هذا وهم فى ذلك لاينتهون ولا يرعوون ، بل كلما نهاهم يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون . ولم يعلموا ماحم به القدر مما هم إليه صائرون . وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون . ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) ، وقال تعالى : (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ۞ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ۞ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر)[٢] .

ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبى الله لوطا عليه السلام — جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب ، وكل ما لهم فى الجاج والعاج[٣] ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال : (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) —

---

(١) المسكة بلضم ــ العقل الوافر (٢) الآيات من سورة القمر .

(٣) الجاج والعاج جمعا جاجة وعاجة . والجاجة : خرزة وضيعة لاقيمة لهـا . والعاجة : الذبلة، والمراد المجادلة الرخيصة التى لا فائدة فيهاولا نتيجة لها .

لأحللت بكم النكال. قالت الملائكة: (يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) . وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم ، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم ، حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ، ويتوعدون رسول الرحمن ، ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن. قال الله تعالى : (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ۞ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر)[١] . فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط — عليه السلام — آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل. (ولا يلتفت منكم أحد) ، يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه . وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم . وقوله : (إلا امرأتك) على قراءة النصب : يحتمل أن يكون مستثنى من قوله : (فأسر باهلك) كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها ، ويحتمل أن يكون من قوله : (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . و يقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ، ولكن الأول أظهر فى المعنى والله أعلم .

قال السهيلى : واسم امرأة لوط « والهة » ، واسم امرأة نوح « والغة » . وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة ، الملعونين النظراء والأشباه ، الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب : (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) فلما خرج لوط عليه السلام بأهله ـ وهم ابنتاه ـ لم يتبعه منهم رجل واحد ، و يقال إن امرأته خرجت معه فالله أعلم . فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها — جاءهم من أمر الله ما لا يرد ، ومن البأس الشديد مالا يمكن أن يصد .

وعند أهل الكتاب : أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده ، وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم ، فقالوا اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ، ثم نحل بهم العذاب . فذكروا أنه ذهب إلى قرية « صوعر »[٢] التى يقول الناس : غور زغر ، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب . قال الله تعالى : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود ۞ مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) . قالوا اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن — وكن سبع مدن — بمن فيهن من الأمم . فقالوا إنهم كانوا أربع مائة نسمة ، وقيل أربعة آلاف نسمة ، وما معهم من الحيوانات ، ومايتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن والمعتملات . فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها . قال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) . والسجيل فارسى معرب وهو الشديد الصلب القوى[٣] . (منضود) أى يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم من السماء . (مسومة) أى معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه ، كما قال : (مسومة عند ربك للمسرفين) . وكما قال تعالى : (وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) ،

(١) سورة القمر (٢) معناها : الصغيرة (٣) الذى بالقاموس واللسان : السجيل كأمير : الصلب الشديد . وكسكيث : حجارة كالمدر ، وقيل من طين . وقيل سجيل بمعنى سجين : أى أنها حجارة مما كتب الله أن يعذبهم بها .

وقال تعالى : (والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى) يعنى قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها ، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل ، متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه ؛ من الحاضرين منهم فى بلدهم ، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ، ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة ـ التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً ، وقالت : واقوماه ! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها ؛ إذ كانت على دينهم ، وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان . كما قال تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين)[١] أى خانتاهما فى الدين ؛ فلم يتبعاهما فيه . وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة ـ حاشا وكلا ولما ـ ؛ فإن الله لايقدر على نبى قط أن تبغى امرأته ، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف : مابغت امرأة نبي قط . ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً .

قال الله تعالى فى قصة الإفك ـ لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قال لها أهل لإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ، ووعظ وحذر ـ قال فيما قال : (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم)[٢] أى سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة . وقوله هنا : (وماهى من الظالمين ببعيد) — أى وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم فى فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم ، سواء كان محصنا أولا . نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة . واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، لقوله تعالى : (وماهى من الظالمين ببعيد) . وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة[٣] لاينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها ؛ لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة ، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته ، وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره ، وكذب رسله ، واتبع هواه وعصى مولاه . ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين فى إنجائه إياهم من المهلكات ، وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات ، كما قال تعالى : (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

---

(١) سورة التحريم (٢) سررة النور . (٣) هي المعروفة الآن بالبحر الميت .

وقال تعالى : (فأخذتهم الصيحة مشرقين ☆ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ☆ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ☆ وإنها لبسبيل مقيم ☆ إن فى ذلك لآية للمؤمنين [١]) ، أى من نظر بعين الفراسة والتوسم — فَهِمَ ، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها ؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة — هالكة غامرة ؟ كما روى الترمذى وغيره مرفوعاً : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) . وقوله : (وإنها لبسبيل مقيم) أى لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن . كما قال : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ☆ وبالليل أفلا تعقلون) . وقال تعالى : (ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون) . وقال تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ☆ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ☆ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم [٢]) — أى تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ، وخشى الرحمن بالغيب ، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه ، وخاف أن يشابه قوم لوط . ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه ؛ كما قال بعضهم : فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد . فالعاقل اللبيب الخائف من ربه ، الفاهم ، يمتثل ما أمره الله به عز وجل ، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال ، والجوارى من السرارى ذوات الجمال ، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد ، فيحق عليه الوعيد ، ويدخل فى قوله تعالى : (وما هى من الظالمين ببعيد) .

قصة « مدين » قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى فى سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ☆ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ☆ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ☆ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ، قال أو لو كنا كارهين ☆ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ☆ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ☆ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ☆ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ☆ فتولى عنهم وقال ياقوم لقد

(١) سورة الحجر . (٢) سورة الذاريات .

أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين)(١) .

وقال فى سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً ، (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ✲ وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ✲ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ✲ قالوا ياشعيب أصلوٰتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ✲ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ✲ وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ✲ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ✲ قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ✲ قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً ؟ إن ربى بما تعلمون محيط ✲ وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إنى معكم رقيب ✲ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ✲ كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود)(٢) .

وقال فى الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ✲ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين)(٣) وقال تعالى فى الشعراء بعد قصتهم : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين ✲ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ✲ إنى لكم رسول أمين ✲ فاتقوا الله وأطيعون ✲ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ✲ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ✲ وزنوا بالقسطاس المستقيم ✲ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ✲ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ✲ قالوا إنما أنت من المسحرين ✲ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ✲ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ✲ قال ربى أعلم بما تعملون ، فكذبوهم فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم ✲ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ✲ وإن ربك لهو العزيز الرحيم)(٤) .

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم «مدين» التى هى قرية من أرض معان من أطراف الشام ، مما يلى ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط . وكانوا بعدهم بمدة قريبة . ومدين مدينة عرفت بها القبيلة

---

(١) الآيات : ٨٥ — ٩٣ (٢) الآيات : ٨٤ — ٩٥ (٣) الآيتان : ٧٨ — ٧٩
(٤) الآيات : ١٧٦ — ١٩١ .

وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل . وشعيب نبيهم هو ابن مكيل [١] بن يشجن ، ذكره ابن إسحاق . قال : ويقال له بالسريانية يثرون ، وفى هذا نظر . ويقال شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب ويقال شعيب بن نويب بن عيفا [٢] بن مدين بن إبراهيم ، ويقال شعيب بن ضيفور [٣] بن عيفا بن ثابت ابن مدين بن إبراهيم ، وقيل غير ذلك فى نسبه .

قال ابن عساكر : ويقال جدته ـ ويقال أمه ـ بنت لوط . وكان ممن آمن بابراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق . وعن وهب ابن منبه أنه قال : شعيب وملغم ممن آمن بابراهيم يوم أحرق بالنار ، وهاجرا معه إلى الشام ، فزوجهما بنتى لوط عليه السلام ذكره ابن قتيبة ، وفى هذا كله نظر أيضاً . والله أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة سلمة بن سعد العنزى : أنه قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عنزة ، فقال : « نعم الحى عنزة ؛ مبغى عليهم منصورون ، قوم شعيب أحبار موسى » فلو صح هذا لدل على أن شعيبا من موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة ، لأنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ؛ فإن هؤلاء بعده بدهر طويل . والله أعلم .

وفى حديث أبى ذر الذى فى صحيح ابن حبان فى ذكر الأنبياء والرسل قال : « أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر » . وكان بعض السلف يسمى شعيبا خطيب الأنبياء ، يعنى لفصاحته وعلو عبارته ، وبلاغته فى دعاية قومه إلى الإيمان برسالته . وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبا قال : « ذاك خطيب الأنبياء » . وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ـ وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها ـ وكانوا من أسوإ الناس معاملة ؛ يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون فيهما ، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص . فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة ؛ من بخس الناس أشياءهم و إخافتهم لهم فى سبلهم وطرقاتهم . فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم ، حتى أحل الله بهم البأس الشديد . وهو الولى الحميد . كما قال تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) أى دلالة وحجة واضحة ، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلنى : وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم تنقل إلينا تفصيلا ، وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالا (فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) . أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم ، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال : (ذلكم خير لكم إن

---

(١) فى الطبرى : ميكائيل (٢) فى نسخة : عنقا (٣) فى نسخه ، صيفور ، وفى الطبرى : صيفون .

كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراط) أى طريق (توعدون) أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل .

قال السدى فى تفسيره عن الصحابة : (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) ـ أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة . وقال إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق ، يبخسون الناس — يعنى يعشرونهم . وكانوا أول من سن ذلك (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً) نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية ، والمعنوية الدينية (واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة . وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه . كما قال لهم فى القصة الأخرى : (ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) ـ أى لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه ، فيمحق الله بركة مافى أيديكم ، ويفقركم ويذهب مابه يغنيكم ، وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة . ومن جمع له هذا وهذا .. فقد باء بالصفقة الخاسرة .

فنهاهم أولا عن تعاطى مالا يليق من التطفيف ، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم ، وعذابه الأليم فى أخراهم ، وعنفهم أشد تعنيف . ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً : (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) . قال ابن عباس والحسن البصرى : (بقيت الله خير لكم) ـ أى رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس . وقال ابن جرير : ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ـ خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف : قال : وقد روى هذا عن ابن عباس ، وهذا الذى قاله وحكاه ـ حسن ، وهو شبيه بقوله تعالى : (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) ـ يعنى أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام ؛ فإن الحلال مبارك وإن قل ، والحرام ممحوق وإن كثر . كما قال تعالى : (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) وقال رسول الله ﷺ : « إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل » . رواه أحمد ـ أى إلى قلة . وقال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » . والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل ، والحرام لا يجدى وإن كثر . ولهذا قال نبى الله شعيب : (بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين) . وقوله : (وما أنا عليكم بحفيظ) أى افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه ، لا لأراكم أنا وغيرى .

(قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك

لأنت الحليم الرشيد) . يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم : أصلاتك هذه التى تصليها — هى الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون ؟ أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذى ترتضيه أنت ، ونترك المعاملات التى تأباها و إن كنا نحن نرضاها ؟ (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس وميمون ابن مهران وابن جريج وزيد ابن أسلم وابن جرير : يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء . (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) . هذا تلطف معهم فى العبارة ، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة . يقول لهم : أرأيتم أيها المكذبون (إن كنت على بينة من ربى) — أى على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلنى إليكم ، (ورزقنى منه رزقاً حسناً) — يعنى النبوة والرسالة ، يعنى وعمى عليكم معرفتها ، فأى حيلة لى فيكم ؟ وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء . وقوله : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) — أى لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له ، وإذا نهيتكم عن الشىء فأنا أول من يتركه . وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة ، وضدها هى المردودة الذميمة ، كما تلبس بها علماء بنى إسرائيل فى آخر زمانهم ، وخطباؤهم الجاهلون . قال الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟) وذكر عندها فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يؤتى بالرجل فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه — أى تخرج أمعاؤه من بطنه — فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى . كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » .

وهذه صفة مخالفى الأنبياء من الفجار والأشقياء . فأما السادة من النجباء ، والألباء من العلماء ، الذين يخشون ربهم بالغيب — فحالهم كما قال نبى الله شعيب : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) — أى ما أريد فى جميع أمرى إلا الإصلاح فى الفعال والمقال بجهدى وطاقتى . (وما توفيقى) أى فى جميع أحوالى (إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) — أى عليه أتوكل فى سائر الأمور ، وإليه مرجعى ومصيرى فى كل أمرى . وهذا مقام ترغيب .

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال : (وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد) أى لا تحملنكم مخالفتى وبغضكم ما جئتكم به — على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم ؛ فيحل الله بكم من العذاب والنكال ، نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم ، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين . وقوله : (وما قوم لوط منكم ببعيد) ، قيل معناه : فى الزمان ؛ أى ما بالعهد من قدم ، مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم .

وقيل معناه : وما هم منكم ببعيد فى المحلة والمكان . وقيل فى الصفات والأفعال المستقبحات ؛ من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن؛فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات . ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال : (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود) — أى أقلعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، فإنه رحيم بعباده ، أرحم بهم من الوالدة بولدها ، (ودود) وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ، ولو من الموبقات العظام . (قالوا ياشعيب مانفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً) . روى عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والثورى أنهم قالوا : كان ضرير البصر . وقد روى — فى حديث مرفوع : أنه بكى من حب الله حتى عمى ، فرد الله عليه بصره ، وقال : «ياشعيب أتبكى خوفاً من النار ؟ أو من شوقك إلى الجنة ؟ فقال : بل من محبتك ، فإذا نظرت إليك فلا أبالى ماذا يصنع بى . فأوحى الله إليه : هنيئاً لك ياشعيب لقائى ، فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمى» . رواه الواحدى عن أبى الفتح محمد بن على الكوفى ، عن على بن الحسن ابن بندار ، عن أبى عبد الله محمد بن إسحق التربلى[1] عن هشام بن عمار عن إسمعيل بن عباس عن يحيى ابن سعيد عن شداد بن أمين عن النبى ﷺ بنحوه . وهو غريب جداً ، وقد ضعفه الخطيب البغدادى .

وقولهم : (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) هذا من كفرهم البليغ ، وعنادهم الشنيع ، حيث قالوا : (مانفقه كثيراً مما تقول) أى مانفهمه ولا نتعقله ، لأنا لا نحبه ولا نريده ، وليس لنا همة إليه ، ولا إقبال عليه . وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ : (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون) . وقولهم : (وإنا لنراك فينا ضعيفاً) أى مضطهداً مهجوراً . (ولولا رهطك) أى قبيلتك وعشيرتك فينا — (لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ☆ قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله ؟) أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وترعونى بسببهم ، ولا تخافون جنة الله ؟ ولا تراعونى لأنى رسول الله ؟ فصار رهطى أعز عليكم من الله . (واتخذتموه وراءكم ظهرياً) أى جانب الله وراء ظهوركم ، (إن ربى بما تعملون محيط) أى هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه ، محيط بذلك كله ، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه .

(وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب) . هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد ، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم ؛ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، ومن يحل عليه الهلاك والبوار . (من يأتيه

---

(١) فى نسخة : الرملى .

عذاب يخزيه) أى فى هذه الحياة الدنيا . (ويحل عليه عذاب مقيم) أى فى الأخرى . (ومن هو كاذب) أى منى ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر . (وارتقبوا إنى معكم رقيب) هذا كقوله : (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ، قال أو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً ، على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) . طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم ، فانتصب شعيب للمحاربة عن قومه فقال : (أو لو كنا كارهين ؟) أى هؤلاء لايعودون إليكم اختياراً ، وإنما يعودون إليكم إن عادوا — اضطراراً مكرهين ؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطته بشاشه القلوب — لا يسخطه أحد ، ولا يرتد أحد عنه ، ولا محيد لأحد منه . ولهذا قال : (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علماً ، على الله توكلنا) أى فهو كافينا ، وهو العاصم لنا وإليه ملجأنا فى جميع أمرنا . ثم استفتح على قومه ، واستنصر ربه عليهم فى تعجيل مايستحقونه إليهم فقال : (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) أى الحاكمين . فدعا عليهم ، والله لايرد دعاء رسله إذا انتصروه على الذين جحدوه وكفروه ، وبرسوله خالفوه . ومع هذا صمموا على ماهم عليه مشتملون ، وبه متلبسون .

(وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون) . قال الله تعالى : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) . ذكر فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أى رجفت بهم أرضهم ، وزلزلت زلزالا شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها ، وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية ؛ لا أرواح فيها ولا حركات بها ، ولا حواس لها .

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثلات ، وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات . سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات . ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ؛ فى سياق قصة الأعراف أرجفوا نبى الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودن فى ملتهم راجعين . فقال تعالى : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما فى سورة هود : فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا

لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : (أصلوتك تأمرك أن نترك مايعبد أباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) . فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح ، الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع مع رجفة أسكنتهم . وأما فى سورة الشعراء : فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة . وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا ؛ فإنهم قالوا : (إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين * قال رب أعلم بما تعملون) قال الله تعالى : وهو السميع العليم : (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) .

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره : أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين — فقوله ضعيف . وإنما عمدتهم شيئان : أحدهما أنه قال : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخوهم كما قال : (وإلى مدين أخاهم شعيباً) . والثانى أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر فى أولئك الرجفة أو الصيحة . والجواب عن الأول : أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) — لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا . ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم . وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة . وأما احتجاجهم بيوم الظلة ؛ فإن كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى — فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان . وهذا لايقوله أحد يفهم شيأ من هذا الشأن .

فأما الحديث الذى أورده الحافظ بن عساكر فى ترجمة النبى شعيب عليه السلام ، من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد عن شفيق بن أبى هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله ابن عمرو مرفوعاً : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبى عليه السلام » — فإنه حديث غريب . وفى رجاله من تكلم فيه . والأشبه أنه من كلام عبدالله بن عمرو ، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بنى إسرائيل . والله أعلم .

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة — ماذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان ، فدل على أنهم أمة واحدة ، أهلكوا بأنواع من العذاب . وذكر فى كل موضع مايناسب من الخطاب . وقوله : (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) — ذكروا أنهم أصابهم حر شديد ، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام ، فكان لاينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ، ولادخولهم فى الأسراب . فهربوا من محلتهم إلى البرية ، فأظلتهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا فيه — أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء ، فأزهقت الأرواح ، وخربت الأشباح (فأصبحوا فى دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها

الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين ، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين : (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) . وقال تعالى : (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) ، وهذا فى مقابلة قولهم : (لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون) .

ثم ذكر تعالى عن نبيهم : أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً ، فقال تعالى : (ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) أى أعرض عنهم مولّياً عن محلتهم بعد هلكتهم قائلا : (ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) . أى قد أديت ما كان واجباً على من البلاغ التام والنصح الكامل ، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه ، فلم ينفعكم ذلك ، لأن الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين . فلست أتأسف بعد هذا عليكم ؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة . ولهذا قال : (فكيف آسى) أى أحزن (على قوم كافرين) أى لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه ، فحل بهم من بأس الله الذى لا يرد — ما لا يدافع ولا يمانع ، ولا محيد لأحد أريد به عنه ، ولا مناص منه .

وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس : أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام . وعن وهب بن منبه : أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم .

باب ذكر ذرية إبراهيم « عليه الصلاة والتسليم »

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم ، وما آل إليه أمره — عليه السلام والتحية والإكرام . وذكرنا ماوقع فى زمانه من قصة قوم لوط ، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام ؛ لأنها قرينتها فى كتاب الله عز وجل فى مواضع متعددة ؛ فذكر تعالى بعد قصه قوم لوط ـ قصة مدين ، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا ، فذكرناها تبعاً لها اقتداء بالقرآن العظيم . ثم نشرع الآن فى الكلام على تفصيل ذرية إبراهيم عليه السلام ؛ لأن الله جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبى أرسل بعده فمن ولده

ذكر إسماعيل « عليه السلام »

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان ، أسنهما وأجلهما : الذى هو الذبيح على الصحيح — إسماعيل بكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية — عليها السلام — من العظيم الجليل . ومن قال : إن الذبيح هو إسحق — فإنما تلقاه من نقلة بنى إسرائيل ، الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل ، وخالفوا ما بأيديهم فى هذا من التنزيل ، فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر ، وفى رواية : الوحيد . وأيا ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل ؛ ففى نص كتابهم : إن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة . وإنما ولد إسحق بعد مضى مائة سنة من عمر الخليل ، فإسماعيل هو البكر لا محالة وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة .

أما فى الصورة ؛ فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاثة عشر سنة ، وأما أنه وحيد فى المعنى ؛ فإنه هو الذى هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر ، وكان صغيراً رضيعاً — فيما قيل — فوضعهما فى وهاد جبال فاران ، وهى الجبال التى حول مكة نعم المقيل ، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل ، وذلك ثقة بالله وتوكلا عليه . فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته ، فنعم الحسيب والكافى والوكيل والكفيل . فهذا هو الولد الوحيد فى الصورة والمعنى . ولكن أين من يتفطن لهذا السر ؟ وأين من يحل بهذا المحل ؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل . وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد ، والمحافظة على الصلاة ، والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب ، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب . قال تعالى : (فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) (١) فطاوع أباه على ما إليه دعاه ، ووعده بأن سيصبر — فوفى بذلك وصبر على ذلك .

وقال تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) (٢) . وقال تعالى : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار * واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) (٣) . وقال تعالى : وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) (٤) . وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ... الآية (٥))

---

(١) الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الصافات
(٢) الآيتان . ٥٤ ، ٥٥ من سورة مريم
(٣) الآيات : ٤٥ — ٤٨ من سورة ص
(٤) الآيتان : ٨٥ ، ٨٦ من سورة الأنبياء
(٥) الآية : ١٦٣ من سورة النساء

وقال تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط[١]) الآية . ونظيرتها من السورة الأخرى . وقال تعالى : (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله[٢] ...) الآية . فذكر الله عنه كل صفة جميلة ، وجعله نبيه ورسوله ، وبرأه من كل مانسب إليه الجاهلون ، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه — عباده المؤمنون .

وذكر علماء النسب وأيام الناس : أنه أول من ركب الخيل ، وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها. وقد قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه : حدثنا شيخ من قريش ، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « اتخذوا الخيل واعتبقوها[٣] فإنها ميراث أبيكم إسماعيل » . وكانت هذه العراب وحوشاً فدعا لها بدعوته التى كان أعطى فأجابته . وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن ؛ من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل .

قال الأموى : حدثنى على بن المغيرة ، حدثنا أبو عبيدة ، حدثنا مسمع بن مالك عن محمد بن على ابن الحسين عن آبائه عن النبى ﷺ أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة » ، فقال له يونس صدقت ياأباسيار ، هكذا أبو جرى حدثنى . وقد قدمنا أنه تزوج لما شب ، امرأة من العماليق ، وأن أباه أمره بفراقها ففارقها . قال الأموى : هى عمارة بنت سعد بن أسامة ابن أكيل العماليقى . ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها فاستمر بها ، وهى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى ، وقيل هذه ثالثة — فولدت له اثنى عشر ولداً ذكراً . وقد سماهم محمد بن إسحق رحمه الله وهم : نابت ، وقيذر[٤] وإزبل ، وميشى[٥] ومسمع ، وماش ، ودوصا وأرر[٦] ويطور ، ونبش ، وطيما[٧] وقيذما . وهكذا ذكرهم أهل الكتاب فى كتابهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيما المبشر بهم ، المتقدم ذكرهم . وكذبوا فى تأويلهم ذلك .

وكان إسماعيل عليه السلام رسولا إلى أهل تلك الناحية وما والاها ؛ من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن ، صلوات الله وسلامه عليه . ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحق ، وزوج ابنته « نسمة » من ابن أخيه « العيص » بن إسحق ، فولدت له الروم ، ويقال لهم بنو الأصفر ؛ لصفرة كانت فى العيص . وولدت له اليونان فى أحد الأقوال . ومن ولد العيص الأشبان قيل منهما أيضاً . وتوقف ابن جرير رحمه الله .

---

(١) الآية : ١٣٦ من سورة البقرة (٢) الآيه : ١٤٠ من سورة البقرة (٣) التعبيق : التذكية ، وهى الذبح .
(٤) فى نسخة : قيذار (٥) فى نسخة : منبسى (٦) فى نسخة : وأدر . وفى أخرى : وأزر . (٧) فى نسخة : وطميا .

ودفن إسماعيل نبى الله بالحجر مع أمه هاجر ، وكان عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة .

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكى إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة ، فأوحى الله إليه : إنى سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه ، تجرى عليك روحها إلى يوم القيامة .

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه : نابت ، وقيذار . وسنتكلم على أحياء العرب و بطونها وعمائرها وقبائلها وعشائرها ، من لدن إسماعيل عليه السلام — إلى زمان رسول الله ﷺ . وذلك إذا انتهينا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة ، بعد الفراغ من أخبار أنبياء بنى إسرائيل إلى زمان عيسى ابن مريم ، خاتم أنبيائهم ومحقق أنبائهم . ثم نذكر ما كان فى زمن بنى إسرائيل ، ثم ما وقع فى أيام الجاهلية ، ثم ينتهى الكلام إلى سيرة نبينا رسول الله إلى العرب والعجم ، وسائر صنوف بنى آدم من الأمم ، إن شاء الله تعالى . وبه الثقة وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم العزيز الحكيم .

ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم بن الكريم « عليهما الصلاة والتسليم »

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة ، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشر سنة . وكان عمر أمه سارة حين بشرت به — تسعين سنة . قال الله تعالى : (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ✲ وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) . وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه فى غير ما آية من كتابه العزيز . وقدمنا فى حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الكريم بن الكريم ابن الكريم بن الكريم — يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج « رفقا » بنت بتوابيل فى حياة أبيه — كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقراً ، فدعا الله لها فحملت ، فولدت غلامين توأمين : أولها سموه « عيصو » ، وهو الذى تسميه العرب « العيص » ، وهو والد الروم . والثانى خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه « يعقوب » — وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل .

قالوا : وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب ؛ لأنه بكره . وكانت أمهما « رفقا » تحب يعقوب أكثر ؛ لأنه الأصغر . قالوا فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاماً ، وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً و يطبخه له ؛ ليبارك عليه ويدعو له . وكان العيص صاحب صيد ، فذهب يبتغى ذلك ، فأمرت « رفقا » ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ، ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ، ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له ، فقامت فألبسته ثياب أخيه ، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد

الجديين ؛ لأن العيص كان أشعر الجسد و يعقوب ليس كذلك . فلما جاء به وقربه إليه — قال : من أنت ؟ قال : ولدك ، فضمه إليه وجسه وجعل يقول : أما الصوت فصوت يعقوب ، وأما الجس والثياب فالعيص . فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده ، وأن يكثر رزقه وولده .

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه ، فقال له ما هذا يابنى ؟ قال : هذا الطعام الذى اشتهيته ، فقال : أما جئتنى به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك ؟ فقال : لا والله ، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك ، فوجد فى نفسه عليه وجداً كثيراً . وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما ، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى ، وأن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم . فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب — أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها « لابان » الذى بأرض حران ، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه ، وأن يتزوج من بناته . وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له — ففعل ، فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء فى موضع فنام فيه ، وأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام ، فرأى فى نومه ذلك — معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب تبارك وتعالى يخاطبه ، و يقول له : إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك ، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك . فلما هب من نومه فرح بما رأى ، ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنين فى هذا الموضع معبدا لله عز وجل ، وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون لله عشره . ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهناً يتعرفه به ، و سمى ذلك الموضع : « بيت إيل » أى بيت الله . وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى .

قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران — إذا له ابنتان : اسم الكبرى : «ليا» واسم الصغرى : « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما[1] ، فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين . فلما مضت المدة على خاله «لابان» — صنع طعاماً وجمع الناس عليه ، وزف إليه ليلا ابنته الكبرى « ليا » ، وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر . فلما أصبح يعقوب إذا هى « ليا » ، فقال لخاله لم غدرت بى ؟ وأنت إنما خطبت إليك راحيل . فقال : إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها . فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها . وكان ذلك سائغاً فى ملتهم ، ثم نسخ فى شريعة التوراة . وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ ؛ لأن فعل يعقوب عليه السلام — دليل على جواز هذا وإباحته ؛ لأنه معصوم . ووهب « لابان » لكل واحدة من ابنتيه جارية ؛ فوهب لليا جارية اسمها : « زلفى » ، ووهب لراحيل جارية اسمها : « بلهى » .

(١) يظهر من السياق أن هنا جملة ساقطة هى : فطلب يعقوب إلى خاله أن يزوجه راحيل .

وجبر الله تعالى ضعف « ليا » بأن وهب لها أولاداً ، فكان أول من ولدت ليعقوب : روبيل ، ثم شمعون ، ثم لاوى ، ثم يهوذا . فغارت عند ذلك «راحيل» وكانت لاتحبل ، فوهبت ليعقوب جاريتها « بلهى » فوطئها فحملت ، وولدت له غلاماً سمته «دان» ، وحملت وولدت غلاماً آخر سمته « نيفتالى » . فعمدت عند ذلك « ليا » فوهبت جاريتها « زلفى » من يعقوب عليه السلام فولدت له : جاد[1] وأشير ، غلامين ذكرين . ثم حملت « ليا » أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها « وسمته إيساخر »[2] . ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته «زابلون» . ثم حملت وولدت بنتاً سمتها «دينار» فصار لها سبعة من يعقوب .

ثم دعت الله تعالى « راحيل » ، وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب ، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها ، فحملت من نبى الله يعقوب ، فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته «يوسف». كل هذا وهم مقيمون بأرض حران[3] ، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ــ ست سنين أخرى ، فصار مدة مقامه عشرين سنة . فطلب يعقوب من خاله « لابان » أن يسرحه ليمر إلى أهله ، فقال له خاله : إنى قد بورك لى بسببك فسلنى من مالى ما شئت ، فقال : تعطينى كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع ،[4] وكل حمل ملمع أبيض بسواد ، وكل أملح[5] ببياض ، وكل أجلح[6] أبيض من المعز ، فقال : نعم . فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس ؛ لئلا يولد شىء من الحملان على هذه الصفات . وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم . قالوا : فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ولب ، فكان يقشرها بلقا ، وينصبها فى مساقى الغنم من المياه ؛ لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها ، فتصير ألوان حملانها كذلك . وهذا يكون من باب خوارق العادات ، وينتظم فى سلك المعجزات . فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد ، وتغير له وجه خاله وبنيه ، وكأنهم انحصروا منه .

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعده بأن يكون معه . فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته ، فتحمل بأهله وماله ، وسرقت راحيل أصنام أبيها . فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم ــ لحقهم «لابان» وقومه ، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه فى خروجه بغير علمه ، وهلاأعلمه فيخرجهم فى فرح ومزاهر وطبول ، وحتى يودع بناته وأولادهن . ولم أخذوا أصنامه معهم ؟ ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه ، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً . فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئاً ، وكانت راحيل قد جعلتهن فى بردعة الجمل وهى تحتها ، فلم تقم ، واعتذرت بأنها طامث[7] فلم يقدر عليهن . فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها « جلعاد » على أنه لا يهين بناته ، ولا يتزوج

---

(١) فى النسخة الحلبية: حاذ (٢) فى نسخة: انساخر (٣) فى الطبرى : بأرض بابل (٤) فيه سواد وبياض ، ويسمى الأبلق (٥) الكبش الأملح : الذى فيه بياض يخالطه سواد (٦) هو الذى لا قرن له . والجلح بالتحريك : انحسار الشعر عن جانبى الرأس (٧) أى حائض .

عليهن ، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر ، لا لابان ولا يعقوب ، وعملا طعاما وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر . وتفارقوا راجعين إلى بلادهم .

فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم . وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له و يتواضع له ، فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة راجل ، فخشى يعقوب من ذلك ، ودعا الله عز وجل وصلى له ، وتضرع إليه وتمسكن لديه ، وناشده عهده ووعده الذى وعده به . وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص . وأعد لأخيه هدية عظيمة وهى : مائتا شاة ، وعشرون تيساً ، ومائتا نعجة ، وعشرون كبشاً ، وثلاثون لقحة [1] ، وأربعون بقرة ، وعشرة من الثيران ، وعشرون أتانا وعشرة من الحمر . وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده . وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة . فإذا لقيهم العيص فقال للأول : لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ فليقل : لعبدك يعقوب ، أهداها لسيدى العيص . وليقل الذى بعده كذلك ، وكذا الذى بعده ، ويقول كل منهم : وهو جائى بعدنا . وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه و بنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين ، وجعل يسير فيهما ليلا و يكمن نهاراً . فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية — تبدا له ملك من الملائكة فى صورة رجل ، فظنه يعقوب رجلا من الناس ، فأتاه يعقوب ليصارعه و يغالبه ، فظهر عليه يعقوب فيما يرى ، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب . فلما أضاء الفجر قال له الملك : ما اسمك ؟ قال يعقوب . قال لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل . فقال له يعقوب : ومن أنت ؟ وما اسمك ؟ فذهب عنه . فعلم أنه ملك من الملائكة ، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله . فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء .

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة راجل ، فتقدم أمام أهله . فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات ، وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان . وكان مشروعاً لهم ؛ كما سجدت الملائكة لآدم تحية له ، وكما سجد إخوة يوسف وأبواه له كما سيأتى . فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ، ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهب الله لعبدك ، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له . ودنت « ليا » وبنوها فسجدوا له . ودنت « راحيل » وابنها يوسف فخرا سجداً له . وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها . ورجع العيص فتقدم أمامه ، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشى والعبيد قاصدين جبال « ساعير » . فلما مر بساحور ابتنى له بيتاً ، ولدوا به ظلالاً ، ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية ، واشترى مزرعة شخيم ابن جمور بمائة نعجة ، فضرب هنالك فسطاطه ، وابتنى ثم مذبحا فسماه « إيل » [2] إله إسرائيل

---

(١) قال فى اللسان : اللقحة : الناقة من حين يسمن سنام ولدها حتى يمضى لها سبعة أشهر ويفصل عنها . وقيل الناقة الحلوب الغزيرة اللبن (٢) إيل : اسم الله تعالى .

وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه . وهو بيت المقدس اليوم ، الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام : وهو مكان الصخرة التى أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك ، كما ذكرنا أولا .

وذكر أهل الكتاب هنا قصة « دينا » بنت يعقوب بنت « ليا » [1] وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذى قهرها على نفسها ، وأدخلها منزله ثم خطبها عن أبيها وإخوتها ، فقال إخوتها إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا ، فإنا لا نصاهر قوما غلفا ، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم . فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان — مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ماصنعوا إليهم ، مضافاً إلى كفرهم ، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم ، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت راحيل فولدت غلاما هو « بنيامين » ، إلا أنها جهدت فى طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه ، فدفنها يعقوب فى « أفراث » . وهى بيت لحم ، وصنع يعقوب على قبرها حجراً ، وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم . وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلا . فمن ليا : روبيل [2] ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وإيساخر ، وزابلون . ومن راحيل : يوسف ، وبنيامين . ومن أمة راحيل : دان ، ونفتالى . ومن أمة ليا : جاد وأشير — عليهم السلام . وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم . ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة : ودفنه ابناه : العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل — فى المغارة التى اشتراها كما قدمنا .

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة فى حياة إسرائيل

فمن ذلك : قصة يوسف بن راحيل . وقد أنزل الله عز وجل فى شأنه وما كان من أمره — سورة من القرآن العظيم ؛ ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (بسم الله الرحمن الرحيم * الر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) . قد تكلمنا على الحروف المقطعة فى أول تفسير سورة البقرة ، فمن أراد تحقيقه فلينظره ثم . وتكلمنا على هذه السورة مستقصى فى موضعها من التفسير . ونحن نذكر ههنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز .

وجملة القول فى هذا المقام : أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم ، بلسان عربى فصيح ، بين واضح جلى ، يفهمه كل عاقل ذكى زكى . فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق فى أشرف زمان ومكان ، بأفصح لغة وأظهر بيان . فإن كان السياق فى الأخبار الماضية أو الآتية ـ ذكر أحسنها وأبينها ، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغ الباطل وزيفه

---

(١) اسمها فى كتاب قصص الأنبياء : « لبيئه » .

(٢) اسمه فى كتاب قصص الأنبياء : « رأوبين » .

ورده . وإن كان فى الأوامر والنواهى فأعدل الشرائع وأوضح المناهج ، وأبين حكما وأعدل حكما . فهو كما قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا[1]) . يعنى صدقا فى الأخبار ، وعدلا فى الأوامر والنواهى . ولهذا قال تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) أى بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه ، كما قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ❊ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور[2]) . وقال تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكرا ❊ من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا ❊ خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا[3]) . يعنى من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب — فإنه يناله هذا الوعيد . كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين على — مرفوعا وموقوفاً : « من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد عن الشعبى عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى ﷺ . قال : فغضب وقال : « أتتهوكون[4] فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه . والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » . إسناد صحيح . ورواه أحمد من وجه آخر عن عمرو فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » . وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه فى أول سورة يوسف . وفى بعضها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال فى خطبته : « أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون » . ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا . (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا . والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ❊ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ❊ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ، إن ربك عليم حكيم) .

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدا ذكرا ، وسميناهم . وإليهم تنسب أسباط بنى إسرائيل كلهم . وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم — يوسف عليه السلام . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى

---

(١) من الآية : ١١٥ من سورة الأنعام (٢) آخر سورة الشورى (٣) الآيات : ٩٩ — ١٠١ من سورة طه

(٤) أى أتتحيرون وتتهورون ؟ والمتهوك : المتحير والساقط فى هوة الردي . والتهوك : التهور والوقوع فى الشيء بغير مبالاة .

أنه لم يكن فيهم نبى غيره ، وباقى إخوته لم يوح إليهم . وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم فى هـذه القصة — يدل على هذا القول . ومن استدل على نبوتهم بقوله : (قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم و إسمعيل و إسحق ويعقوب والأسباط) ، وزعم أن هؤلاء هم الأسباط — فليس استدلاله بقوى ؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بنى إسرائيل ، وما كان يوجـد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحى من السماء . والله أعلم .

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة _ أنه مانص على واحد من إخوته سواه ، فدل على ماذكرناه . ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم بن الكريم ابن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » انفرد به البخارى . فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . وقد ذكرنا طرقه فى قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته هنا ولله الحمد والمنة .

قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم ، كأن أحد عشر كوكباً وهم إشارة إلى بقية إخوته ، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه _ قد سجدوا له ، فهاله ذلك . فلما استيقظ قصها على أبيه ، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة فى الدنيا والآخرة ، بحيث يخضع له أبواه و إخوته فيها . فأمره بكتمانها وأن لايقصها على إخوته ؛ كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ، و يكيدوه بأنواع الحيل والمكر . وهذا يدل على ماذكرناه . ولهذا جاء فى بعض الآثار : « استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها ؛ فإن كل ذى نعمة محسود » . وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه و إخوته معاً وهو غلط منهم . (وكذلك يجتبيك ربك) أى وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة ، فإذا كتمتها (يجتبيك ربك) أى يخصك بأنواع اللطف والرحمة ، (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى يفهمك من معانى الكلام وتعبير المنام مالا يفهمه غيرك ، (ويتم نعمته عليك) أى بالوحى إليك (وعلى آل يعقوب) أى بسببك ، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة . (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) أى ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة _ كما أعطاها أباك يعقوب ، وجدك إسحق ، ووالد جدك إبراهيم الخليل ، (إن ربك عليم حكيم) كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

لهذا . قال رسول الله ﷺ لما سئل أى الناس أكرم ؟ قال : « يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله » . وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما ، وأبو يعلى والبزار فى مسنديهما ، من حديث الحكم بن ظهير _ وقد ضعفه الأئمة _ عن السدى عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال :

أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له : بستانة اليهودى ، فقال : يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها ؟ قال : فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشىء ، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها ، قال : فبعث إليه رسول الله فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ » قال : نعم . فقال : « هى جريان(١) والطارق ، والديال ، وذو الكتفان ، وقابس ، ووثاب ، وعمردان(٢) والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذوالفرع . والضياء . والنور » فقال اليهودى : إى والله إنها لأسماؤها . وعند أبى يعلى : فلما قصها على أبيه قال هذا أمر مشتت يجمعه الله ، والشمس أبوه والقمر أمه .

(لقد كان فى يوسف و إخوته آيات للسائلين ۞ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين ۞ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين ۞ قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) .

ينبه تعالى على مافى هذه القصة من الآيات والحكم ، والدلالات والمواعظ والبينات . ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه — يعنون شقيقه لأمه بنيامين — أكثر منهم ، وهم عصبة أى جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين (إن أبانا لفى ضلال مبين) — أى بتقديمه حبهما علينا . ثم اشتوروا فيما بينهم فى قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لايرجع منها ، ليخلو لهم وجه أبيهم — أى لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم ، وأضمروا التوبة بعد ذلك ، فلما تمالؤا على ذلك وتوافقوا عليه — (قال قائل منهم) ، قال مجاهد : هو شمعون ، وقال السدى : هو يهوذا ، وقال قتادة ومحمد بن إسحق : هو أكبرهم روبيل : (لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة) أى المارة من المسافرين (إن كنتم فاعلين) ماتقولون لا محالة ، فليكن هذا الذى أقول لكم ، فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتغريبه . فأجمعوا رأيهم على هذا ، فعند ذلك (قالوا يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف و إنا له لناصحون ۞ أرسله معنا غداً يرتع و يلعب و إنا له لحافظون ۞ قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ۞ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) . طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم ، وأن يلعب وينبسط ، وقد أضمروا له ما الله به عليم . فأجابهم الشيخ — عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يابنى يشق على أن أفارقه ساعة من النهار ، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا فى لعبكم وما أنتم فيه — فيأتى الذئب فيأكله ، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه . (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) أى لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة — إنا إذا لخاسرون ، أى عاجزون هالكون .

---

(١) فى نسخة : حرثان .

(٢) وفى نسخة : عمودان .

وعند أهل الكتاب : أنه أرسله وراءهم يتبعهم ، فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم . وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم فى التعريب ؛ فإن يعقوب عليه السلام – كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم ، فكيف يبعثه وحده ؟ (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون * وجاءوا أباهم عشاء يبكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين * وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل * والله المستعان على ما تصفون) . لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم ، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه ، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال ، وأجمعوا على إلقائه فى غيابت الجب — أى فى قعره ، على راعوفته — وهى الصخرة التى تكون فى وسطه يقف عليها المائح ، وهو الذى ينزل ليملى الدلاء إذا قل الماء ، والذى يرفعها بالحبل يسمى الماتح . فلما ألقوه فيه ، أوحى الله إليه : أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها ، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا فى حال أنت فيها عزيز ، وهم محتاجون إليك خائفون منك ، (وهم لا يشعرون) .

قال مجاهد وقتادة : وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك . وعن ابن عباس : وهم لا يشعرون — أى لتخبرنهم بأمرهم هذا فى حال لا يعرفونك فيها ، رواه ابن جرير عنه . فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه ، أخذوا قميصه فلطخوه بشىء من دم ، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون — أى على أخيهم . ولهذا قال بعض السلف : لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك . وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون — أى فى ظلمة الليل ؛ ليكون أمشى لغَدِرهم لا لعُذْرهم . (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا) أى ثيابنا (فأكله الذئب) أى فى غيبتنا عنه فى استباقنا . وقولهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أى وما أنت بمصدق لنا فى الذى أخبرناك من أكل الذئب له ، ولو كنا غير متهمين عندك . فكيف وأنت تتهمنا فى هذا ؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب ، وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله ، فصرنا غير مصدقين عندك . فمعذور أنت فى عدم تصديقك لنا والحالة هذه . (وجاءوا على قميصه بدم كذب) — أى مكذوب مفتعل ؛ لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها ، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ، ليوهموه أنه أكله الذئب . قالوا : ونسوا أن يخرقوه ، وآفة الكذب النسيان . ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعهم على أبيهم ؛ فإنه كان يفهم عداوتهم له ، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم ، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التى كانت عليه فى صغره ، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته . ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه ، وغيبوه عن عينيه — جاؤا وهم يتباكون ، وعلى ما تمالؤا عليه يتواطؤن . ولهذا (قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل * والله المستعان على ما تصفون) .

وعند أهل الكتاب : أن روبيل أشار بوضعه فى الجب ليأخذه من حيث لايشعرون ويرده إلى أبيه ، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة . فلما جاء روبيل آخر النهار ليخرج يوسف — لم يجده ، فصاح وشق ثيابه ، وعمد أولئك إلى جدى فذبحوه ، ولطخوا من دمه جبة يوسف . فلما علم يعقوب شق ثيابه ، ولبس مئزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة . وهذه الركاكة جاءت من خطئهم فى التعبير والتصوير

(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يابشرى هـذا غلام ! وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون * وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين * وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولـكن أكثر الناس لايعلمون * ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) .

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع فى الجب : أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به ، فجاءت سيارة — أى مسافرون . قال أهل الكتاب : كانت بضاعتهم فى الفستق والصنوبر والبطم[1] قاصدين ديار مصر من الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف فلما رآه ذلك الرجل (قال يابشرى) أى يابشارتى (هذا غلام وأسروه بضاعة) — أى أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ، (والله عليم بما يعملون) — أى هو عالم بما تمالأ عليه إخونه ، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم . ومع هذا لايغيره تعالى ؛ لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق ، والرحمة بأهل مصر ، بما يجرى الله على يدى هذا الغلام الذى يدخلها فى صورة أسير رقيق . ثم بعد هذا يملـكه أزمة الأمور ، وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم ، بما لايحد ولا يوصف . ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له — لحقوهم ، وقالوا هذا غلامنا أبق منا ، فاشتروه منهم بثمن بخس — أى قليل نزر ، وقيل هو الزيف (دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) . قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى : باعوه بعشرين درهماً ، اقتسموها درهمين درهمين . وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال عكرمة ومحمد بن إسحق : أربعون درهماً . والله أعلم .

(وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه) أى أحسنى إليه (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) ، وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه ، بما يريد أن يؤهله له ، ويعطيه من خيرى الدنيا والآخرة . قالوا : وكان الذى اشتراه من أهل مصر — عزيزها ، وهو الوزير بها ، الذى الخزائن مسلمة إليه . قال ابن إسحق : واسمه إطفير[2] ابن روحيب ، قال : وكان ملك مصر يومئذ — الريان بن الوليد ، رجل من العماليق . قال واسم امرأة العزيز : « راعيل » بنت رعابيل[3] . وقال غيره : كان اسمها « زليخا »

---

(١) فى القاموس : البطم بالضم وبضمتين : الحبة الخضراء أو شجرها .

(٢) فى نسخة : قطفير . وفى قصص الأنبياء « فوطيفار » (٣) فى نسخة : رعابيل .

والظاهر أنه لقبها . وقيل « فكا » بنت ينوس ، رواه الثعلبي عن ابن هشام الرفاعى . وقال محمد بن إسحق عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس : كان اسم الذى باعه بمصر – يعنى الذى جلبه إليها – مالك بن ذعر بن نويب بن عفقا[1] بن مديان بن إبراهيم . فالله أعلم .

وقال ابن إسحق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : (أكرمى مثواه) ، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى : (ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

ثم قيل اشتراه العزيز بعشرين ديناراً ، وقيل بوزنه مسكا ووزنه حريراً ووزنه ورقاً . فالله أعلم وقوله : (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به — مكنا له فى أرض مصر (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى فهمها ، وتعبير الرؤيا من ذلك . (والله غالب على أمره) أى إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لايهتدى إليها العباد . ولهذا قال تعالى : (ولكن أكثر الناس لايعلمون * ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) . فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد ، وهو حد الأربعين الذى يوحى الله فيه إلى عباده النبيين ، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا فى مدة العمر الذى هو بلوغ الأشد : فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبى : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثمانى عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدى : ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة ، ويشهد له قوله تعالى : (حتى إذا بلغ أشده و بلغ أربعين سنة) .

(وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين * واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم * قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر ، قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) .

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه . وطلبها منه ما لايليق

---

(١) فى نسخة : عنقاء .

بحاله ومقامه ، وهى فى غاية الجمال والمال ، والمنصب والشباب . وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه ، وتهيأت له وتصنعت ، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها ، وهى مع هذا كله امرأة الوزير . قال ابن إسحق : وبنت أخت الملك[1] الريان بن الوليد صاحب مصر . وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء ، إلا أنه نبى من سلالة الأنبياء ، فعصمه ربه عن الفحشاء ، وحماه عن مكر النساء ، فهو سيد السادة النجباء ، السبعة الأتقياء ، المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء — فى قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله » .

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص ، فقال : (معاذ الله إنه ربى) يعنى زوجها صاحب المنزل -- سيدى (أحسن مثواى) أى أحسن إلى وأكرم مقامى عنده (إنه لا يفلح الظالمون) .

وقد تكلمنا على قوله : (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) بما فيه كفاية ومقنع فى التفسير . وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب ، فالإعراض عنه أولى بنا . والذى يجب أن يعتقد : أن الله تعالى عصمه وبرأه ، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها . ولهذا قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين * واستبقا الباب) أى هرب منها طالباً الباب ليخرج منه فراراً منها ، فاتبعته فى أثره (وألفيا) أى وجدا (سيدها) أى زوجها لدى الباب ، فبدرته بالكلام وحرضته عليه ، (قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) . اتهمته وهى المتهمة ، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها . فلهذا قال يوسف عليه السلام : (هى راودتنى عن نفسى) ، احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة (وشهد شاهد من أهلها) . قيل كان صغيراً فى المهد ، قاله ابن عباس ، وروى عن أبى هريرة وهلال بن يساف والحسن البصرى وسعيد بن جبير والضحاك . واختاره بن جرير ، وروى فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ، ووقفه غيره عنه . وقيل كان رجلا قريباً إلى « إطفير » بعلها ، وقيل قريباً إليها . وممن قال إنه كان رجلا : ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدى ومحمد ابن إسحاق وزيد بن أسلم . فقال : (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) — أى لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه . (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك ، وكذلك كان . ولهذا قال تعالى : (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن

---

(١) فى نسخة : بنت أخ الملك .

إن كيدكن عظيم) أى هذا الذى جرى من مكركن . أنت راودته عن نفسه ، ثم اتهمته بالباطل . ثم ضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال : (يوسف أعرض عن هذا) — أى لا تذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن . وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها ، والتوبة إلى ربها ؛ فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب و يؤاخذ بها — هو الله وحده لاشريك له فى ذلك . ولهذا قال لها بعلها ، وعذرها من بعض الوجوه ؛ لأنها رأت مالا صبر لها على مثله — إلا أنه عفيف نزيه برىء العرض سليم الناحية فقال : (استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ✡ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين ✡ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ماهذا بشراً ؛ إن هـذا إلا ملك كريم ✡ قالت فذلـكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليـكونن من الصاغرين ✡ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ✡ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم)

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة ؛ من نساء الأمراء و بنات الـكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها ، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها ، وحبها الشديد له ، وهو لا يساوى هذا ؛ لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهلا لهذا . ولهذا قلن : (إنا لنراها فى ضلال مبين) أى فى وضعها الشىء فى غير محله . (فلما سمعت بمـكرهن) أى بتشنيعهن عليها والتنقص لها ، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها ، فأظهرن ذما وهى معذورة فى نفس الأمر — فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ، ولا من قبيل ما لديهن . فأرسلت إليهن فجمعتهن فى منزلها ، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن ، وأحضرت فى جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين ، كالأترج ونحوه ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام ، وألبسته أحسن الثياب وهو فى غاية طراوة الشباب . وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة ، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة . (فلما رأينه أكبرنه) أى أعظمنه وأجللنه وهبنه ، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم . وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح . (وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) . وقد جاء فى حديث الإسراء : « فمررت بيوسف و إذا هو قد أعطى شطر الحسن » . قال السهيلى وغيره من الأئمة : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ؛ لأن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، فـكان فى غاية نهايات الحسن

البشرى . ولهذا يدخل أهل الجنة — الجنة على طول آدم وحسنه . ويوسف كان على النصف من حسن آدم . ولم يكن بينهما أحسن منهما ؛ كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها — من سارة امرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه . وقال غيره : كان فى الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس . ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز فى محبتها — لهذا المعنى المذكور ، وجرى لهن وعليهن ماجرى ؛ من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين ، ومار كبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته — (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) . ثم مدحته بالعصمة التامة فقالت : (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى امتنع ، (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين) . وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته ، فأبى أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين : (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) . يعنى إن وكلتنى إلى نفسى ، فليس لى من نفسى إلا العجز والضعف ، ولا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . فأنا ضعيف إلا ماقويتنى وعصمتنى وحفظتنى ، وحطنى بحولك وقوتك. ولهذا قال تعالى : (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين * ودخل معه السجن فتيان : قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائى : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون * ياصاحبى السجن : أما أحدكما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) .

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته : أنهم بدا لهم — أى ظهر لهم من الرأى بعد ما علموا براءة يوسف — أن يسجنوه إلى وقت ؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية ، وأخمد لأمرها ، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها . فسجنوه ظلماً وعدواناً . وكان هذا مما قدر الله له ، ومن جملة ما عصمه به ؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم . ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ماحكاه عنهم الشافعى : أن من العصمة أن لاتجد . قال الله : (ودخل معه السجن فتيان) قيل : كان أحدهما ساقى الملك

واسمه فيما قيل « نبوا » . والآخر خبازه — يعني الذي يلي طعامه — وهو الذي يقول له الترك : « الجاشنكير » — واسمه فيما قيل « مجلث » . وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما . فلما رأيا يوسف في السجن — أعجبهما سمته وهديه ، ودله وطريقته ، وقوله وفعله ، وكثرة عبادته ربه ، وإحسانه إلى خلقه . فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه .

قال أهل التفسير : رأيا في ليلة واحدة . أما الساقي فرأى كأن ثلاث قضبان من حُبلةٍ[1] وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب ، فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه . ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز ، وضواري الطيور تأكل من السل[2] الأعلى . فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما وقالا : (إنا نراك من المحسنين) . فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها ، و (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) . قيل : معناه مهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول . وقيل : معناه أني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً أو حامضاً ، كما قال عيسى : (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) . وقال لهما : إن هذا من تعليم الله إياي ؛ لأني مؤمن به موحد له ، متبع ملة آبائي الكرام : إبراهيم الخليل ، وإسحاق ، ويعقوب . (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا) أي بأن هدانا لهذا ، (وعلى الناس) أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه . وهو في فطرهم مركوز ، وفي جبلتهم مغروز . (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) .

ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل . وصغر أمر الأوثان وحقرها ، وضعف أمرها فقال : (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله) أي المتصرف في خلقه الفعال لما يريد ، الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) أي وحده لا شريك له ، و (ذلك الدين القيم) أي المستقيم والصراط القويم ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره . وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال ؛ لأن نفوسهما معظمة له ، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول ، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه .

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال : (يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً) قالوا وهو الساقي . (وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) قالوا وهو الخباز . (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) أي وقع هذا لا محالة ، ووجب كونه على حالة . ولهذا جاء في الحديث : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت » . (وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين) .

---

(١) في القاموس : الحبلة بالضم : الكرم ، أو أصل من أصوله (٢) السل والسلة : الجونة وهي معروفة .

يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذى ظنه ناجياً منهما وهو الساقى : (اذكرنى عند ربك) ، يعنى اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم ـ عند الملك . وفى هذا دليل على جواز السعى فى الأسباب ، ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب . وقوله : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) ـ أى فأنسى الناجى منهما ـ الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام . قاله مجاهد ومحمد بن إسحق وغير واحد وهو الصواب ، وهو منصوص أهل الكتاب . (فلبث) يوسف (فى السجن بضع سنين) . والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع ، وقيل إلى السبع ، وقيل إلى الخمس ، وقيل مادون العشرة . حكاها الثعلبى . ويقال بضع نسوة وبضعة رجال . ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر . قال : وإنما يقال نيف . وقال الله تعالى : (فلبث فى السجن بضع سنين) ، وقال تعالى : (فى بضع سنين) ، وهذا رد لقوله .

قال الفراء : ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين ، ولا يقال : بضع ومائة ، وبضع وألف . وخالف الجوهرى فيما زاد على بضعة عشر ؛ فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين . وفى الصحيح : « الإيمان بضع وستون شعبة » ، وفى رواية وسبعون شعبة ، « أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » . ومن قال إن الضمير فى قوله : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد على يوسف ـ فقد ضعف ما قاله ، وإن كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة . والحديث الذى رواه ابن جرير فى هذا الموضع ـ ضعيف من كل وجه . تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزى المكى وهو متروك . ومرسل الحسن وقتادة ـ لا يقبل ولا ههنا بطريق الأولى والأحرى . والله أعلم .

فأما قول ابن حبان فى صحيحه ، عند ذكر السبب الذى من أجله لبث يوسف فى السجن ما لبث : أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحى ، حدثنا مسدد بن مسرد ، حدثنا خالد بن عبد الله ، ثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها ـ اذكرنى عند ربك ـ ما لبث فى السجن ما لبث ، ورحم الله لوطاً إن كان ليأوى إلى ركن شديد ، إذ قال لقومه : (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) ، قال فما بعث الله نبياً بعده إلا فى ثروة من قومه » ـ فإنه[1] حديث منكر من هذا الوجه . ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة . وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها . والذى فى الصحيحين يشهد بغلطها ، والله أعلم .

(وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة ، أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق ، أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون * ثم يأتى من

(١) قوله : فإنه حديث منكر — جواب قوله : فأما قول ابن حبان .

بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ۞ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) . هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام . وذلك أن ملك مصر ـ وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة [1] بن فاران بن عمرو ابن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ـ رأى هذه الرؤيا .

قال أهل الكتاب : رأى كأنه على حافة نهر ، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان ، فجعلن يرتعن فى روضة هناك ، فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن ، فاستيقظ مذعوراً . ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن ، فاستيقظ مذعوراً . فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها ، بل (قالوا أضغاث أحلام) ـ أى أخلاط أحلام من الليل ، لعلها لا تعبير لها ، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك . ولهذا قالوا : (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) فعند ذلك تذكر الناجى منهما ـ الذى وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا ؛ وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة فى ذلك . فلما سمع رؤيا الملك ، ورأى عجز الناس عن تعبيرها ـ تذكر أمر يوسف ، وما كان أوصاه به من التذكار . ولهذا قال تعالى : (وقال الذى نجا منهما وادكر) أى تذكر (بعد أمة) أى بعد مدة من الزمان ، وهو بضع سنين . وقرأ بعضهم ـ كما حكى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك : (وادكر بعد أَمَه) أى بعد نسيان . وقرأها مجاهد : (بعد أَمْه) باسكان الميم وهو النسيان أيضاً . يقال أَمِه الرجل يأمه أَمَهاً وأمها ـ إذا نسى . قال الشاعر :

أَمِهت وكنت لا أنسى حديثاً كذاك الدهر يزرى بالعقول

فقال لقومه وللملك : (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى فأرسلونى إلى يوسف ، فجاءه فقال : (يوسف أيها الصديق ، أفتنا فى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات . لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) . وعند أهل الكتاب : أن الملك لما ذكره له الساقى ـ استدعاه إلى حضرته ، وقص عليه ما رآه ففسره له . وهذا غلط . والصواب ما قصه الله فى كتابه القرآن ـ لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران ؛ من فرى وريان .

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ، ولا طلب الخروج سريعاً ؛ بل أجابهم إلى ما سألوا ، وعبر لهم ما كان من منام الملك ، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب . (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) يعنى يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ، (وفيه يعصرون) يعنى ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب ، والزيتون والسمسم وغيرها ؛ فعبرلهم ،

(١) فى نسخة : ابن أراثية .

وعلى الخير دلهم ، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه فى حالتى خصبهم وجد بهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله ، إلا ما يرصد بسبب الأكل . ومن تقليل البذر فى سنى الجدب فى السبع الثانية ؛ إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل . وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم .

(وقال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك ، فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم ۞ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ۞ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين ۞ وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رجيم) . لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه — أمر بإحضاره إلى حضرته ؛ ليكون من جملة خاصته . فلما جاءه الرسول بذلك ، أحب أن لايخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً ، وأنه برىء الساحة ممانسبوه إليه بهتاناً . (قال اجع إلى ربك) يعنى الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم) . قيل معناه : إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب إلى ؛ أى فمر الملك فليسألهن : كيف كان امتناعى الشديد عند مراودتهن إياى ؟ وحثهن لى على الأمر الذى ليس برشيد ولا سديد ؟ فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر ، وما كان منه من الأمر الحميد . (وقلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) ، فعند ذلك (قالت امرأة العزيز) وهى زليخا : (الآن حصحص الحق) — أى ظهر وتبين ووضح ، والحق أحق أن يتبع . (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أى فيما يقوله ؛ ، من أنه برىء وأنه لم يراودنى ، وأنه حبس ظلماً وعدواناً ، وزوراً وبهتاناً . وقوله : (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) . قيل إنه من كلام يوسف — أى إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب . وقيل إنه من تمام كلام زليخا — أى إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر ، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة . وهذا القول هو الذى نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم . ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سوى الأول .

(وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم) ؛ قيل إنه من كلام يوسف ، وقيل من كلام زليخا ، وهو مفرع على القولين الأولين . وكونه من تمام كلام زليخا — أظهر وأنسب وأقوى . والله أعلم .

(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ۞ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ۞ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء نصيب

برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ❊ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) . لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ، (قال ائتونى به أستخلصه لنفسى) ـ أى أجعله من خاصتى ، ومن أكابر دولتى ، ومن أعيان حاشيتى . فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ـ (قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى ذو مكانه وأمانة . (قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) . طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء[1] ؛ لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضى سبع سنى الخصب ، لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه ؛ من الاحتياط لهم والرفق بهم . وأخبر الملك أنه حفيظ ـ أى قوى على حفظ ما لديه ، أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء . وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

وعند أهل الكتاب : أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جدا ، وسلطه على جميع أرض مصر ، وألبسه خاتمه ، وألبسه الحرير وطوقه الذهب ، وحمله على مركبه الثانى ، ونودى بين يديه : أنت رب ومسلط ، وقال له : لست أعظم منك إلا بالكرسى . قالوا : وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ، وزوجه امرأة عظيمة الشان . وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته[2] وولاها يوسف . وقيل إنه لما مات ـ زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء ؛ لأن زوجها كان لا يأتى النساء ، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما : أفرايم ، ومنسا . قال : واستوثق ليوسف ملك مصر ، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء .

وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنه ، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة ، وفى كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها ، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه . فالله أعلم . قال الله تعالى : (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء) أى بعد السجن والضيق والحصر — صار مطلق الركاب بديار مصر ؛ (يتبوأ منها حيث يشاء) أى أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً . (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) ، أى هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن ، مع مايدخر له فى آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل . ولهذا قال : (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) . ويقال إن إطفير زوج زليخا كان قد مات ، فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا ، فكان وزير صدق . وذكر محمد ابن إسحق أن صاحب مصر — الوليد بن الريان — أسلم على يدى يوسف عليه السلام . فالله أعلم . وقد قال بعضهم .

وراء مضيق الخوف متسع الأمن　　وأول مفروح به غاية الحزن
فلا تيأسن ؛ فالله ملك يوسفا　　خزائنه بعد الخلاص من السجن

(وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ❊ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ

---

(١) الأهراء : جمع هرى بالضم . قال فى القاموس : وهو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان (٢) قيل : كان رئيس الشرطة

لـكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوفى الـكيل وأنا خير المنزلين ۞ فإن لم تأتونى به فلا كيل لـكم عندى ولا تقربون ۞ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ۞ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) . يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية ، يمتارون[1] طعاما ، وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد . وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية دينا ودنيا . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ماصار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

وعند أهل الـكتاب : أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم ، وأراد أن لايعرفوه فأغلظ لهم فى القول ، وقال : أنتم جواسيس ، جئتم لتأخذوا خير بلادى . فقالوا : معاذ الله ؛ إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا ، ونحن بنو أب واحد من كنعان ، ونحن اثنا عشر رجلا ذهب منا واحد ، وصغيرنا عند أبينا ؛ فقال لابد أن أستعلم أمركم . وعندهم : أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم ، واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر ، وفى بعض هذا نظر .

قال الله تعالى : (فلما جهزهم بجهازهم) — أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته ؛ من إعطاء كل إنسان حمل بعير لايزيده عليه (قال ائتونى بأخ لـكم من أبيكم) ، وكان قد سألهم عن حالهم ، وكم هم ؟ فقالوا : كنا اثنى عشر رجلا ، فذهب منا واحد وبقى شقيقه عند أبينا . فقال إذا قدمتم من العام المقبل فأتونى به معكم (ألا ترون أنى أوفى الـكيل وأنا خير المنزلين ؟) — أى قد أحسنت نزلـكم وقراكم ، فرغبهم ليأتوه به . ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال : (فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) أى فلست أعطيكم ميرة ، ولا أقربكم بالـكلية — عكس ما أسدى إليهم أولا . فاجتهد فى إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب . (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنجتهد فى مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن . (وإنا لفاعلون) أى وإنا لقادرون على تحصيله . ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم — وهى ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة — فى أمتعتهم من حيث لايشعرون بها (لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) . قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم ، وقيل خشى أن لايـكون عندهم مايرجعون به مرة ثانيه ، وقيل تذمم[2] أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة . وقد اختلف المفسرون فى بضاعتهم على أقوال سيأتى ذكرها . وعند أهل الـكتاب : أنها كانت صرراً من ورق ، وهو أشبه . والله أعلم .

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الـكيل ، فأرسل معنا أخانا نـكتل وإنا له لحافظون ۞ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ۞ ولما فتحوا

(١) أي يجلبونه . والميار : جالب الميرة وهي الطعام . (٢) أى استنكف .

متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا يا أبانا ما نبغى ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير * قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل * وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، و إنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم . وقولهم له : (منع منا الكيل) أى بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا ، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا . (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى ؟) أى أى شىء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا ؟ (ونمير أهلنا) أى نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم ، (ونحفظ أخانا ونزداد) بسببه (كيل بعير) . قال الله تعالى : (ذلك كيل يسير) أى فى مقابلة ذهاب ولده الآخر . وكان يعقوب عليه السلام أضن شىء بولده بنيامين ؛ لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ، و يتعوض بسببه منه . فلهذا قال : (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) أى إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به . (فلما آتوه موثقهم ، قال الله على ما نقول وكيل) . أكد المواثيق وقرر العهود ، واحتاط لنفسه فى ولده ، ولن يغنى حذر من قدر . ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة — لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالى يقدر مايشاء ويختار ما يريد ، و يحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

ثم أمرهم أن لايدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . قيل : أراد أن لايصيبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بديعة ، قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد ابن كعب وقتادة والسدى والضحاك . وقيل : أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر ، قاله إبراهيم النخعى . والأول أظهر . ولهذا قال : (وما أغنى عنكم من الله من شىء) ، وقال تعالى : (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء ، إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، و إنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون) .

وعند أهل الكتاب : أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل ، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضا آخر ، (فلما دخلو على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ * قالوا نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم *

قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم * قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شرمكانا والله أعلم بما تصفون * قالوا ياأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون) .

يذكر تعالى : ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف ، وإيوائه إليه ، وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكتم ذلك عنهم . وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه . ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم : فأمر فتيانه بوضع سقايته — وهى التى كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام — عن غرة فى متاع بنيامين ، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ، ووعدهم جعالة على رده — حمل بعير ، وضمنه المنادى لهم . فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم ، و (قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) . يقولون : أنتم تعلمون منا خلاف مارميتمونا به من السرقة ، (قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين) . وهذه كانت شريعتهم : أن السارق يدفع إلى المسروق منه . ولهذا قالوا : (كذلك نجزى الظالمين) .

قال الله تعالى : (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ فى الحيلة ، ثم قال الله تعالى : (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد فى رحله فهو جزاؤه — لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم فى سياسة ملك مصر ، (إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء) أى فى العلم (وفوق كل ذى علم عليم) . وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم ، وأتم رأياً وأقوى عزماً وحزماً ، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له فى ذلك ؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك : من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه .

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) — يعنون يوسف . قيل كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره . وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير — منطقة كانت لإسحق ، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لايشعر بما صنعت ، وإنما أرادت أن يكون عندها وفى حضانتها لمحبتها له . وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل غير ذلك . فلهذا : (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه) وهى كلمته بعدها ،

وقوله : (أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون) أجابهم سراً لاجهراً ، حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً ، فدخلوا معه فى الترفق والتعطف فقالوا : (يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ✲ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون) أى إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرىء ، وهذا مالا نفعله ولا نسمح به ، و إنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

وعند أهل الكتاب : أن يوسف تعرف إليهم حينئذ ، وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جيدا .
(فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل مافرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ✲ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ✲ واسأل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها ، و إنا لصادقون ✲ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ✲ وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ✲ قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ✲ قال إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون ✲ يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

يقول تعالى — مخبراً عنهم لما استيأسوا من أخذه منه : خلصوا يتناجون فيما بينهم ، قال كبيرهم وهو روبيل : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) ، لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ؟ لقد أخلفتم عهده ، وفرطتم فيه كما فرطتم فى أخيه يوسف من قبله ، فلم يبق لى وجه أقابله به (فلن أبرح الأرض) أى لا أزال مقيما ههنا (حتى يأذن لى أبى) فى القدوم عليه ، (أو يحكم الله لى) بأن يقدرنى على رد أخى إلى أبى . (وهو خير الحاكمين ✲ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) أى أخبروه بما رأيتم من الأمر فى ظاهر المشاهدة (وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ✲ واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) ، أى فإن هذا الذى أخبرناك به — من أخذهم أخانا لأنه سرق — أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التى كنا نحن وهم هناك . (وإنا لصادقون ✲ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) أى ليس الأمر كما ذكرتم ، لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقة ، وإنما (سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل) .

قال ابن إسحق وغيره : لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتباً على صنيعهم فى يوسف — قال لهم ماقال . وهذا كما قال بعض السلف : إن من جزاء السيئة السيئة بعدها . ثم قال : (عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً) يعني يوسف وبنيامين وروبيل ، (إنه هو العليم) أى بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبة

(الحكيم) فيما يقدره ويفعله ، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة (وتولى عنهم) أى أعرض عن بنيه (وقال يا أسفى على يوسف) ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم ، وحرك ما كان كامناً . كما قال بعضهم :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر : لقد لامنى عند القبور على البكا ... رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فقال : أتبكى كل قبر رأيته ؟ ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك[1]

فقلت له : إن الأسى يبعث الأسى ... فدعنى ، فهـذا كله قبر مالك

وقوله : (وابيضت عيناه من الحزن) أى من كثرة البكاء ، (فهو كظيم) أى مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف . فلما رأى بنوه مايقاسيه من الوجد وألم الفراق ـ (قالوا) له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه : (تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين) . يقولون : لاتزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك ، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك . (قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لاتعلمون) . يقول لبنيه : لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكو إلى الله عز وجل ، وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا فيه فرجا ومخرجاً ، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع ، ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى . ولهـذا قال : (وأعلم من الله ما لا تعلمون) .

ثم قال لهم محرضاً على تطلب يوسف وأخيه ، وأن يبحثوا عن أمرهما : (يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ـ أى لاتيأسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لاييأس من روح الله وفرجه ، وما يقدره من المخرج فى المضايق ـ إلا القوم الكافرون (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين ❊ قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ❊ قالوا أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لايضيع أجر المحسنين ❊ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ❊ قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ❊ اذهبوا بقميصى هـذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً ، وأتونى بأهلكم أجمعين) .

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ، ورغبتهم فيما لديه من الميرة ، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم . (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى من الجدب وضيق

---

(١) اللوى : ما التوى من الرمل ، أو مسترقه . والدكادك : جمع دكدك ودكداك : ما تكبس واستوى من الرمل ، وما تلبد بعضه على بعض بالأرض ولم يرتفع كثيراً .

الحال وكثرة العيال ، (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ضعيفة لايقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا . قيل كانت دراهم رديئة ، وقيل قليلة ، وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك . وعن ابن عباس : كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك . (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين) . قيل بقبولها ، قاله السدى . وقيل برد أخينا إلينا ، قاله ابن جريج . وقال سفيان بن عيينة : إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية ، رواه ابن جرير . فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال ـ تعرف إليهم وعطف عليهم ، قائلا لهم عن أمر ربه وربهم ، وقد حسر لهم عن جبينه الشريف ، ومايحويه من الخال الذى يعرفون فيه : (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ۞ قالوا) وتعجبوا كل العجب ، وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لايعرفون أنه هو : (أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى) ـ يعنى أنا يوسف الذى صنعتم معه ماصنعتم ، وسلف من أمركم فيه مافرطتم . وقوله : (وهذا أخى) ـ تأكيد لما قال ، وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد ، وعملوا فى أمرهما من الاحتيال . ولهذا قال : (قد من الله علينا) أى بإحسانه إلينا وصدقته علينا ، وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا . وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا ، وصبرنا على ما كان منكم إلينا ، وطاعتنا وبرنا لأبينا ، ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا . (إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ۞ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى فضلك وأعطاك مالم يعطنا ، (وإن كنا لخاطئين) أى فيما أسدينا إليك ، وهانحن بين يديك . (قال لا تثريب عليكم اليوم) أى لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا . ثم زادهم على ذلك فقال : (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) . ومن زعم أن الوقف على قوله لاتثريب عليكم ، وابتدأ بقول اليوم يغفر الله لكم ـ فقوله ضعيف والصحيح الأول .

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه ـ وهو الذى يلى جسده ـ فيضعوه على عينى أبيه ، فإنه يرجع إليه بصره ـ بعد ما كان ذهب ـ بإذن الله . وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات . ثم أمرهم أن يتحملوا[1] بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر ، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة ، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور . (فلما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ۞ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ۞ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ۞ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ۞ قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) .

قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل عن أبى سنان عن عبد الله بن أبى الهذيل قال : سمعت ابن عباس يقول : (فلما فصلت العير) قال : لما خرجت العير هاجت ريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف

---

(١) أى يرتحلوا .

فقال : (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) . قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام . وكذا رواه الثورى وشعبة وغيرهم عن أبى سنان به . وقال الحسن البصرى وابن جريج المكى : كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة . وقوله : (لولا أن تفندون) أى تقولون إنما قلت هذا من الفند – وهو الخرف وكبر السن . قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : تفندون – تسفهون . وقال مجاهد أيضاً والحسن : تهرمون . (قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) قال قتادة والسدى : قالوا له كلمة غليظة . قال الله تعالى : (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً) أى بمجرد ماجاء ألقى القميص على وجه يعقوب ، فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريراً . وقال لبنيه عند ذلك : (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون) أى أعلم أن الله سيجمع شملى بيوسف ، وستقر عينى به ، وسيرينى فيه ومنه مايسرنى . فعند ذلك (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) . طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه ، وما كانوا عزموا عليه . ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل – وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم . فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا ، وما عليه عولوا قائلا : (سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمى وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر . قال ابن جرير : حدثنى أبو السائب ، حدثنا ابن إدريس قال : سمعت عبد الرحمن بن إسحق يذكر عن محارب ابن دثار قال : كان عمّ لى يأتى المسجد فسمع إنساناً يقول : (اللهم دعوتنى فأجبت ، وأمرتنى فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لى) . قال : فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله : (سوف أستغفر لكم ربى) . وقد قال الله تعالى : (والمستغفرين بالأسحار) . وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟) . وقد ورد فى حديث : (أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة) .

قال ابن جرير : حدثنى المثنى ، قال : حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقى ، حدثنا الوليد ، أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ (سوف أستغفر لكم ربى) يقول : «حتى تأتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه» . وهذا غريب من هذا الوجه ، وفى رفعه نظر . والأشبه أن يكون موقوفا على ابن عباس رضى الله عنه .

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ✽ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ؛ قد جعلها ربى حقاً ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى ، إن

ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ۞ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) .

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة ، التى قيل إنها ثمانون سنة ، وقيل ثلاث وثمانون سنة ــ وهما روايتان عن الحسن . وقيل خمس وثلاثون سنة ، قاله قتادة . وقال محمد بن إسحاق : ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة . قال : وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة . وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريبا ؛ فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة ــ فيما قاله غير واحد ــ فامتنع . فكان فى السجن بضع سنين ؛ وهى سبع عند عكرمة وغيره . ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع . ثم لما أمحل الناس فى السبع البواقى ــ جاء إخوته يمتارون فى السنة الأولى وحدهم ، وفى الثانية ومعهم أخوه بنيامين ، وفى الثالثة تعرف إليهم وأمرهم باحضار أهلهم أجمعين ، فجاؤا كلهم ، (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) واجتمع بهما خصوصا وحدهما دون إخوته ، (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) . قيل هذا من المقدم والمؤخر ؛ تقديره : ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه . وضعفه ابن جرير وهو معذور . قيل تلقاهما وآواهما فى منزل الخيام ، ثم لما اقتربوا من باب مصر ــ (قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ، قاله السدى . ولو قيل إن الأمر لايحتاج إلى هذا أيضاً ، وإنه ضمن قوله ادخلوا : معنى اسكنوا مصر ، أو أقيموا بها ، (إن شاء الله آمنين) ــ لكان صحيحاً مليحاً أيضاً .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر ــ وهى أرض بلبيس ــ خرج يوسف لتلقيه ، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشراً بقدومه . وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر ؛ يكونون فيها ، ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم . وقد ذكر جماعة من المفسرين : أنه لما أزف قدوم نبى الله يعقوب ــ وهو إسرائيل ــ أراد يوسف أن يخرج لتلقيه ، فركب معه الملك وجنوده ؛ خدمة ليوسف وتعظيما لنبى الله «إسرائيل» . وأنه دعا للملك ، وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سنى الجدب ببركة قدومه إليهم . فالله أعلم .

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم ــ فيما قاله أبو إسحاق السبيعى عن أبى عبيدة عن ابن مسعود ــ ثلاثة وستين إنساناً . وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد : كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً . وقال أبو إسحاق عن مسروق : دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنسانا . قالوا : وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل . وفى نص أهل الكتاب : أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم .

قال الله تعالى : (ورفع أبويه على العرش) قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة . وقال بعض المفسرين : أحياها الله تعالى . وقال آخرون : بل كانت خالته «ليا» والخالة بمنزلة الأم . وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضى بقاء حياة أمه إلى يومئذ ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه . وهذا قوى والله أعلم . ورفعهما على العرش — أى أجلسهما معه على سريره ، (وخروا له سجدا) — أى سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر ؛ تعظيما وتكريما . وكان هذا مشروعا لهم ، ولم يزل ذلك معمولا به فى سائر الشرائع حتى حرم فى ملتنا . (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) — أى هذا تعبير ما كنت قصصته عليك : من رؤيتى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر ، حين رأيتهم لى ساجدين ، وأمرتنى بكتمانها ، ووعدتنى ما وعدتنى عند ذلك(١) . (قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) أى بعد الهم والضيق — جعلنى حاكما نافذ الكلمة فى الديار المصرية حيث شئت . (وجاء بكم من البدو) أى البادية . وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخيل (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) أى فيما كان منهم إلىّ من الأمر الذى تقدم وسبق ذكره . ثم قال : (إن ربى لطيف لما يشاء) — أى إذا أراد شيئا هيأ أسبابه ، ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدى إليها العباد ، بل يقدرها و ييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته . (إنه هو العليم) أى بجميع الأمور (الحكيم) فى خلقه وشرعه وقدره .

وعند أهل الكتاب : أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذى كان تحت يده — بأموالهم كلها ؛ من الذهب و الفضة ، والعقار والأثاث ، وما يملكونه كله ، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء . ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ، ويكون خمس مايستغلون من زرعهم وثمارهم — للملك ، فصارت سنة أهل مصر بعده . وحكى الثعلبى : أنه كان لا يشبع فى تلك السنين ، حتى لا ينسى الجيعان ، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار . قال : فمن ثم اقتدى به الملوك فى ذلك . قلت : وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — لا يشبع بطنه عام الرمادة ، حتى ذهب الجدب وأتى الخصب . قال الشافعى : قال رجل من الأعراب لعمر بعد ماذهب عام الرمادة : « لقد انجلت عنك و إنك لابن حرة » .

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت ، وشمله قد اجتمع — عرف أن هذه الدار لا يقربها قرار ، وأن كل شىء فيها ومن عليها فان ، وما بعد التمام إلا النقصان . فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله ، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله ، وسأل منه — وهو خير المسئولين — أن يتوفاه ، أى حين يتوفاه

---

(١) جاء فى الطبرى من روايات كثيرة : أنه كان بين رؤيا يوسف وتاويلها — أربعون سنة ، وقيل : ثمانى عشرة سنة .

على الإسلام ، وأن يلحقه بعباده الصالحين ، وهكذا كما يقال فى الدعاء : « اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين » أى حين تتوفانا .

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام ، كما سأل النبى ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين : كما قال : « اللهم فى الرفيق الأعلى ثلاثاً — ثم قضى » . ويحتمل أن يوسف عليه السلام : سأل الوفاة على الإسلام منجزاً فى صحة بدنه وسلامته ، وأن ذلك كان سائغاً فى ملتهم وشرعتهم ؛ كما روى عن ابن عباس أنه قال : ماتمنى نبى قط الموت قبل يوسف . فأما فى شريعتنا فقد نهى عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن ؛ كما فى حديث معاذ فى الدعاء الذى رواه أحمد : « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين » . وفى الحديث الآخر : « ابن آدم ، الموت خير لك من الفتنة » . وقالت مريم عليها السلام : (ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) . وتمنى الموت على بن أبى طالب ، لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال ، وكثر القليل والقال . وتمنى ذلك البخارى أبو عبد الله صاحب الصحيح ، لما اشتد عليه الحال ولقى من مخالفيه الأهوال .

فأما فى حال الرفاهية فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إما محسناً فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب . ولكن ليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » . والمراد بالضر ههنا — مايخص العبد فى بدنه ؛ من مرض ونحوه ، لا فى دينه . والظاهر أن نبى الله يوسف عليه السلام سأل ذلك : إما عند احتضاره ، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

وقد ذكر ابن إسحق عن أهل الكتاب : أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ، ثم توفى عليه السلام . وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحق . قال السدى : فصبره وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحق وجده الخليل عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب : أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة . وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ، ومع هذا قالوا : فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة . هذا نص كتابهم وهو غلط : إما فى النسخة أو منهم ، أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا ، فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا ؟ وقد قال تعالى فى كتابه العزيز : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون) ، يوصى بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام الذى بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكر أهل الكتاب : أنه أوصى بنيه واحداً واحداً ، وأخبرهم بما يكون من أمرهم ، و بشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب ـ وهو عيسى بن مريم . والله أعلم .

وذكروا : أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً ، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً . ثم استأذن يوسف ملك مصر فى الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله ـ فأذن له ، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها . فلما وصلوا حبرون دفنوه فى المغارة التى كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثى ، وعملوا له عزاء سبعة أيام . قالوا ثم رجعوا إلى بلادهم ، وعزى إخوة يوسف ـ يوسف فى أبيهم ، وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم ، فأقاموا ببلاد مصر . ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة ، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه . فحنطوه ووضعوه فى تابوت ، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام ، فدفنه عند آبائه كما سيأتى . قالوا : فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين . هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً . وقال مبارك ابن فضالة عن الحسن : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة . وقال غيره : أوصى إلى أخيه يهوذا ، صلوات الله عليه وسلامه .

قصة أيوب « عليه السلام »

قال ابن إسحق : كان رجلا من الروم . وهو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل ، وقال غيره : هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحق بن يعقوب ، وقيل غير ذلك فى نسبه . وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام ، وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقى فى النار فلم تحرقه . والمشهور الأول ؛ لأنه من ذرية إبراهيم ، كما قررنا عند قوله تعالى : (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون . . .) الآيات — من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام .

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم فى سورة النساء فى قوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ...) الآية . فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحق . وامرأته قيل : اسمها « ليا » بنت يعقوب ، وقيل رحمة بنت افرايم ، وقيل ليا بنت منسا بن يوسف بن يعقوب . وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا . ثم نعطف بذكر أنبياء بنى إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال الله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين ۞ فاستجبنا له فكشفنا

مابه من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين[1]) وقال فى سورة ص : (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب * وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) . وروى ابن عساكر من طريق الكلبى أنه قال : أول نبى بعث إدريس ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل ، ثم إسحق ، ثم يعقوب ، ثم يوسف ، ثم لوط ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم شعيب ، ثم موسى وهرون ، ثم إلياس ، ثم اليسع ، ثم عرفى[2] بن سوبالخ بن افرائيم ابن يوسف بن يعقوب ، ثم يونس بن متى من بنى يعقوب ، ثم أيوب بن زراح[3] بن آموص بن ليفرز ابن العيص بن إسحق بن إبراهيم . وفى بعض هذا الترتيب نظر ؛ فإن هوداً وصالحاً — المشهور أنهما بعد نوح وقبل إبراهيم . والله أعلم .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ؛ من الأنعام والعبيد والمواشى ، والأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران . وحكى ابن عساكر : أنها كلها كانت له . وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب منه ذلك جميعه ، وابتلى فى جسده بأنواع البلاء ، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر الله عز وجل بهما . وهو فى ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر الله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه . وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ؛ كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها . فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته . وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر ؛ لتطعمه وتقوم بأوده ، رضى الله عنها وأرضاها ، وهى صابرة معه على ماحل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل» ، وقال : «يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه» . ولم يزده هذا كله أيوب عليه السلام — إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً ؛ حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا . وقد روى عن وهب ابن منبه وغيره من علماء بنى إسرائيل فى قصة أيوب — خبر طويل ؛ فى كيفية ذهاب ماله وولده ، وبلائه فى جسده . والله أعلم بصحته . وعن مجاهد أنه قال : كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى . وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوال : فزعم وهب

(١) الآيتان : ٨٣ ، ٨٤ من سورة الأنبياء . (٢) فى نسخة : عربى . (٣) فى نسخة : راذح .

أنه ابتلى ثلاث سنين لاتزيد ولا تنقص ، وقال أنس : ابتلى سبع سنين وأشهراً ، وألقى على مزبلة لبنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده ، حتى فرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه . وقال حميد : مكث فى بلواه ثمانية عشرة سنة ، وقال السدى : تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب ، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته ، فلما طال عليها قالت : يا أيوب ؛ لو دعوت ربك لفرج عنك ، فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً ، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ؟ فجزعت من هذا الكلام ، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها ، لعلمهم أنها امرأة أيوب ؛ خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها — عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير ، فأتت به أيوب ، فقال من أين لك هذا ؟ وأنكره ، فقالت خدمت به أناساً . فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به ، فأنكره أيضاً ، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقاً قال فى دعائه : رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان ، فجاآ يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه . فقاما من بعيد ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم من أيوب خيراً — ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع مثله من شىء قط ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى ، فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط وأنا أعلم مكان عارفصدقنى ، فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم بعزتك وخر ساجداً ، فقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبداً حتى تكشف عنى ، فما رفع رأسه حتى كشف عنه[1] .

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير جميعاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرنى نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهرى عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : «إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ؛ إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له ؛ كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف مابه ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدرى ما تقول ؟ غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر

(١) لايقال إن ماذكر من بلاء أيوب يتنافى ومنصب النبوة ، وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة — فإن هذا الابتلاء : إما أن يكون قبل النبوة ، أو أنه مبالغ فيه ، فقد نقل عن أهل الكتاب وهو يحتمل التأويل إن صح .

على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق .
قال : وكان يخرج فى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع ، فلما كان ذات يوم أبطأت
عليه ، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه : أن (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) ، فاستبطأته فتلقته
تنظر ، وأقبل عليها قد أذهب الله مابه من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أى بارك
الله فيك ! هل رأيت نبى الله هذا المبتلى ؟ فوالله القدير على ذلك مارأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحاً .
قال : فإنى أنا هو . قال : وكان له أندران[1] : أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت
إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى
فاض » . هذا لفظ ابن جرير ، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان فى صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن
حرملة عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جداً ، والأشبه أن يكون موقوفاً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسمعيل ، حدثنا حماد ، أنبأنا على بن زيد عن
يوسف ابن مهران عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس فى ناحية ، فجاءت
امرأته فلم تعرفه ، فقالت ياعبد الله : أين ذهب هذا المبتلى الذى كان ههنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو
الذئاب ، وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك أنا أيوب ، قالت أتسخر منى ياعبد الله ؟ فقال ويحك
أنا أيوب قد رد الله على جسدى . قال ابن عباس : ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ، ومثلهم معهم .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إليه : « قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل
بهذا الماء فإن فيه شفاءك ، وقرب عن صحابتك قربانا ، واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك » . رواه ابن
أبى حاتم . وقال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبوزرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام عن قتادة عن النضر
ابن أنس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب عليه السلام ـ
أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل فى ثوبه ، قال : فقيل له يا أيوب أما تشبع ؟
قال : يارب ومن يشبع من رحمتك ؟ » . وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبى داود الطيالسى ، وعبد الصمد
عن همام عن قتادة به . ورواه ابن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدى عن إسحاق بن راهويه
عن عبد الصمد به . ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب ، وهو على شرط الصحيح . فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة : « أرسل على أيوب
رجل[2] من جراد من ذهب ، فجعل يقبضها فى ثوبه ، فقيل يا أيوب : ألم يكفك ما أعطيناك ؟ قال أى
رب : ومن يستغنى عن فضلك » . هذا موقوف . وقد روى عن أبى هريرة من وجه آخر مرفوعاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ماحدثنا أبوهريرة ،

(١) الأندر : البيدر ، وجمعه أنادر . (٢) الرجل بالكسر : الطائفة من الشىء والجماعة ، العظيمة من الجراد .

قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثى[1] فى ثوبه . فناداه ربه عز وجل : ياأيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غنى لى عن بركتك » ، رواه البخارى من حديث عبد الرزاق به .

وقوله : (اركض برجلك) أى اضرب الأرض برجلك . فامتثل ما أمر به ، فأنبع الله له عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى ، والسقم والمرض ، الذى كان فى جسده ظاهراً وباطناً . وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة ، وجمالا تاماً ومالا كثيراً ؛ حتى صب له من المال صبا — مطراً عظيما جراداً من ذهب . وأخلف الله له أهله ، كما قال تعالى : (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) فقيل أحياهم الله بأعيانهم ، وقيل آجره فيمن سلف ، وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم ، وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة . وقوله : (رحمة من عندنا) أى رفعنا عنه شدته ، وكشفنا مابه من ضر رحمة منا به ورأفة وإحساناً . (وذكرى للعابدين) أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة بنبى الله أيوب ؛ حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه . ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال : هى « رحمة » من هذه الآية — فقد أبعد النجعة وأغرق النزع . وقال الضحاك عن ابن عباس : رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ، ثم غيروا بعده دين إبراهيم .

وقوله : (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام ، فيما كان من حلفه — ليضربن امرأته مائة سوط . فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها ، وقيل لأنه عارضها الشيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب ، فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان ، فحلف ليضربنها مائة سوط . فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا — وهو كالعثكال[2] الذى يجمع الشماريخ — فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ، ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ، ويبر ولايحنث . وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولاسيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة ، المكابدة الصديقة البارة الراشدة — رضى الله عنها . ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله : (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) . وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة فى باب الأيمان والنذور ، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل فى الخلاص من الأيمان ، وصدروه بهذه الآية الكريمة ، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب . وسنذكر طرفاً من ذلك فى كتاب الأحكام ، عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

---

(١) يأخذ بيديه : (٢) العثكال : العذق والقنو من النخلة ، وكل غصن له شعب .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ : أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة ، وقيل إنه عاش أكثر من ذلك . وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه : أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء ، و بيوسف عليه السلام على الأرقاء ، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء ، رواه ابن عساكر بمعناه . وأنه أوصى إلى ولده « حومل » ، وقام بالأمر بعده ولده « بشر » ابن أيوب ، وهو الذى يزعم كثير من الناس أنه « ذو الكفل » فالله أعلم . ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون . وكان عمره من السنين خمساً وسبعين . ولنذكر ههنا قصة ذى الكفل ؛ إذ قال بعضهم : إنه ابن أيوب عليهما السلام . وهذه هى .

قصة ذى الكفل الذى زعم قوم أنه ابن أيوب

قال الله تعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء : (و إسماعيل و إدريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين)[1] وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً فى سورة ص : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق و يعقوب أولى الأيدى والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار * واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار)[2] فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء ـ أنه نبى ، عليه من ربه الصلاة والسلام .وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً ، وإنما كان رجلا صالحاً وحكما مقسطاً عادلا . وتوقف ابن جرير فى ذلك ، فالله أعلم .

وروى ابن جرير وأبى نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلا صالحاً . وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى بينهم بالعدل ، فسمى ذا الكفل[3] . وروى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق داود بن أبى هند عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى ، حتى أنظر كيف يعمل ؟ فجمع الناس فقال : من يتقبل منى بثلاث أستخلفه ؛ يصوم النهار ، و يقوم الليل ، ولا يغضب . قال : فقام رجل تزدريه العين ، فقال أنا . فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب ؟ قال نعم . قال : فرده ذلك اليوم ، وقال مثلها فى اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل فقال أنا ، فاستخلفه . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان ، فأعياهم ذلك . فقال دعونى وإياه ، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ـ وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة ـ فدق الباب فقال من هذا ؟ قال شيخ كبير مظلوم . قال : فقام ففتح الباب

---

(١) الآيتان : ٨٥ ، ٨٦ . (٢) الآيات : ٤٥ — ٤٨ .

(٣) الكفل : الحظ والنصيب ، والضعف من الأجر والإثم . قال الألوسى : وإطلاق ذلك عليه ـ إن لم يكن اسمه ـ إما لأنه تكفل بأمر فوفى به ، وإما لأنه كان ذا حظ من الله ، وقيل لأنه كان له ضعف عمل الأنبياء فى زمانه وضعف ثوابهم .

فجعل يقص عليه ، فقال إن بيني وبين قومي خصومة ، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة . فقال إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك . فانطلق وراح فكان في مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره ، فقام يتبعه . فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه ـ أتاه فدق الباب ، فقال من هذا ؟ فقال الشيخ الكبير المظلوم ، ففتح له . فقال ألم أقل لك إذا قعدت فأتني ؟ قال إنهم أخبث قوم ، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدوني . قال فانطلق فإذا رحت فأتني ، قال ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينتظره فلا يراه ، وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله : لاتدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام ، فإني قد شق على النوم . فلما كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل وراءك وراءك . فقال إني قد أتيته أمس وذكرت له أمري ، فقال : لا والله ، لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كوة[1] في البيت فتسور منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل . قال فاستيقظ الرجل ، فقال يافلان ألم آمرك ؟ قال أما من قبلي والله فلم تؤت ، فانظر من أين أتيت ؟ قال : فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه . فقال أعدو الله ؟ قال نعم . أعييتني في كل شيء ، ففعلت ماترى لأغضبك . فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر فوفى به .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس قريباً من هذا السياق ، وهكذا روى عن عبد الله ابن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذا . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الجماهر ، أنبأنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قال : سمعت الأشعري ـ يعني أبا موسى رضي الله عنه ـ وهو على هذا المنبر يقول : ماكان ذو الكفل نبياً ، ولكن كان رجل[2] صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمي ذا الكفل . ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة . قال : قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش عن عبد الله ابن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين ـ حتى عد سبع مرات ـ لم أحدث به ، ولكني قد سمعته أكثر من ذلك قال : « كان الكفل من بني إسرائيل لايتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ـ أرعدت وبكت ، فقال لها مايبكيك ؟ أأكرهتك ؟ قالت لا . ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملتني عليه الحاجة ، قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ! ثم نزل فقال اذهبي بالدنانير لك . ثم قال : والله لايعصى الله الكفل أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر

(١) الكوة ويضم ، والكو : الخرق في الحائط . أو التأنيث للصغير والتذكير للكبير .

(٢) يعني في بني إسرائيل .

الله للكفل ، ورواه الترمذى من حديث الأعمش به وقال حسن ، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر — فهو حديث غريب جداً وفى إسناده نظر ؛ فإن سعدا هذا — قال أبو حاتم — لا أعرفه إلا بحديث واحد . ووثقه ابن حبان ، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازى هذا . فالله أعلم . وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل ، وإنما لفظ الحديث ـ الكفل من غير إضافة[1] فهو رجل آخر غير المذكور فى القرآن . فالله أعلم .

باب ذكر امم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى . . . الآية[2]) . كما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء أو من الأرض — بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض — غير القرية التى مسخوا قردة . ألم تر أن الله تعالى يقول : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) ، ورفعه البزار فى رواية له . والأشبه والله أعلم وقفه . فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة ـ قبل موسى عليه السلام .

فمنهم أصحاب الرس ، قال الله تعالى فى سورة الفرقان : (وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيراً * وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً[3]) . وقال تعالى فى سورة ق : (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون و إخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد) . وهذا السياق والذى قبله ، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا ـ وهو الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج ؛ لأن أولئك عند ابن إسحق وجماعة ـ كانوا بعد المسيح عليه السلام . وفيه نظر أيضاً .

وروى ابن جرير قال قال ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود . وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر فى أول تاريخه ، عند ذكر بناء دمشق ـ عن تاريخ أبى القاسم عبد الله بن عبدالله بن جرداد[4] وغيره ـ أن أصحاب الرس كانوا بحضور[5] ، فبعث الله إليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان ، فكذبوه وقتلوه . فسار عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرس ، فنزل الأحقاف . وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا فى اليمن كلها ، وفشوا مع ذلك فى الأرض كلها . حتى نزل جيرون ابن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح — دمشق و بنى مدينتها ، وسماها جيرون — وهى إرم ذات العماد . وليس أعمدة الحجارة فى موضع أكثر منها — بدمشق ، فبعث الله هود بن عبدالله بن

---

(١) ذكر القرطبى هذا الحديث وفيه : ذو الكفل . (٢) الآية : ٤٢ من سورة القصص .
(٣) الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ . (٤) قوله عبد الله بن جرداد — كذا فى النسخ ، والمعروف ابن جراد .
(٥) فى القاموس : حضور كصبور : جبل ، وبلد باليمن .

رباح بن خالد بن الحلود بن عاد ، إلى عاد — يعنى أولاد عاد بالأحقاف — فكذبوه ، وأهلكم الله عز وجل . فهذا يقتضى أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم . وروى ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن أبى عاصم ، عن أبيه عن شبيب بن بشر ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : الرس بئر بآذر بيجان . وقال الثورى عن أبى بكر عن عكرمة قال : الرس بئر رسوا فيها نبيهم — أى دفنوه فيها

وقال ابن جريج قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة . قلت فإن كانوا أصحاب يس كما زعمه عكرمة — فقد أهلكوا بعامة ؛ قال الله تعالى فى قصتهم : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) وستأتى قصتهم بعد هؤلاء ، وإن كانوا غيرهم — وهو الظاهر — فقد أهلكوا أيضاً وتبروا . وعلى كل تقدير فينافى ماذكره ابن جرير .

وقد ذكر أبو بكر محمد ابن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفى أرضهم جميعها ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيما ، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان فى صورته وقال : إنى لم أمت ، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم . ففرحوا أشد الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً ، فصدق به أكثرهم ، وافتتنوا به وعبدوه . فبعث الله فيهم نبياً ، فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له .

قال السهيلى : وكان يوحى إليه فى النوم ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه فى البئر ، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ، ويبست أشجارهم ، وانقطعت ثمارهم ، وخربت ديارهم . وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن فى مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد وصوت الضباع . فأما مارواه — أعنى ابن جرير — عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن محمد بن كعب القرظى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود» ، وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبى فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم ، قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ويشترى به طعاماً وشراباً ، ثم يأتى به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت ، قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون . ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة ، فاضطجع فنام ، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً . ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر ، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام

إلا ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم إنه ذهب إلى الحفيرة — إلى موضعها الذى كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده . وقد كان بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه . قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ، فيقولون له ما ندرى ؟ حتى قبض الله النبى عليه السلام وهب الأسود من نومته بعد ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » . — فإنه[1] حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظى ، والله أعلم .

ثم قدرده ابن جرير نفسه ، وقال لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون فى القرآن ، قال : لأن الله أخبر عن أصحاب الرس : أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم . اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم . والله أعلم . ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف ؛ لما تقدم ـ ولما ذكر فى قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب فى الآخرة إن لم يتوبوا ، ولم يذكر هلاكهم ، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس . والله أعلم .

قصة قوم «يس» ومنهم أصحاب القرية أصحاب يس

قال الله تعالى : (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ✲ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ✲ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء ، إن أنتم إلا تكذبون ✲ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ✲ وما علينا إلا البلاغ المبين ✲ قالوا إنا تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ✲ قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ✲ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال يا قوم اتبعوا المرسلين ✲ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ✲ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ✲ أأتخذ من دونه آلهة ؟ إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ✲ إنى إذا لفى ضلال مبين ✲ إنى آمنت بربكم فاسمعون ✲ قيل ادخل الجنة قال : يا ليت قومى يعلمون ✲ بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ✲ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ✲ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون)[2] .

اشتهر عن كثير من السلف والخلف ـ أن هذه القرية «أنطاكية» . رواه ابن إسحق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه . وكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهرى وغيرهم . قال ابن إسحق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ أنهم قالوا : وكان لها ملك اسمه أنطيخس ابن أنطيخس وكان يعبد الأصنام . فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم : صادق ومصدوق[3] ، وشلوم ، فكذبهم ، وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل . وزعم قتادة أنهم كانوا رسلا من المسيح . وكذا قال

---

(١) قوله : فإن حديث مرسل — جواب قوله : فأما مارواه ابن جرير .

(٢) الآيات : ١٣ ـ ٢٩ من سورة يس (٣) فى نسخة : وصدوق .

ابن جرير عن وهب عن ابن سليمان عن شعيب الجبائى : كان اسم المرسلين الأولين : شمعون ، ويوحنا ، واسم الثالث ـ بولس ، والقرية أنطاكية . وهذا القول ضعيف جداً ؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين ـ كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح فى ذلك الوقت . ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التى تكون فيها بتاركة[1] النصارى . وهن : أنطاكية ، والقدس ، واسكندرية ، ورومية . ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا . وأهل هذه القرية المذكورة فى القرآن ـ أهلكوا ، كما قال فى آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) . لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون فى القرآن ، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فلما كان فى زمن المسيح آمنوا برسله إليهم ـ فلا يمنع هذا . والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة فى القرآن هى قصة أصحاب المسيح ـ فضعيف لما تقدم ؛ ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند الله . قال الله تعالى : (واضرب لهم مثلا) ـ يعنى لقومك يا محمد (أصحاب القرية) يعنى المدينة (إذ جاءها المرسلون ✽ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث) أى أيدناهما بثالث فى الرسالة ، (فقالوا إنا إليكم مرسلون) ، فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم ؛ كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم ، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً . فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام . (وما علينا إلا البلاغ المبين) ـ أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، والله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء . (قالوا إنا تطيرنا بكم) أى تشاءمنا بما جئتمونا به ، (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم) بالمقال ، وقيل بالفعال . ويؤيد الأول قوله : (وليمسنكم منا عذاب أليم) فوعدوهم بالقتل والإهانة . (قالوا طائركم معكم) ـ أى مردود عليكم (أإن ذكرتم ؟) أى بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه ـ توعدتمونا بالقتل والإهانة ؟ (بل أنتم قوم مسرفون) أى لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) يعنى لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم . (قال يا قوم اتبعوا المرسلين ✽ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) أى يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة[2] ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ماسواه ، مما لا ينفع شيئاً لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . (إنى إذا لفى ضلال مبين) أى إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه .

ثم قال مخاطباً للرسل : (إنى آمنت بربكم فاسمعون) قيل : فاستمعوا مقالتى واشهدوا لى بها عند ربكم ، وقيل معناه : فاسمعوا يا قومى إيمانى برسل الله جهرة . فعند ذلك قتلوه : قيل رجماً ، وقيل عضا ، وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه . وحكى ابن إسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال : وطئوه

---

(١) قال فى القاموس : البطرك كقمطر وجعفر — البطريق أو سيد المجوس ، والبطريق : القائد من قواد الروم .
(٢) الجعالة : الرشوة .

بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته . وقد روى الثورى عن عاصم الأحول عن أبى مجلز . كان اسم هذا الرجل « حبيب بن مرى » ثم قيل : كان نجاراً ، وقيل حباكا ، وقيل إسكافاً ، وقيل قصاراً ، وقيل كان يتعبد فى غار هناك . فالله أعلم . وعن ابن عباس : كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة فقتله قومه ، ولهذا قال تعالى : (ادخل الجنة) يعنى لما قتله قومه أدخله الله الجنة ، فلما رأى فيها من النضرة والسرور (قال ياليت قومى يعلمون ✽ بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) — يعنى ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لى .

قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : (ياقوم اتبعوا المرسلين) ، وبعد مماته فى قوله : (ياليت قومى يعلمون ✽ بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) . رواه ابن أبى حاتم . وكذلك قال قتادة : لايلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لايلقى غاشاً ؛ لما عاين ماعاين من كرامة الله . (قال ياليت قومى يعلمون ✽ بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه . قال قتادة : فلا والله ماعاتب الله قومه بعد قتله (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) . وقوله تعالى : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أى مااحتجنا فى الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم . هذا معنى مارواه ابن إسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال مجاهد وقتادة : وما أنزل عليهم جندا — أى رسالة أخرى . قال ابن جرير والأول أولى[1] ، قلت : وأقوى ، ولهذا قال : (وما كنا منزلين) أى وما كنا نحتاج فى الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ، (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل عليه السلام ، فأخذ بعضادتى الباب الذى لبلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون — أى قد أخمدت أصواتهم ، وسكنت حركاتهم ، ولم يبق منهم عين تطرف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم . فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح . فأما الحديث الذى رواه الطبرانى ، من حديث حسين الأشقر عن سفيان ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « السبّق ثلاثة : فالسابق إلى موسى — يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى — صاحب يٓس ، والسابق إلى محمد — على ابن أبى طالب » — فإنه[2] حديث لايثبت ؛ لأن حسينا هذا متروك وشيعى من الغلاة ، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية . والله أعلم .

---

(١) لأن الرسالة لا تسمى جندا .

(٢) قوله : فإنه حديث لا يثبت — جواب قوله : فأما الحديث الذى رواه الطبرانى .

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى فى سورة يونس : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين[١]) وقال تعالى فى سورة الأنبياء : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين[٢]) وقال تعالى فى سورة الصافات : (وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم * فلولا أنه كان من المسبحين * للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون * فنبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبتنا عليه شجرة من يقطين * وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين[٣]) . وقال تعالى فى سورة ن : (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربه فجعله من الصالحين[٤]) . قال أهل التفسير : بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل « نينوى » من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم . فلما طال ذلك عليه من أمرهم — خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم — قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، فلبسوا المسوح[٥] وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجوا[٦] إلى الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه ، و بكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات ، وجأرت الأنعام والدواب والمواشى : فرغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته — عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه ، ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم . ولهذا قال تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها) أى هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها ، فدل على أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال تعالى : (وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) . وقوله : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) . أى آمنوا بكمالهم .

---

(١) الآية : ٩٨ (٢) الآيتان : ٨٧ ، ٨٨ ،
(٣) الآيات : ١٣٩ — ١٤٨ (٤) الآيات : ٤٨ — ٥٠
(٥) جمع مسح بوزن ملح . وهو ثوب من الشعر غليظ ، وذلك لباس الزهاد (٦) أى صاحوا ورفعوا أصواتهم .

وقد اختلف المفسرون : هل ينفعهم هذا الإيمان فى الدار ، الآخرة ؟ فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى ؟ على قولين : الأظهر من السياق — نعم ، والله أعلم ، كماقال تعالى : (لما آمنوا) . وقال تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ✲ فآمنوا فمتعناهم إلى حين) ، وهذا المتاع إلى حين لاينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروى ، والله أعلم .

وقد كانوا مائة ألف لامحالة . واختلفوا فى الزيادة : فعن مكحول عشرة آلاف . وروى الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية : حدثنى أبى بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) قال : « يزيدون عشرين ألفاً » فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلا فى هذا الباب . وعن ابن عباس : كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً ، وعنه وبضعة وثلاثين ألفاً ، وعنه وبضعة وأربعين ألفاً . وقال سعيد بن جبير : كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً .

واختلفوا : هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟ أو هما أمتان ؟ على ثلاثة أقوال : هى مبسوطة فى التفسير . والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ، ركب سفينة فى البحر فلجت بهم ، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها ، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون . قالوا فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا ، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه . فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً ، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه — فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً ؛ لما يريده الله به من الأمر العظيم . قال الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين ✲ إذ أبق إلى الفلك المشحون ✲ فساهم فكان من المدحضين ✲ فالتقمه الحوت وهو مليم) . وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى فى البحر ، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيما من البحر الأخضر فالتقمه ، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها . وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه . قالوا: ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات ، فحرك جوارحه فتحركت ، فإذا هو حى ، فخر لله ساجداً وقال : يا رب اتخذت لك مسجداً فى موضع لم يعبدك أحد فى مثله .

وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه . فقال مجالد عن الشعبى : التقمه ضحى ولفظه عشية ، وقال قتادة : مكث فيه ثلاثاً ، وقال جعفر الصادق سبعة أيام . ويشهد له شعر أمية بن أبى الصلت .

وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وقال سعيدبن أبى الحسن وأبو مالك : مكث فى جوفه أربعين يوماً . والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه .

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية ، ويقتحم به لجج الموج الأجاجى ، سمع تسبيح الحيتان للرحمن ، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع والأرضين السبع ومابينها وماتحت الثرى . فعند ذلك وهنالك ، قال ماقال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال ، الذى يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى . سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال فى كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإلـه المرسلين : (وذا النون إذ ذهب) أى إلى أهله (معاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إلـه إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ✲ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) . (فظن أن لن نقدر عليه) أى نضيق عليه . وقيل معناه : نقدر — من التقدير وهى لغة مشهورة ، قدِر وقدَّر كما قال الشاعر .

فلا عائد ذاك الزمان الذى مضى تباركت ؛ ماتقدر يكن ، فلك الأمر

(فنادى فى الظلمات) قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقال سالم بن أبى الجعد : ابتلع الحوت حوت آخر فصارت ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر . وقوله تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين ✲ للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) قيل معناه : لولا أنه سبح الله هنالك ، وقال ماقال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع ، والتوبة إليه والرجوع إليه ـ للبث هنا لك إلى يوم القيامة ، ولبعث من جوف ذلك الحوت . هذا معنى ما روى عن سعيد بن جبير فى إحدى الروايتين عنه .

وقيل معناه : (فلولا أنه كان) من قبل أخـذ الحوت له (من المسبحين) أى المطيعين المصلين الذا كرين الله كثيراً ، قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدى وعطاء بن السائب والحسن البصرى وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير . ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : « يا غلام إنى معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» .

وروى ابن جرير فى تفسيره ، والبزار فى مسنده من حديث محمد بن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت — أوحى الله إلى الحوت : أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر ـ سمع يونس حساً ، فقال فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : فسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائـكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفا بأرض غريبة ، قال ذلك عبدى يونس ، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر . قالوا : العبد

الصالح؛ الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال نعم. قال فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله: (وهو سقيم)» هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً. ثم قال البزار لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، كذا قال.

وقد قال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنى أبو صخر: أن يزيد الرقاشى قال: سمعت أنس بن مالك — ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول: «إن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا لا يارب ومن هو؟ قال عبدى يونس، قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قالوا يا ربنا! أولا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال بلى. فأمر الحوت فطرحه فى العراء». ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به. زاد ابن أبى حاتم: قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرنى ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث، أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قال شجرة الدباء. قال أبو هريرة: وهيأ الله له أروية[1] وحشية تأكل من خشاش[2] الأرض — أو قال هشاش الأرض. قال: فتفشخ[3] عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت. وقال أمية ابن أبى الصلت فى ذلك بيتاً من شعره.

فأنبت يقطينا عليه برحمة من الله لولا الله أصبح ضاويا

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه. ويزيد الرقاشى ضعيف، ولكن يتقوى بحديث أبى هريرة المتقدم؛ كما يتقوى ذاك بهذا، والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: (فنبذناه) أى ألقيناه (بالعراء) وهو المكان القفر الذى ليس فيه شىء من الأشجار — بل هو عار منها، (وهو سقيم) أى ضعيف البدن. قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال ابن عباس والسدى وابن زيد: كهيئة الصبى حين يولد، وهو المنفوس ليس عليه شىء. (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب ابن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدى وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء: فى إنبات القرع عليه حكم جمة؛ منها أن ورقه فى غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره — نيا ومطبوخاً، وبقشره وببزره أيضاً. وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك. وتقدم كلام أبى هريرة فى تسخير الله تعالى له تلك الأروية التى كانت

---

(١) الأروية بالضم والكسر — الأنثى من الوعول. (٢) الخشاش: حشرات الأرض، والعصافير ونحوها.
(٣) التفشيخ: إرخاء المفاصل.

ترضعه لبنها وترعى فى البرية ، وتأتيه بكرة وعشية . وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه .
ولهذا قال تعالى : (فاستجبنا له فنجيناه عن الغم) أى الكرب والضيق الذى كان فيه ، (وكذلك ننجى المؤمنين) أى وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

قال ابن جرير : حدثنى عمران بن بكار الكلاعى ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدثنى بشر بن منصور عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن مالك — وهو ابن أبى وقاص — يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى — دعوة يونس بن متى » قال فقلت : يارسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى : (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ۞ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) ؛ فهو شرط من الله لمن دعاه به » . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب . قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب — يعنى ابن سعد — عن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «من دعا بدعاء يونس استجيب له » . قال أبو سعيد الأشج يريد به : (وكذلك ننجى المؤمنين) . وهذان طريقان عن سعد .

وثالث أحسن منهما : قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبى إسحق الهمدانى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثنى والدى محمد عن أبيه سعد — وهو ابن أبى وقاص — قال : مررت بعثمان بن عفان فى المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت ياأمير المؤمنين : هل حدث فى الإسلام شىء ؟ قال : لا . وماذاك ؟ قلت لا — إلا أنى مررت بعثمان آنفاً فى المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال ما فعلت . قال سعد : قلت بلى ، حتى حلف وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه . إنك مررت بى آنفاً ، وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة . قال سعد فأنا أنبئك بها ، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : « من هذا أبو إسحق ؟ » قال : قلت نعم يارسول الله . قال : « فمه » ، قلت لا والله — إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك . قال : « نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت ، (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) ، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » ، ورواه الترمذى والنسائى من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به .

ذكر فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين) ، وذكره تعالى فى جملة الأنبياء الكرام فى سورتى النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ، ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى به . وقال البخارى أيضاً : حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة عن قتادة عن أبى العالية عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه » . ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به . قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبى العالية سوى أربعة أحاديث ، هذا أحدها . وقد رواه الإمام أحمد عن عفان عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ماينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ، تفرد به أحمد . ورواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان ، حدثنا عبد الله ابن رجاء ، أنبأنا إسرائيل عن أبى يحيى العتاب عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغى لأحد أن يقول أنا عند الله خير من يونس بن متى » . إسناده جيد ولم يخرجوه .

وقال البخارى : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم : سمعت حميد بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ، وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به . وفى البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل عن عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج عن أبى هريرة فى قصة المسلم الذى لطم وجه اليهودى حين قال : لا والذى اصطفى موسى على العالمين ـ قال البخارى فى آخره : «ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى [1] » أى ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس . والقول الآخر : لا ينبغى لأحد أن يفضلنى على يونس بن متى ، كما قد ورد فى بعض الأحاديث : « لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى » وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين .

ذكر قصة موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، قال تعالى : (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا ✲ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ✲ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً [2]) وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة

---

(١) الحديث بتمامه فى البخارى ، فى كتاب أحاديث الأنباء وأوله : بينما يهودى يعرض سلعته أعطى بها شيئاً كرهه فقال : لا والذى اصطفى موسى على البشر . . . الخ (٢) الآيات : ٥١ — ٥٣ من سورة مريم .

متفرقة من القرآن . وذكر قصته فى مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة . وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه من التفسير . وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها ؛ من الكتاب والسنة وما ورد فى الآثار المنقولة من الإسرائيليات التى ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله . وبه الثقة وعليه التكلان . قال الله تعالى .

(بسم الله الرحمن الرحيم طسم . تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)[1] .

يذكر تعالى ملخص القصة ؛ ثم يبسطها بعد هذا ، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق ، أى بالصدق الذى كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له . (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً) ، أى تجبر وعتا وطغى وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى . وجعل أهلها شيعاً — أى قسم رعيته إلى أقسام ، وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم — وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض . وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم و يستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ، ومع هذا (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) . وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح — أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام ؛ من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه . وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر ؛ من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها . وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته[2] وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل ؛ حذراً من وجود هذا الغلام ، ولن يغنى حذر من قدر .

وذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأى فى منامه ؛ كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة . وسألهم عن ذلك ، فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء ، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل

---

(١) الآيات من أول سورة القصص (٢) جمع أسوار بالضم والكسر وهو : قائد الفرس .

الغلمان وترك النسوان ، ولهذا قال الله تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) وهم بنو إسرائيل ، (ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) أى الذين يئول ملك مصر وبلادها إليهم . (ونمكن لهم فى الأرض وَنُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادراً والذليل عزيزاً . وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل ، كما قال تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا . . . الآية) ، وقال تعالى : (فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل)[1] وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه إن شاء الله .

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى ، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته . وعند أهل الكتاب : أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان ، لتضعف شوكة بنى إسرائيل ، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم . وهذا فيه نظر ، بل هو باطل . وإنما هـذا فى الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى ، كما قال تعالى : (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) . ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا) . فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولا — حذراً من وجود موسى . هذا ، والقدر يقول : يا أيهذا الملك الجبار ، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع ، ولا تخالف أقداره : أن هذا المولود الذى تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس مالا يعد ولا يحصى — لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك . وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتفداه ، ولا تطلع على سر معناه . ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه ؛ لمخالفتك ماجاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحى إليه ؛ لتعلم أنت وسائر الخلق ـ أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوى الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول والقوة ، والمشيئة التى لامرد لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل ، بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون ـ فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً . فذكروا أن هٰرون عليه السلام ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم ، فضاقت أمه به ذرعاً واحترزت من أول ماحبلت ، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل . فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له

---

(١) الآيات : ٥٧ — ٥٩ من سورة الشعراء .

تابوتاً ، فربطته فى حبل وكانت دارها متاخمة للنيل ، فكانت ترضعه ، فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت ، فأرسلته فى البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به .

قال الله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لايشعرون) . هذا الوحى وحى إلهام و إرشاد كما قال تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا . . . الآية)[1] وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين . بل الصحيح الأول ، كما حكاه أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة .

قال السهيلى : واسم أم موسى « أيارخا » ، وقيل « أياذخت »[2] . والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذى ذكرناه ، وألقى فى خلدها وروعها أن لاتخافى ولاتحزنى ؛ فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك ، وإن الله سيجعله نبياً مرسلا ، يعلى كلمته فى الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ماأمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل ، فمر على دار فرعون (فالتقطه آل فرعون) قال الله تعالى : (ليكون لهم عدواً وحزناً) . قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله فالتقطه . وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام — وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً — صارت اللام معللة كغيرها ، والله أعلم . و يقوى هذا التقدير الثانى قوله : (إن فرعون وهامان) وهو الوزير السوء (وجنودهما) التابعين لهما (كانوا خاطئين) — أى كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسرون : أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه ، فلم يتجاسرن على فتحه ، حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون « آسية » بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد ، الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف . وقيل إنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى . وقيل بل كانت عمته ، حكاه السهيلى ، فالله أعلم . وسيأتى مدحها والثناء عليها فى قصة مريم بنت عمران ، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة .

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب ـ رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه — أحبته حباً شديداً جداً . فلما جاء فرعون قال : ماهذا ؟ وأمر بذبحه ،

---

(١) الآيتان : ٦٨ ، ٥٨ من سورة النحل .

(٢) الذى فى تفسير القرطبي عن الثعلبي : لوخا بنت هاند بن لاوا بن يعقوب . وفى بعض التفاسير اسمها : « يوحانذ »

فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت : (قرة عين لى ولك) . فقال لها فرعون : أما لك فنعم ، وأما لى فلا . أى لاحاجة لى به ، « والبلاء موكل بالمنطق » . وقولها : (عسى أن ينفعنا) قد أنالها الله مارجت من النفع : أما فى الدنيا فهداها الله به ، وأما فى الآخرة فأسكنها جنته بسببه . (أو نتخذه ولدا) وذلك أنهما تبنياه ؛ لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى : (وهم لايشعرون) أى لايدرون ماذا يريد الله بهم — أن قبضهم لالتقاطه — من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده ؟ .

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون * وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟ وهم له ناصحون ؟ * فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون) . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً) أى من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى (إن كادت لتبدى به) أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة (لولا أن ربطنا على قلبها) أى صبرناها وثبتناها (لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته) وهى ابنتها الكبيرة : (قصيه) أى اتبعى أثره ، واطلبى خبره (فبصرت به عن جنب) . قال مجاهد : عن بعد ، وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لاتريده . ولهذا قال : (وهم لايشعرون) ، وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون — أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً ، فحاروا فى أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ؛ كما قال تعالى : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته . فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه — إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟) . قال ابن عباس : لما قالت ذلك ، قالوا لها مايدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة فى سرور الملك ورجاء منفعته[1] ، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه . فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى « آسية » يعلمها بذلك ، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلا وأولاداً ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى . فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات ، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى : (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق) أى كما وعدناها برده ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل على صدق البشارة برسالته . (ولكن أكثرهم لايعلمون) ،

(١) ألهمها الله أن تقول ذلك ؛ لأنهم شكوا فى أمرها حين قالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟

وقد امتن الله على موسى بهـذا ليلة كلمه ، فقال له فيما قال : (ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك مايوحي * أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) قال قتادة وغير واحد من السلف : أى تطعم وترفه ، وتغذى بأطيب المـآكل ، وتلبس أحسن الملابس — بمرأى منى ، وذلك كله بحفظى وكلاءتى لك فيما صنعت بك لك ، وقدرته من الأمور التى لايقدر عليها غيرى . (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ؟ فرددناك إلى أمك كى تقر عينها ولاتحزن ، وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً) . وسنورد حديث الفتون فى موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى ، و به الثقة وعليه التكلان .

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين * ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين * قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى ، فغفر له إنه الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين) . لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها — شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشـده واستوى ، وهو احتكام الخلق والخلق ، وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين — آتاه الله حكما وعلماً ، وهو النبوة والرسـالة التى بشر بها أمه حين قال : (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) .

ثم شرع فى ذكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك ، حتى كمل الأجل وانقضى الأمد ، وكان ما كان من كلام الله له ، و إكرامه بما أكرمه به كما سيأتى . قال تعالى : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشائين (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أى يتضاربان و يتهاوشان (هذا من شيعته) أى إسرائيلى ، (وهذا من عدوه) أى قبطى . قاله ابن عباس وقتادة والسدى ومحمد ابن إسحاق (فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه) ، وذلك أن موسى عليه السلام ، كانت له بديار مصر صولة ؛ بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته . وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة ، وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه ، وهم أخواله — أى من الرضاعة ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلى موسى عايه السلام على ذلك القبطى — أقبل إليه موسى (فوكزه) . قال مجاهد : أى طعنه بجُمع كفه ، وقال قتادة : بعصا كانت معه ، (فقضى عليه) أى فمات منها . وقد كان ذلك القبطى كافراً مشركا بالله العظيم . ولم يرد موسى قتله بالـكلية ، وإنما أراد زجره وردعه . ومع هذا — (قال) موسى : (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إنى ظلمت نفسي

فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت على) أى من العز والجاه (فلن أكون ظهيراً للمجرمين * فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : إنك لغوى مبين * فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ، إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين * وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين * فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين) .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً ـ أى من فرعون وملائه — أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم — (خائفاً يترقب) أى يتلفت . فبينما هو كذلك ، إذا ذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس يستصرخه ـ أى يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله ـ فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته ، قال له : (إنك لغوى مبين) . ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى ، الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى ، فيردعه عنه ويخلصه منه . فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطى ، (قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس . إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من الصلحين) . قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام — الاسرائيلى الذى اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطى اعتقد أنه جاء إليه ؛ لما عنفه قبل ذلك بقوله : إنك لغوى مبين ، فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذى كان وقع بالأمس فذهب القبطى فاستدعى فرعون على موسى . وهذا الذى لم يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل أن قائل هذا هو القبطى ، وأنه لما رآه مقبلا إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصارا جديداً للإسرائيلى ، فقال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله قاتل ذلك القتيل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلى حين استصرخه عليه ما دله على هذا . والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس ، فأرسل فى طلبه . وسبقهم رجل[1] ناصح من طريق أقرب . (وجاء من أقصى المدينة) ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال : (يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج) أى من هذه البلدة (إنى لك من الناصحين) أى فيما أقوله لك .

قال الله تعالى : (فخرج منها خائفاً يترقب) — أى فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه ، لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه ، قائلا : (رب نجنى من القوم الظالمين * ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون * ووجد من دونهم

(١) قال ابن جرير : هذا الرجل يقال له شمعان . وقد وصف بالرجولة ؛ لسلوكه طريقاً أقرب ليلحق بموسى قبل رسل فرعون .

امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير * فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) . يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقب — أى يتلفت — خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدرى أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ؛ وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها . (ولما توجه تلقاء مدين) أى اتجه له طريق يذهب فيه ، (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود . وكذا وقع ، فقد أوصلته إلى مقصود وأى مقصود (ولما ورد ماء مدين) وكانت بئراً يستقون منها . ومدين هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة — وهم قوم شعيب عليه السلام — وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء . ولما ورد الماء المذكور (وجد عليه أمة من الناس يسقون * ووجد من دونهم امرأتين تذودان) أى تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس . وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات ، وهذا أيضاً من الغلط ، ولعلهن كن سبعا ، ولكن إنما كان تسقى اثنان منهن . وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً ، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين (قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) أى لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء — لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية — ضعف أبينا و كبره . قال الله تعالى : (فسقى لهما) .

قال المفسرون : وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم — وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما[1] فى فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان . قال أمير المؤمنين عمر : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما ، ثم تولى إلى الظل ، قالوا : وكان ظل شجرة من السمر[2] . روى ابن جرير عن ابن مسعود ، أنه رآها خضراء ترف (فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) . قال ابن عباس : سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء ، وجلس فى الظل — وهو صفوة الله من خلقه — وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . قال عطاء ابن السائب لما قال : (رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) — أسمع المرأة (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين * قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين * قال إنى

---

(١) التشريع : إيراد الدواب شريعة — أى موردا لا يحتاج معه إلى سقى بالرشاء أو نحوه . يقال : شرع — تناول الماء بفيه ، وشرعت الدواب فى الماء — أى دخلت . (٢) جمع سمرة : من شجر الطلح .

أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بينى و بينك ، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل) .

لما جلس موسى عليه السلام فى الظل وقال : (رب إنى لما أنزلت من خير فقير) — سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما ، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام . فأمر إحداهما ، أن تذهب إليه فتدعوه ، (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) أى مشى الحرائر ، (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) . صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة ، وهذا من تمام حيائها وصيانتها . (فلما جاءه وقص عليه القصص) وأخبره خبره ، وما كان من أمره فى خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها ، (قال) له ذلك الشيخ : (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أى خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم .

وقد اختلفوا فى هذا الشيخ من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام ، وهذا هو المشهور عند كثيرين وممن نص عليه ـ الحسن البصرى ومالك بن أنس ، وجاء مصرحا به فى حديث ، ولكن فى إسناده نظر . وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلا بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته . وروى ابن أبى حاتم وغيره من الحسن البصرى : أن صاحب موسى عليه السلام هذا — اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ، ولكن ليس بالنبى صاحب مدين . وقيل : إنه ابن أخى شعيب ، وقيل : ابن عمه ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقيل : رجل اسمه « يثرون » ، هكذا هو فى كتب أهل الكتاب : يثرون كاهن مدين أى كبيرها وعالمها . قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله : اسمه يثرون . زاد أبو عبيدة : وهو ابن أخى شعيب . وزاد ابن عباس : صاحب مدين .

والمقصود : أنه لما أضافه وأكرم مثواه ، وقص عليه ما كان من أمره — بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : ياأبت استأجره — أى لرعى غنمك ، ثم مدحته بأنه قوى أمين ، قال عمرو ابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحق وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ فقالت إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال : كونى من ورائى ، فإذا اختلف الطريق فأخذ فى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرس[1] الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته أكرمى مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت : (ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) ، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب . (قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تخبرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) . استدل بهذه

(١) هو من الفراسة بكسر الفاء . اسم من التفرس ، وهو التثبت ودقة النظر .

جماعة من أصحاب أبى حنيفه رحمه الله — على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك ـ أنه يصح ؛ لقوله : إحدى ابنتى هاتين . وفى هذا نظر ؛ لأن هذه مراوضة لا معاقدة . والله أعلم .

واستدل أصحاب أحمد على صحة الاستئجار بالطعمة والكسوة ، كما جرت به العادة . واستأنسوا بالحديث الذى رواه ابن ماجة فى سننه مترجماً فى كتابه : [باب استئجار الأجير على طعام بطنه] حدثنا محمد بن المصفى الحمصى ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن مسلمة بن على عن سعيد بن أبى أيوب ، عن الحارث ابن يزيد عن على بن رباح قال : سمعت عتبة ابن النُّدَّر يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طسم ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثمانى سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه » ، وهذا الحديث من هذا الوجه لا يصح ؛ لأن مسلمة بن على الخُشَنِى الدمشقى البلاطى — ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده . ولكن قد روى من وجه آخر ، فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر ، حدثنى ابن لهيعة « ح » وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة ابن النُّدَّر السلمى صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه » . ثم قال تعالى : (ذلك بينى و بينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على مانقول وكيل) ، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ماقلت ، فأيهما قضيت فلا عدوان علىّ والله على مقالتنا سامع وشاهد ، ووكيل على وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخارى : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . تفرد به البخارى من هذا الوجه . وقد رواه النسائى فى حديث الفتون ؛ كما سيأتى من طريق القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير . وقد رواه ابن جرير عن أحمد ابن محمد الطوسى وابن أبى حاتم عن أبيه — كلاهما عن الحميدى ، عن سفيان بن عيينة ، حدثنى إبراهيم ابن يحيى بن أبى يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » . وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى عن سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره .

وقد رواه سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مرسلا : أن رسول الله سأل عن ذلك جبريل

---

(١) المراوضة : المدارة والمجاذبة فى البيع والشراء ، وهو ما يجرى بين المتعاقدين من الزيادة والنقصان .

فسأل جبريل إسرافيل ، فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال : « أبرهما وأوفاهما » ، وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلا . ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله ﷺ سئل : أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأتمهما » . وقد رواه البزاز وابن أبي حاتم من حديث عويذ ابن أبي عمران الجونى وهو ضعيف ، عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما قال : وإن سئلت أى المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح عن عتبة بن النُدَّر أن رسول الله قال : « إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه » فلما وفى الأجل قيل : يا رسول الله أى الأجلين ؟ قال : « أبرهما وأوفاهما » .

فلما أراد فراق شعيب — سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه مايعيشون به ، فأعطاها ماولدت غنمه ، من قالب لون[1] من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حساناً ، فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها ، ثم وضعها فى أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض ، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة ، قال : « فأتأمت[2] وألبنت[3] » ووضعت كلهاقوالب ألوان ، إلاشاة أو شاتين ليس فيها فشوش ، ولا ضبوب ، ولا عزوز ، ولا ثعول ، ولا كموش تفوت الكف . قال النبى ﷺ : « لو اقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية » ، قال ابن لهيعة : « الفشوش — واسعة الشخب ، والضبوب — طويلة الضرع تجره . والعزوز — ضيقة الشخب ، والثعول — الصغيرة الضرع كالحلمتين ، والكموش — التى لايحكم الكف على ضرعها لصغره . وفى صحة رفع هذا الحديث نظر . وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبى عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : « لما دعا نبى الله موسى صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها ، فعمد موسى فوضع خيالا على الماء فلما رأت الخيال فزعت ، فجالت جولة فولدن كلهن بلقاً[4] إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام » . وهذا إسناد رجاله ثقات ، والله أعلم .

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله « لابان » — أنه أطلق له مايولد من غنمه بلقاً ففعل نحو ماذكر عن موسى عليه السلام . فالله أعلم .

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً ، قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ☆ فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى

---

(١) القالب : البسرة إذا تغير لونها واحمرت ، وشاة قالب لون — إذا كانت على غير لون أمها

(٢) التوأم من جميع الحيوان : المولود مع غيره فى بطن ، من الاثنين فصاعدا ذكراً أو أنثى . ويقال أتأمت الأم فهى متئم

(٣) أى كثر لبنها . (٤) البلق بالتحريك : سواد وبياض .

البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين * وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين * اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين) تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : (فلما قضى موسى الأجل) . وعن مجاهد أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها وقوله : (وسار بأهله) أى من عند صهره ، زاعما — فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم — أنه اشتاق إلى أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف ، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه ، قالوا : واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة — تاهوا فى طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف . وجعل يورى زناده فلا يورى شيئاً ، واشتد الظلام والبرد . فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج فى جانب الطور — وهو الجبل الغربى منه عن يمينه — (فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً) وكأنه والله أعلم رآها دونهم ؛ لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ، (لعلى آتيكم منها بخبر) أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق (أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة ومظلمة ؛ لقوله فى الآية الأخرى : (وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً ، لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى[1]) فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق . وجمع الكل فى سورة النمل فى قوله : (إذ قال موسى لأهله إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) . وقد أتاهم منها بخبر وأى خبر ، ووجد عندها هدى وأى هدى ، واقتبس منها نوراً وأى نور .

قال الله تعالى : (فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين) وقال فى النمل : (فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) أى سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، (يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) ، وقال فى سورة طه : (فلما أتاها نودى يا موسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) . قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها — وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج[2] ، وكل ما لتلك النار فى اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد . فوقف متعجباً ، وكانت تلك الشجرة فى لحف[3] جبل غربى منه عن يمينه ، كما قال تعالى : (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين) . وكان

---

(١) الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة طه . (٢) أى الشوك (٣) اللحف بالكسر : أصل الجبل .

موسى فى واد اسمه « طُوَى » ، فكان موسى مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب . فناداه ربه بالوادالمقدس طوى ، فأمر أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريماوتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيما فى تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب : أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور ؛ مهابة له وخوفا على بصره . ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له : (إنى أنا الله رب العالمين) (إننى أنا الله لا إلـه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) أى أنا رب العالمين الذى لا إلـه إلا هو ، الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له . ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة ، التى لا بد من كونها ووجودها (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى من خير وشر . وحضه وحثه على العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها ؛ ممن عصى مولاه واتبع هواه . ثم قال له مخاطباً ومؤانسا ومبينا له أنه القادر على كل شىء ، الذى يقول للشىء كن فيكون : (وما تلك بيمينك يا موسى ؟) أى أما هذه عصاك التى نعرفها منذ صحبتها ؟ (قال هى عصاى أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) . أى بل هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها ، (قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى) . وهـذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه يقول للشىء كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب : أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر ، فقال له الرب عز وجل : ما هذه التى فى يدك ؟ قال عصاى ، قال ألقها إلى الأرض (فألقاها فإذا هى حية تسعى) ، فهرب موسى من قدامها ، فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ارتدت عصا فى يده . وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى : (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب) أى قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك ، وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان[1] ، وهو ضرب من الحيات ـ يقال الجان والجنان ـ وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدا ، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة . فلما عاينها موسى عليه السلام — (ولى مدبرا) أى هارباً منها، لأن طبيعته البشرية تقتضى ذلك (ولم يعقب) أى ولم يلتفت ، فناداه ربه قائلا له : (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) ، فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها . (قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) ، فيقال إنه هابها شديداً ، فوضع يده فى كم مدرعته ، ثم وضع يده فى وسط فمها . وعند أهل الكتاب : أمسك بذنبها ، فلما استمكن منها إذا هى قد عادت كما كانت عصا ذا شعبتين . فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين .

ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه ، ثم أمره بنزعها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء — أى من غير برص ولا بهق[2] ـ ولهذا قال : (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم

---

(١) فى القاموس الجان : اسم جمع للجن ، وحية أكحل العين لا تؤذى ، كثيرة فى الدور (٢) بياض رقيق يعترى الجلد

إليك جناحك من الرهب) قيل معناه : إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك . وهذا وإن كان خاصاً به ، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء . وقال فى سورة النمل : (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين) أى هاتان الآيتان وهما : العصا واليد — هما البرهانان المشار إليهما فى قوله : (فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين) ، ومع ذلك سبع آيات أخر . فذلك تسع آيات بينات ، وهى المذكورة فى آخر سورة سبحان ، حيث يقول تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحوراً ✽ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا)[1] وهى المبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ✽ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ✽ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ✽ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين)[2] كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات ؛ فإن التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية ، وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظن أن هذه هى هذه . كما قررنا ذلك فى تفسير آخر سورة بنى إسرائيل .

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون (قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ✽ وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردأ يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون ✽ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا ، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون)[3] . يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، فى جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه ، الذى خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى : (قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ✽ وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردأ يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون) . أى اجعله معى معيناً وردأ ووزيراً يساعدنى ، ويعيننى على أداء رسالتك إليهم ؛ فإنه أفصح منى لساناً وأبلغ بياناً . قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله : (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً) أى برهانا (فلا يصلون إليكما) أى فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا ، (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) .

وقال فى سورة طه : (اذهب إلى فرعون إنه طغى ✽ قال رب اشرح لى صدرى ✽ ويسر لى

---

(١) الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ (٢) الآيات : ١٣٠ ، ١٣٣ .

(٣) الآيات : ٣٣ — ٣٥ من سورة القصص .

أمرى * واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) . قيل إنه أصابه فى لسانه لثغة ، بسبب تلك الجمرة التى وضعها على لسانه ، والتى كان فرعون أراد اختبار عقله ، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله ، فخافت عليه آسية وقالت : إنه طفل ، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه ، فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة ، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها . فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ، ولم يسأل زوالها بالكلية . قال الحسن البصرى : والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت فى لسانه بقية ، ولهذا قال فرعون — قبحه الله — فيما زعم أنه يعيب به الكليم : (ولا يكاد يبين) ، أى يفصح عن مراده ، ويعبر عما فى ضميره وفؤاده .

ثم قال موسى عليه السلام : (واجعل لى وزيراً من أهلى * هرون أخى * أشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً * قال قد أوتيت سؤلك يا موسى)[1] أى قد أجبناك إلى جميع ما سألت ، وأعطيناك الذى طلبت . وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه . وهذا جاه عظيم ، قال الله تعالى : (وكان عند الله وجيهاً) . وقال تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا)[2] . وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلا يقول لأناس وهم سائرون فى طريق الحج : أى أخ أمَنّ على أخيه ؟ . فسكت القوم ، فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هرون فأوحى إليه . قال الله تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) ، وقال تعالى فى سورة الشعراء : (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إنى أخاف أن يكذبون * ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هرون * ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون * قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون * فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل * قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين)[3] .

تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، و بلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له ، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ، و يتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤا ، و يتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه . فتكبر فرعون فى نفسه وعتا وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلا له : (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟) أى أما أنت الذى ربيناه فى منزلنا ؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر ؟ وهذا يدل على أن فرعون الذى بعث إليه — هو الذى فر منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب : من أن فرعون الذى فر منه

---

(١) الآيات : ٢٤ — ٣٦ (٢) الآية : ٥٣ من سورة مريم (٣) الآيات : ١٠ — ١٩

مات فى مدة مقامه بمدين ، وأن الذى بعث إليه فرعون آخر . وقوله : (وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) أى وقتلت الرجل القبطى ، وفررت منا وجحدت نعمتنا . (قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) أى قبل أن يوحى إلى و ينزل على ، (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) .

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه : (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) أى وهذه النعمة التى ذكرت ؛ من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل — تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمتك وأشغالك . (قال فرعون وما رب العالمين ؟ * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة[1] والمحاجة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم ؛ من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية . وذلك أن فرعون — قبحه الله — أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى) . (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) وهو فى هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارىء المصور ، الإله الحق كما قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً ، فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين) . ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته ، ولإظهار أنه ما ثَمّ رب أرسله : (وما رب العالمين ؟) لأنهما قالا له : (إنا رسول رب العالمين) . فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ؟ الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ؟ فأجابه موسى قائلا : (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) . يعنى رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتجددة ؛ من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق . وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين . (قال) أى فرعون (لمن حوله) من أمرائه ومرازبته[2] ووزرائه ، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام : (ألا تستمعون) يعنى كلامه هذا ، (قال) موسى مخاطباً له ولهم : (ربكم ورب آبائكم الأولين) أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم ؛ من الآباء والأجداد ، والقرون السالفة فى الآباد ؛ فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولا يحدث

---

(١) أى المفاوضة : يقال : قاوله فى الأمر ، وتقاولا — أى تفاوضا فيه . (٢) جمع مرزبان : وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك ، ويقال لرؤساء العجم مرازبة .

من غير محدث . وإنما أوجده وخلقه رب العالمين . وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[١] .

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ، ولا نزع عن ضلالته ، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه . (قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ✽ قال رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون) أى هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسيرة للأفلاك الدائرة . خالق الظلام والضياء ، ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين . خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة . خالق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون . وفى فلك يسبحون ، يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون . فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء .

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قول سوى العناد — عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ، (قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ✽ قال أولو جئتك بشىء مبين ✽ قال فأت به إن كنت من الصادقين ✽ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ✽ ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) . وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد . وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم ، الذى بهر به العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين — أى عظيم الشكل ، بديع فى الضخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر — حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه ، أخذه رهب شديد وخوف عظيم ، بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى يوم . وكان قبل ذلك لايتبرز فى كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة ، فانعكس عليه الحال .

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه واستخرجها — أخرجها وهى كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى ، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون — لعنه الله — بشىء من ذلك ، بل استمر على ماهو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر . وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم فى رعيته وتحت قهره ودولته ، كما سيأتى بسطه وبيانه فى موضعه ؛ من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائه ، وأهل دولته وملته . ولله الحمد والمنة .

وقال تعالى فى سورة طه : (فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى ✽ واصطنعتك لنفسى ✽ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى ✽ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ✽ فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ✽ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ✽ قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى[٢]) . يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلمه منه

---

(١) الآية : ٥٣ من سورة فصلت . (٢) الآيات : ٤٠ — ٤٦ .

إليه : قد كنت مشاهداً لك وأنت فى دار فرعون ، وأنت تحت كنفى وحفظى ولطفى . ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتى وقدرتى وتدبيرى ، فلبثت فيها سنين ، (ثم جئت على قدر) أى منى لذلك ، فوافق ذلك تقديرى وتسييرى . (واصطنعتك لنفسى) أى اصطفيتك لنفسى برسالتى وبكلامى (اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى) ، يعنى ولا تفترا فى ذكرى إذ قدمتما عليه ووفدتما إليه ؛ فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته ، وإهداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه . وقد جاء فى بعض الأحاديث : يقول الله تعالى : «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه» وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً . . . الآية[1]) .

ثم قال تعالى : (اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره . وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتى هى أحسن برفق ولين ، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى ، كما قال لرسوله: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[2]) ، وقال تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم . . . الآية)[3] . قال الحسن البصرى : (فقولا له قولا ليناً) اعتذرا إليه ، قولا له : إن لك رباً ولنا معاداً ، وإن بين يديك جنة وناراً . وقال وهب بن منبه : قولا له : إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة ، قال يزيد الرقاشى عند هذه الآية : يامن يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟ .

(قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) ، وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً ، له سلطان فى بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود ، وعساكر وسطوة ؛ فهاباه من حيث البشرية ، وخافا أن يسطو عليهما فى بادئ الأمر ، فثبتهما تعالى وهو العلى الأعلى فقال : (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) ، كما قال فى الآية الأخرى : (إنا معكم مستمعون) (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى * إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) . يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى ـ أن يعبده وحده لاشريك له ، وأن يرسل معهم بنى إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولايعذبهم . (قد جئناك بآية من ربك) وهو البرهان العظيم فى العصى واليد ، (والسلام على من اتبع الهدى) ـ تقييد مفيد بليغ عظيم . ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا : (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى كذب بالحق بقلبه ، وتولى عن العمل بقالبه .

---

(١) الآية : ٤٥ من سورة الأنفال (٢) آخر سورة النحل (٣) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

وقد ذكر السدى وغيره : أنه لما قدم من بلاد مدين ، دخل على أمه وأخيه هرون ، وهما يتعشيان من طعام فيه «الطفشيل» ، وهو اللفت ، فأكل معهما . ثم قال ياهرون : إن الله أمرنى وأمرك أن ندعوا فرعون إلى عبادته ، فقم معى . فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق . فقال موسى للبوابين والحجبة : أعلموه أن رسول الله بالباب ، فجعلوا يسخرون منه ويستهزءون به .

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل . وقال محمد بن إسحق : أذن لهما بعد سنتين ؛ لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما . فالله أعلم . ويقال إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه ، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما ، فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب : أن الله قال لموسى عليه السلام : إن هرون اللاوى – يعنى من نسل لاوى ابن يعقوب – سيخرج ويتلقاك ، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بنى إسرائيل إلى عند فرعون ، وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات . وقال له : سأقسى قلبه فلا يرسل الشعب ، وأكثر آياتى وأعاجيبى بأرض مصر . وأوحى الله إلى هرون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب ، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه . فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بنى إسرائيل وذهبا إلى فرعون ، فلما بلغاه رسالة الله قال : من هو الله ؟ لا أعرفه ولا أرسل بنى إسرائيل .

وقال الله مخبراً عن فرعون : (قال فمن ربكما ياموسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى * قال فمابال القرون الأولى * قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى * الذى جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)[1] .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون : إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا : (فمن ربكما ياموسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) ، أى هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالا وأرزاقاً وآجالا . وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له ، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره وعلمه ؛ لكمال علمه وقدرته وقدره . وهذه الآية كقوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى) أى قدر قدراً وهدى الخلائق إليه . (قال فما بال القرون الأولى) ، يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لايستحق العبادة سواه – فلم عبد الأولون غيره ؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ؟ فهلا اهتدى إلى ماذكرته القرون الأولى ؟ (قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ولاينسى) أى هم وإن عبدوا غيره – فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول ؛ لأنهم جهلة

---

(١) الآيات : ٤٩ ، ٥٥ من سورة طه .

مثلك ، وكل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة ؛ لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً.

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً ، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم ، كما قال : (كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولى النهى) أي لذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، والفطر القويمة غير السقيمة ؛ فهو تعالى الخالق الرازق . وكما قال تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ✲ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)[1] . ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه — نبه به على المعاد فقال : (منها) أي من الأرض (خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ، كما قال تعالى : (كما بدأكم تعودون) . وقال تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[2] .

ثم قال تعالى : (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ✲ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ✲ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ✲ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى)[3] .

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله ؛ في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها ، وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله . ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم ، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام : أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس . ولهذا قال : (موعدكم يوم الزينة) ، وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ، (وأن يحشر الناس ضحى) أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلى . ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا في ظلام ؛ كيما يروج عليهم محالا وباطلا . بل طلب أن يكون نهاراً جهرة ؛ لأنه على بصيرة من ربه ، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط .

قال الله تعالى : (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ✲ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ✲ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ✲ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ✲ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى) .

يخبر تعالى عن فرعون : أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء ، في فنهم غاية . فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق

---

(١) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة البقرة (٢) الآية : ٢٧ من سورة الروم (٣) الآيات : ٥٦ـ٥٩ من سورة طه

كثير وجم غفير . فقيل : كانوا ثمانين ألفاً ـ قاله محمد بن كعب ، وقيل : سبعين ألفاً ـ قاله القاسم بن أبى بردة ، وقال السدى : بضعة وثلاثين ألفاً ، وعن أبى أمامة تسعة عشر ألفاً ، وقال محمد بن إسحق : خمسة عشر ألفاً ، وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفاً ، وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : كانوا سبعين رجلا ، وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بنى إسرائيل ؛ أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر . ولهذا قالوا : (وما أكرهتنا عليه من السحر) . وفى هذا نظر .

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) . وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل ، الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال : (ويلكم لاتفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم) . قيل : معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ؛ فقائل يقول : هذا كلام نبى وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر ، فالله أعلم . وأسروا التناجى بهذا وغيره ، (قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما) . يقولون إن هذا وأخاه هرون ـ ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ، ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ، و يستأصلاكم عن آخركم ، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة . (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى) . وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ، و يأتوا بجميع ماعندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان . وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ؛ أنى يعارض البهتان ، والسحر والهذيان ـ خوارق العادات التى أجراها الديان ؟ على يدى عبده الكليم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذى يبهر الأبصار ، ، وتحار فيه العقول والأذهان ؟ وقولهم : (فأجمعوا كيدكم) أى جميع ماعندكم (ثم ائتوا صفاً) أى جملة واحدة ، ثم حضوا بعضهم بعضاً على التقدم فى هذا المقام ؛ لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

(قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى * وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولايفلح الساحر حيث أتى) . لما اصطف السحرة ووقف موسى وهرون عليهما السلام تجاههم ـ قالوا له : إما أن تلقى قبلنا ، و إما أن نلقى قبلك (قال بل ألقوا) أنتم ، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى ، فأودعوها الزئبق وغيره ؛ من الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى ـ اضطراباً يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك . فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون : (بعزة فرعون إنا لنحن

الغالبون) . قال الله تعالى : (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم)[١] . وقال تعالى : (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم[٢] ، قبل أن يلقى مافى يده ، فإنه لايضع شيئاً قبل أن يؤمر . فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة : (لاتخف إنك أنت الأعلى * وألق مافى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى) فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : (ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لايصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون)[٣] . وقال تعالى : (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف مايأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون)[٤] وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها ، صارت حية عظيمة ذات قوائم — فيما ذكره غير واحد من علماء السلف — وعنق عظيم وشكل هائل مزعج ؛ بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً ، وتأخروا عن مكانها . وأقبلت هى على ماألقوه من الحبال والعصى ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها . وأما السحرة فإنهم رأوا ماهالهم وحيرهم فى أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم . فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم : أن هذا ليس يسحر ولا شعوذة[٥] ، ولا محال ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال . بل حق لايقدر عليه إلا الحق ؛ الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق . وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى : (آمنا برب موسى وهرون) . كما قال تعالى : (فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى * قالوا لم نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ماأنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى)[٦] .

---

(١) الآية : ١١٦ من سورة الأعراف (٢) أى مكرهم وكيدهم (٣) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة يونس .
(٤) الآيات : ١١٧ — ١٢٢ من سورة الأعراف (٥) الشعوذة : خفة فى اليد ترى الشيء بغير ما عليه أصله فى رأى العين . (٦) الآيات : ٧٠ — ٧٦ من سورة طه .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والأوزاعى وغيرهم : لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم ، وتزخرف لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده . وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهرون فى الناس على هذه الصفة الجميلة ـ أفزعه ذلك ، ورأى أمراً بهره ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع ، وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله . فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس : (أآمنتم له قبل آن آذن لكم) أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى ؟ ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وكذب فأبعد قائلا : (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) ، وقال فى الآية الأخرى : (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) . وهذا الذى قاله من البهتان ، يعلم كل فرد عاقل مافيه من الكفر والكذب والهذيان . بل لايروج مثله على الصبيان ؛ فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم ـ يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر ؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم ، واجتباهم من كل فج عميق ، وواد سحيق . ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالى فى سورة الأعراف : (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه ، فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين * وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معى بنى إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين * قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم * وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ * قال نعم ، وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون * قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ، إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين[1])

وقال تعالى فى سورة يونس : (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا

---

(١) الآيات : ١٠٣ ـ ١٢٦

وكانوا قوماً مجرمين * فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين * قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين * وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون[1]) .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : (قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين * قال أو لو جئتك بشىء مبين ؟ * قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين * قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم * فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ * قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ماأنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقبلون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين[2]) .

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر فى قوله : (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وأتى ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون فى قوله : (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) ، وقوله : (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) يعنى يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ، (ولأصلبنكم أجمعين) أى ليجعلنهم مثلة ونكالا لئلا يقتدى بهم أحد من رعيته وأهل ملته . ولهذا قال : (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى على جذوع النخل ؛ لأنها أعلى وأشهر (ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى) يعنى فى الدنيا . (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) أى لن نطيعك ونترك ماوقر فى قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ، (والذى فطرنا) . قيل معطوف ، وقيل قسم ، (فاقض ما أنت قاض) أى فافعل ما قدرت عليه ؛ (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة ـ صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له ، واتبعنا رسله (إنا آمنا

---

(١) الآيات : ٧٥ ـ ٨٢ (٢) الآيات : ٢٩ ـ ٥١

بر بنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى) أى وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب ، (وأبقى) أى وأدوم من هذه الدار الفانية . وفى الآية الأخرى : (قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم ؛ (أن كنا أول المؤمنين) ــ أى من القبط ــ بموسى وهرون عليهما السلام .

وقالوا له أيضاً : (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) أى ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا ، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا . (ربنا أفرغ علينا صبراً) أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد . (وتوفنا مسلمين) . وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : (إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) يقولون له : فإياك أن تكون منهم فكان منهم . (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أى المنازل العالية ؛ (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) فاحرص أن تكون منهم . فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمانع ، وحكم العلى العظيم بأن فرعون ــ لعنه الله ــ من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميم . و يقال له على وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم : (ذق إنك أنت العزيز الكريم)[١] .

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون — لعنه الله — صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم . قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء بررة . ويؤيد هذا قولهم : (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

فصــل

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم — لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً و بعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم فى سورة الأعراف : (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ، و إنا فوقهم قاهرون * قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون)[٢]

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون — وهم الأمراء والكبراء — أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبى الله موسى عليه السلام ، ومقابلته — بدل التصديق بما جاء به — بالكفر والرد والأذى . قالوا : (أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك) يعنون — قبحهم الله — أن دعوته إلى

---

(١) الآية : ٤٩ من سورة الدخان (٢) الآيات : ١٢٧ ـ ١٢٩

عبادة الله وحده لاشريك له ، والنهى عن عبادة ماسواه — فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط ، لعنهم الله .
وقرأ بعضهم : (ويذرك و إلهتك) أى وعبادتك . ويحتمل شيئين : أحدهما ويذر دينك ، وتقويه القراءة الأخرى . والثانى ويذر أن يعبدك ؛ فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله ، (قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) أى لئلا يكثر مقاتلتهم (وإنا فوقهم قاهرون) أى غالبون . (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) أى إذا هموا هم بأذيتكم والفتك بكم — فاستعينوا أنتم بر بكم واصبروا على بليتكم ؛ (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة ، كما قال فى الآية الأخرى : (وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين[1]) وقولهم : (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) أى قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك و بعد مجيئك إلينا ، (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) .

وقال الله تعالى فى سورة حم المؤمن : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب[2]) وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى ، إلا أنه كان على دين فرعون وملائه ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتى قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى . (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) ، وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى ــ إنما كان على وجه الإهانة والإذلال ، والتقليل لملأ بنى إسرائيل ؛ لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، و يصولون على القبط بسببها . وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذى يقول للشىء كن فيكون . (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) . ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : « صار فرعون مذكِّراً[3] » . وهذا منه ؛ فإن فرعون فى زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام . (وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) أى عذت بالله ولجأت إليه بجنابه ــ من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء . وقوله : (من كل متكبر) أى جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهى ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء . ولهذا قال : (من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب * وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ و إن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب *

---

(١) الآيات : ٨٤ ـ ٨٦ من سورة يونس (٢) الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤ من سورة غافر ، وكذلك الآيات بعد .
(٣) جرى هذا القول مجرى المثل .

ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد[1]) .

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه . وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً ، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

قال ابن جريج قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا ، والذى جاء من أقصى المدينة ، وامرأة فرعون ، رواه ابن أبى حاتم . وقال الدارقطنى لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة ـ إلا مؤمن آل فرعون ، حكاه السهيلى . وفى تاريخ الطبرانى : أن اسمه « خير » ، فالله أعلم .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه ، فلما هم فرعون — لعنه الله — بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه — خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى . وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» . وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ؛ فإن فرعون لأشد جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ؛ لأن فيه عصمة نبى . ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه ، وصرح لهم بما كان يكتمه والأول أظهر ، والله أعلم . قال : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) أى من أجل أنه قال ربى الله ؟ فمثل هذا لا يقابل بهذا ، بل بالإكرام والاحترام ، والموادعة وترك الانتقام . يعنى لأنه (قد جاءكم بالبينات من ربكم) أى بالخوارق التى دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامة ؛ لأنه (إن يك كاذباً فعليه كذبه) ولا يضركم ذلك ، (وإن يك صادقاً) وقد تعرضتم له — (يصبكم بعض الذى يعدكم) ، أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم ؟ وهذا الكلام فى هذا المقام ، من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام .

وقوله : (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) . يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز ؛ فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم ، وذلوا بعد عزهم . وكذا وقع لآل فرعون ؛ ما زالوا فى شك وريب ، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به — حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك ، والدور والقصور ، والنعمة والحبور . ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين . ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق ، البار الراشد ، التابع للحق ، الناصح لقومه ، الكامل العقل : (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) أى عالين على الناس حاكمين عليهم ، (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟) ، أى لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد

---

(١) الآيات من سورة غافر .

والعدة ، والقوة والشدة — لما نفعنا ذلك ، ولا رد عنا بأس مالك الممالك . (قال فرعون) أى فى جواب هذا كله : (ماأريكم إلا ماأرى) أى ماأقول لكم إلا ماعندى ، (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ، وكذب فى كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين ؛ فإنه قد كان يتحقق فى باطنه وفى نفسه أن هـذا الذى جاء به موسى — من عند الله لامحالة ، و إنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً ، وعتواً وكفراناً . قال الله تعالى إخباراً عن موسى : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً * وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً[1]) وقال تعالى : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين[2]) . وأما قوله : (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) — فقد كذب أيضاً ؛ فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال : فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال — إلى أن اتبعوه وطاوعوه ، وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال ؛ فى دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال .

قال الله تعالى : (ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين[3]) وقال تعالى : (فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى[4]) . وقال تعالى : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار و بئس الورد المورود * وأتبعوا فى هذه لعنة و يوم القيامة بئس الرفد المرفود[5]) .

والمقصود بيان كذبه فى قوله : (ماأريكم إلاماأرى) ، وفى قوله : (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد * وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد * وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف

---

(١) الآيات : ١٠٢ — ١٠٤ من سورة الإسراء (٢) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة النمل .
(٣) الآيات : ٥١ — ٥٦ من سورة الزخرف (٤) سورة النازعات (٥) الآيات : ٩٦ — ٩٩ من سورة هود .

مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار[(١)]) .

يحذرهم ولى الله : إن كذبوا برسول الله موسى — أن يحل بهم ماحل بالأمم من قبلهم ، من النقمات والمثلات ؛ مما تواتر عندهم وعند غيرهم — مماحل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة ، فى صدق ماجاءت به الأنبياء ، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيمة — وهو يوم التناد — أى حين ينادى الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون إن قدروا على ذلك ، ولا إلى ذلك سبيلا . (يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر[(٢)]) . وقال تعالى : (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لاتنفذون إلا بسلطان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * فبأى آلاء ربكما تكذبان[(٣)]) وقرأ بعضهم : (يوم التنادّ) بتشديد الدال[(٤)] — أى يوم الفرار . و يحتمل أن يكون يوم القيامة ، و يحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس ، فيودون الفرار ولات حين مناص (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لاتركضوا وارجعوا إلى ماأترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون[(٥)]) .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف فى بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق فى دنياهم وأخراهم . وهـذا من سلالته وذريته ؛ يدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته ، وأن لايشركوا به أحداً من بريته . وأخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمان ، وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل . ولهذا قال : (فما زلتم فى شك ممـا جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى وكذبتم فى هذا . ولهذا قال : (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) أى يريدون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده — بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ؛ فإن هـذا أمر يمقته الله غاية المقت ، أى يبغض من تلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ، (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) . قرىء بالإضافة وبالنعت ، وكلاهما متلازم : أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق — ولا تخالفه إلا بلا برهان — فإن الله يطبع عليها ، أى يختم عليها .

(وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب)

---

(١) الآيات من سورة غافر (٢) الآيات من سورة القيامة (٣) الآيات من سورة الرحمن .
(٤) فى القاموس : التناد — التفرق والتنافر ، ومنه يوم التناد وقرأ ابن عباس وجماعة .
(٥) الآيتان : ١٢ ، ١٣ من سورة الأنبياء .

كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه فى قوله لهم : (ماعلمت لكم من إله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً) . وقال ههنا : (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) أى طرقها ومسالكها (فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً) . و يحتمل هذا معنيين : أحدهما و إنى لأظنه كاذباً فى قوله إن للعالم رباً غيرى ، والثانى فى دعواه أن الله أرسله . والأول أشبه بظاهر حال فرعون ؛ فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع ، والثانى أقرب إلى اللفظ حيث قال : (فأطلع إلى إله موسى) أى فأسأله هل أرسله أم لا ؟ (وإنى لأظنه كاذباً) أى فى دعواه ذلك . وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام ، وأن يحثهم على تكذيبه . قال الله تعالى : (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) ، وقرىء : (وصَدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) قال ابن عباس ومجاهد : يقول إلا فى خسار — أى باطل ، لا يحصل له شىء من مقصوده الذى رامه ؛ فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً — أعنى السماء الدنيا — فكيف بما بعدها من السموات العلى ؟ وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل ؟ . وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح — وهو القصر الذى بناه وزيره هامان له — لم ير بناء أعلى منه ، وأنه كان مبنياً من الآجر المشوى بالنار . ولهذا قال : (فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً) .

وعند أهل الكتاب : أن بنى إسرائيل كانوا يسخرون فى ضرب اللبن ، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية — أنهم لا يساعدون على شىء مما يحتاجون إليه فيه ، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ، ويطلب منهم كل يوم قسط معين ، إن لم يفعلوه ضربوا وأهينوا غاية الإهانة ، وأوذوا غاية الأذية . ولهذا قالوا لموسى : (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) . فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط ، وكذلك وقع ، وهذا من دلائل النبوة .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه ، قال الله تعالى : (وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ۞ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، و إن الآخرة هى دار القرار ۞ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب[1]) . يدعوهم رضى الله عنه إلى طريق الرشاد و الحق ، وهى متابعة نبى الله موسى ، وتصديقه فيما جاء به من عند ربه . ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ، ورغبهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذى ملكوت كل شىء بيديه ، الذى يعطى على

---

(١) الآيات : ٣٨ — ٤٠ من سورة غافر ، وكذلك ما بعدها .

القليل كثيراً ، ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثلها وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار ، التى من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات — فلهم الجنات العاليات ، والغرف الآمنات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التى لا تبيد ، والخير الذى كل ما لهم منه فى مزيد .

ثم شرع فى إبطال ما هم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه ، فقال : (ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار * تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) . كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض ، الذى يقول للشىء كن فيكون ، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ، ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار : (ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار * تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) . ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان ، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار ، فقال : (لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار) ، أى لا تملك تصرفاً ولا حكما فى هذه الدار ، فكيف تملكه يوم القرار ؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار ، وهو الذى أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم ، فيدخل طائعهم الجنة ، وعاصيهم إلى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله : (فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد) ، قال الله : (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أى بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ، ومكرهم فى صدهم عن سبيل الله ؛ مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات ، التى ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم . ولهذا قال : (وحاق) أى أحاط (بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) أى تعرض أرواحهم فى برزخهم صباحاً ومساء على النار . (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) . وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر فى التفسير ، ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ؛ بالترهيب تارة والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا

به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفا والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانو قوماً مجرمين[١]) .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون — وهم قومه من القبط ـ بالسنين وهى أعوام الجدب التى لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع . وقوله : (ونقص من الثمرات) وهى قلة الثمار من الأشجار (لعلهم يذكرون) أى فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا ، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم . (فإذا جاءتهم الحسنة) والخصب ونحوه (قالوا لنا هذه) أى هذا الذى نستحقه ، وهذا الذى يليق بنا ، (وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) أى يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ، ولا يقولون فى الأول إنه : ببركتهم وحسن مجاورتهم ، ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة ، نافرة عن الحق ؛ إذا جاء الشر أسندوه إليه ، وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم . قال الله تعالى : (ألا إنما طائرهم عند الله) أى الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء . (ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أى مهما جئتنا به من الآيات — وهى الخوارق للعادات — فلسنا نؤمن بك ، ولا نتبعك ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية . وهكذا أخبر الله عنهم فى قوله : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم[٢]) . قال الله تعالى : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) . أما الطوفان فعن ابن عباس : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدى والضحاك ، وعن ابن عباس وعطاء : هو كثرة الموت . وقال مجاهد : الطوفان ـ الماء والطاعون على كل حال ، وعن ابن عباس : أمر طاف بهم . وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة عن النبى ﷺ أنه قال : « الطوفان الموت » ، وهو غريب .

وأما الجراد فمعروف ، وقد روى أبو داود عن أبى عثمان عن سلمان الفارسى قال : سئل رسول الله عن الجراد ، فقال : « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه » . وترك النبى ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له ؛ كما ترك أكل الضب ، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث ؛ لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد . وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار فى التفسير .

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً[٣] . وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وعنه أنه الجراد الصغار الذى لا أجنحة له ، وبه قال

---

(١) الآيات ١٣٠ — ١٣٣ من سورة الأعراف . (٢) الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٣) السبد بالتحريك : القليل من الشعر ، واللبد : المتلبد من الصوف ، والمراد لم يترك لهم قليلا ولا كثيراً .

مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد بن جبير والحسن : هو دواب سود صغار . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : القمل ـ البراغيث وحكى ابن جرير عن أهل العربية : أنها الحَمْنان [١] وهو صغار القردان فوق القمقامة [٢] فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش . وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف . وقرأها الحسن البصرى كذلك بالتخفيف .

وأما الضفادع فمعروفة ؛ لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعماتهم وأوانيهم ، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب ـ سقطت فى فيه ضفدعة من تلك الضفادع . وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً ، ولا من نهر ولا بئر ولا شىء إلا كان دماً فى الساعة الراهنة ـ هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شىء بالكلية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة ، والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام . فينالهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لأحد من بنى إسرائيل ، وفى هذا أدل دليل .

قال محمد بن إسحق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولا ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين : فأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ـ آيات مفصلات ؛ فأرسل الطوفان — وهو الماء — ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً ، حتى جهدوا جوعاً ، فلما بلغهم ذلك (قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) ، فدعا موسى ربه فكشفه عنهم . فلما لم يفوا له بشىء مما قالوا ـ أرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما بلغنى ، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشىء مما قالوا . فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لى أن موسى ـ عليه السلام ـ أُمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضرب به بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضرب به بها ، فانثال عليهم قملا ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ماقالوا له ، فدعا ربه فكشف عنهم . فلما لم يفوا له بشىء مما قالوا — أرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً ، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ماقالوا ،فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا بشىء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دما ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء ، إلا عاد دماً عبيطاً . وقال زيد بن أسلم : المراد بالدم الرعاف ، رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) واحدتها حمنانة بالهاء (٢) قال فى اللسان : القمقام : صغار القردان ، وضرب من القمل شديد التشبث بأصول الشعر ، واحدتها قمقامة ، وقيل هى القراد أول ما يكون صغيراً لا يكاد يرى من صغره .

قال الله تعالى : (ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ✲ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ✲ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل ، والاستكبار عن اتباع آيات الله ، وتصديق رسوله ، مع ماأيده به من الآيات العظيمة الباهرة ، والحجج البليغه القاهرة ، التى أراهم الله إياها عيانا ، وجعلها عليهم دليلا وبرهاناً . وكلما شاهدوا آية وعاينوها ، وجهدهم وأضنكهم ـ حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به ، وليرسلن معه من هو من حزبه ، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هى أشد مما كانت قبلها وأقوى ، فيقولون فيكذبون ، ويعدون ولا يفون : (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل ، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل . هذا : والعظيم الحليم القدير ، ينظرهم ولا يعجل عليهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم . ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإنذار إليهم — أخذ عزيز مقتدر ؛ فجعلهم عبرة ونكالا وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين . كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين ، فى سورة حم والكتاب المبين : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إنى رسول رب العالمين ✲ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ✲ وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ✲ وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ✲ فلما كشفنا عنهم العذاب إذ هم ينكثون ✲ ونادى فرعون فى قومه ، قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ✲ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ✲ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ✲ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ✲ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ✲ فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين[1]) .

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم ـ إلى فرعون الخسيس اللئيم . وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عماهم فيه من الكفر ، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم ؛ فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون ، وعن سبيل الله يصدون وعن الحق ينصرفون . فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً ، وكل آية أكبر من التى تتلوها ؛ لأن التوكيد أبلغ مما قبله (وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ✲ وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصاً ولا عيباً ؛ لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم

(١) الآيات : ٤٦ ـ ٥٦ من سورة الزخرف .

السحرة ، ولهذا خاطبوه به فى حال احتياجهم إليه ، وضراعتهم لديه ، قال الله تعالى : (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) . ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه ، وعظمة بلده وحسنها ، وتخرق الأنهار فيها — وهى الخلجانات[1] التى يكسرونها أمام زيادة النيل . ثم تبجح بنفسه وحليته ، وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ، ويزدريه بكونه (لايكاد يبين) — يعنى كلامه — بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة ، التى هى شرف له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه ، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه .

وتنقصه فرعون — لعنه الله — بكونه لا أساور فى يديه ، ولا زينة عليه ، و إنما ذلك من حلية النساء ، لايليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلا ، وأتم معرفة ، وأعلى همة وأزهد فى الدنيا ، وأعلم بما أعد الله لأوليائه فى الأخرى ؟ وقوله : (أوجاء معه الملائكة مقترنين) لايحتاج الأمر إلى ذلك ؛ فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة — فالملائكة يعظمون و يتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ؛ كما جاء فى الحديث : «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع» فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم . وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة — فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوى الألباب ، ولمن قصد إلى الحق والصواب ، و يعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات — من نظر إلى القشور ، وترك لب اللباب ، وطبع على قلبه رب الأرباب ، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب .

قال الله تعالى : (فاستخف قومه فأطاعوه) أى استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال — إلى أن صدقوه فى دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم (إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا) أى أغضبونا (انتقمنا منهم) أى بالغرق والإهانة وسلب العز ، والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب العيش ، عياذاً بالله العظيم ، وسلطانه القديم من ذلك (فجعلناهم سلفاً) أى لمن اتبعهم فى الصفات (ومثلا) أى لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ، ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم ، كما قال الله تعالى : (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار إنه لايفلح الظالمون * وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى و إنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم

---

(١) قال فى القاموس : الخليج — النهر ، وشرم من البحر .

من المقبوحين[1]) يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه — اشتد غضب الرب القدير العزيز ، الذى لا يغالب ولا يمانع عليهم . فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده فى صبيحة واحدة ، فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديار . بل كل قد غرق فدخل النار ، وأتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين ، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ذكر هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ؛ متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبى الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام — أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات مابهر الأبصار وحير العقول ، وهم مع ذلك لايرعون ولا ينتهون ، ولا ينزعون ولا يرجعون ، ولم يؤمن منهم إلا القليل . قيل ثلاثة : وهم امرأة فرعون — ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ، ومؤمن آل فرعون الذى تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ، والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة ، فقال : (ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) . قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبى حاتم عنه ، ومراده غير السحرة ؛ فإنهم كانوا من القبط . وقيل بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسحرة كلهم ، وجميع شعب بنى إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين[2]) فالضمير فى قوله : (إلا ذرية من قومه) عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه ، وقيل على موسى لقربه ، والأول أظهر كما هو مقرر فى التفسير ، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته ، وجبروته وسلطته ، ومن ملائهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً : (وإن فرعون لعال فى الأرض) أى جبار عنيد مستعل بغير الحق ، (وإنه لمن المسرفين) أى فى جميع أموره وشئونه وأحواله . ولكنه جرثومة قد حان انجعافها[3] ، وثمرة خبيثة قد آن قطافها ، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها . وعند ذلك قال موسى : (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ✲ فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ✲ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) . يأمرهم بالتوكل على الله ، والاستعانة به ، والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً .

(وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة

---

(١) الآيات : ٣٦ — ٤١ من سورة القصص (٢) الآية : ٨٣ من سورة يونس، وكذلك مابعدها .

(٣) اقتلاعها واستئصالها . يقال : جعفه — صرعه ، وجعف الشجرة — اقتلعها فانجعفت .

و بشر المؤمنين) . أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام : أن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ؛ ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض . وقوله : (واجعلوا بيوتكم قبلة) . قيل مساجد ، وقيل معناه كثرة الصلاة فيها ، قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعى والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم ، ومعناه على هذا : الاستعانة على ماهم فيه من الضر والشدة والضيق - بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى . وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عباداتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم ، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم ؛ عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق فى ذلك الزمان ، الذى اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملائه . والمعنى الأول أقوى لقوله : (و بشر المؤمنين) . وإن كان لا ينافى الثانى أيضاً والله أعلم . وقال سعيد ابن جبير : (واجعلوا بيوتكم قبلة) — أى متقابلة[1] .

(وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون)[2] هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون ، غضباً لله عليه ؛ لتكبره عن اتباع الحق ، وصده عن سبيل الله ومعاندته ، وعتوه وتمرده ، واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلى - الحسى والمعنوى - والبرهان القطعى ، فقال : (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه) يعنى قومه من القبط ، ومن كان على ملته ودان بدينه - (زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) أى وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا ، فيحسب الجاهل أنهم على شىء . لكن هذه الأموال وهذه الزينة ، من اللباس والمراكب الحسنة الهنية ، والدور الأنيقة والقصور المبنية ، والمآكل الشهية والمناظر البهية ، والملك العزيز والتمكين والجاه العريض - فى الدنيا لا الدين . (ربنا اطمس على أموالهم) ، قال ابن عباس ومجاهد : أى أهلكها ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك : اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حجارة ، وقال محمد بن كعب : جعل سكرهم حجارة ، وقال أيضاً : صارت أموالهم كلها حجارة . ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز ، فقال عمر بن عبدالعزيز لغلام له : قم ائتنى بكيس فجاءه بكيس ، فإذا فيه حمص و بيض قد حول حجارة ، رواه ابن أبى حاتم . وقوله (واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) قال ابن عباس : أى اطبع عليها . وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه ، فاستجاب الله تعالى لها ، وحققها وتقبلها ، كما استجاب لنوح فى قومه حيث قال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) .

---

(١) يقابل بعضها بعضاً (٢) الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ من سورة يونس .

ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملائه ، وأمن أخوه هارون على دعائه ، فنزل ذلك منزلة الداعى أيضاً : (قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) .

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون فى الخروج إلى عيد لهم ، فأذن لهم وهو كاره ، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وإنما كان فى نفس الأرض مكيدة بفرعون وجنوده ، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم . وأمرهم الله تعالى — فيما ذكره أهل الكتاب — أن يستعيروا حلياً منهم ، فأعاروهم شيئاً كثيراً ، فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم ، طالبين بلاد الشام . فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق ، واشتد غضبه عليهم ، وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوده ، ليلحقهم ويمحقهم . قال الله تعالى : (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ﴿ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون ﴿ وكنوز ومقام كريم ﴿ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴿ فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴿ قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم)[١] .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون فى جنوده طالباً بنى إسرائيل يقفو أثرهم — كان فى جيش كثيف عرمرم ، حتى قيل كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم ، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف ، فالله أعلم . وقيل إن بنى إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية ، وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم عند شروق الشمس ، وتراء الجمعان ، ولم يبق ثم ريب ولا لبس ، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة . فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : (إنا لمدركون) وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر[٢] فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه ، وهذا مالا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن يَسرتهم وعن أيمانهم وهى شاهقة منيفة ، وفرعون قد غالقهم وواجههم ، وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعُدده وعَدده ، وهم منه فى غاية الخوف والذعر ؛ لما قاسوا فى سلطانه من الإهانة والمكر . فشكوا إلى نبى الله ماهم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه . فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : (كلا إن معى ربى سيهدين) وكان فى الساقة ، فتقدم إلى المقدمة . ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زبد أجاجه ، وهو يقول :

---

(١) الآيات : ٥٢ — ٦٨ من سورة الشعراء (٢) حقق بعض المؤرخين أن عبورهم من خليج السويس ، شمالى المكان المعروف الآن بعيون موسى فى السير الأسيوى وهى لا تبعد كثيراً عن السويس .

ههنا أمرت . ومعه أخوه هرون ، ويوشع بن نون – وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار – وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهرون عليهما السلام ، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ، ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون ، وهم وقوف ، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف .
ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً فى البحر ، هل يمكن سلوكه ؟ فلا يمكن .
ويقول لموسى عليه السلام : يا نبى الله أههنا أمرت ؟ فيقول : نعم .

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم ، وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر – عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ، رب العرش الكريم ، إلى موسى الكليم : (أن اضرب بعصاك البحر) . فلما ضربه ، يقال إنه قال له : انفلق بإذن الله ، ويقال : إنه كناه بأبى خالد ، فالله أعلم . قال الله تعالى : (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) . ويقال إنه انفلق اثنى عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يسيرون فيه . حتى قيل إنه صار فيه أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً وفى هذا نظر ؛ لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه . وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال ، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشىء كن فيكون . وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال[1] البحر فأذهبته ، حتى صار يابساً لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب . قال الله تعالى : (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً * لا تخاف دركاً ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى[2]) .

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال ، بإذن الرب العظيم الشديد المحال — أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببنى إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ، ويهدى قلوب المؤمنين . فلما جاوزوه وجاوزوه وخرج آخرهم منه ، وانفصلوا عنه — كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ، ووفودهم عليه . فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه ؛ لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال ، كما قال وهو الصادق فى المقال : (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين * وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين * و إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون * و إن لم تؤمنوا لى فاعتزلون * فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون * فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون * واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون * كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها

---

(١) أي طينه الأسود قال فى القاموس : الحال – الطين الأسود (٢) الآيات : ٧٧ – ٧٩ من سورة طه .

قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين * ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين * ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين)[١]. فقوله تعالى: (واترك البحر رهواً) أى ساكناً على هيئته، لاتغيره عن هذه الصفة. قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون، فرأى مارأى وعاين ماعاين ـ هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك ـ من أن هذا من فعل رب العرش الكريم. فأحجم ولم يتقدم، وندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم والحالة هذه حيث لاينفعه الندم. لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه، وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لى؟ لأدرك عبيدى الآبقين من يدى، الخارجين على طاعتى وبلدى؟ وجعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو وهيهات، ويقدم تارة ويحجم تارات. فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى فى صورة فارس راكب على رَمَكة حائل[٢] فمر بين يدى فحل فرعون لعنه الله، فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر، واستبق الجواد وقد أجاد، فبادر مسرعاً هذا وفرعون لايملك من نفسه ضراً ولانفعاً، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا فى البحر أجمعين أكتعين أبصعين. حتى همّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه ـ أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان. قال الله تعالى: (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أى فى إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد، آية عظيمة، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة، والمناهج المستقيمة.

وقال تعالى: (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون)[٣]. يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه

---

(١) الآيات: ١٧ ـ ٢٣ من سورة الدخان.

(٢) الرمكة بالتحريك: الفرس والبرذونة تتخذ للنسل، والحائل: التى حمل عليها فلم تلقح.

(٣) الآيات: ٩٠ ـ ٩٢ من سورة يونس.

تارة وترفعه أخرى ، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ؛ ليكون أقر لأعين بنى إسرائيل ، وأشفى لنفوسهم . فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به ، وباشر سكرات الموت ـ أناب حينئذ وتاب ، وآمن حين لاينفع نفساً إيمانها ؛ كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) . وقال تعالى : (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون)[1] . وهكذا دعا موسى على فرعون وملائه ، أن يطمس على أموالهم ، ويشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ـ أى حين لاينفعهم ذلك ، ويكون حسرة عليهم . وقد قال تعالى لهما — أى لموسى وهرون — حين دعوا بهذا : (قد أجيبت دعوتكما) ، فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هرون عليهما السلام . ومن ذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قال فرعون : (آمنت أنه لا إلـه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) ـ قال لى جبريل : لو رأيتنى وقد أخذت من حال البحر فدسسته فى فيه ، مخافة أن تناله الرحمة » ورواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة ، وقال الترمذى حديث حسن . وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة عن عدى ابن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لى جبريل : لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة » . ورواه الترمذى وابن جرير من حديث شعبة ، وقال الترمذى حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير فى رواية إلى وقفه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته : (آمنت أنه لا إلـه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه ، فجعل يأخذ الحال بجناحيه ، فيضرب به وجهه فيرمسه[2] . ورواه ابن جرير من حديث أبى خالد به . وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف ، وعن أبى حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «قال لى جبريل : يا محمد لو رأيتنى وأنا أغطه وأدس من الحال فى فيه ، مخافة أن يدركه رحمة الله فيغفر له » يَعنى فرعون . وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمى وقتادة وميمون ابن مهران ، ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس . وفى بعض الروايات إن جبريل قال : مابغضت أحدا بغضى لفرعون حين قال : (أنا ربكم الأعلى) ، ولقد جعلت أدس فى فيه الطين حين قال ما قال .

---

(١) آخر سورة غافر . (٢) أى يدفنه ويواريه فى الماء .

وقوله تعالى : (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) — استفهام إنكار ، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك ؛ لأنه — والله أعلم — لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) . قال الله : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) . وقوله : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) . قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون ، حتى قال بعضهم إنه لا يموت . فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع ؛ قيل على وجه الماء ، وقيل على نجوة من الأرض ، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ، ليتحققوا بذلك هلاكه ، ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : (فاليوم ننجيك ببدنك) أى مصاحباً درعك المعروفة بك ؛ (لتكون) أى أنت ـ آية (لمن خلفك) أى من بنى إسرائيل ، ودليلا على قدرة الله الذى أهلكك ، ولهذا قرأ بعض السلف : لتكون لمن خَلَقَك آية[1] . ويحتمل أن يكون المراد : ننجيك بجسدك مصاحباً درعك ؛ لتكون علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت ، والله أعلم . وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء ، كما قال الإمام البخارى فى صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : «ماهذا اليوم الذى تصومونه ؟» فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » . وأصل هذا الحديث فى الصحيحين وغيرهما . والله أعلم .

فصل فيما كان من أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : (فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ماهم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين * وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم[2]) . يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده فى غرقهم ، وكيف سلبهم عزهم وما لهم وأنفسهم ، وأورث بنى إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم ، كما قال : (كذلك

---

(١) أى بالقاف ، ومعناه : لتكون لخالقك آية على قدرته كسائر آياته (٢) الآيات : ١٣٦ – ١٤١ من الأعراف .

وأورثناها بنى إسرائيل[١]) وقال : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين[٢]) ، وقال ههنا : (وأرثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى أهلك ذلك جميعه ، وسلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا ، وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ، ولم يبق ببلد مصرى سوى العامة والرعايا . ذكر ابن عبد الحكم فى تاريخ مصر : أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصرى على رجالها ؛ بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة ، فكانت لهن السطوة عليهم . واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا .

وعند أهل الكتاب : أن بنى إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملا من الغنم ، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه . فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ؛ ليكون علامة لهم على بيوتهم . ولا يأكلونه مطبوخاً ، ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ، ولا يبقوا منه شيئاً ، ولا يكسروا له عظماً ، ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم . وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام : ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم ، وكان ذلك فى فصل الربيع ، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة ، وخفافهم فى أرجلهم ، وعصيهم فى أيديهم ، وليأكلوا بسرعة قياماً . ومهما فضل عن عشائهم فما بقى إلى الغد فليحرقوه بالنار . وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم مادامت التوراة معمولا بها ، فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع . قالوا : وقتل الله عز وجل فى تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ؛ ليشتغلوا عنهم . وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار ، وأهل مصر فى مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ، ليس من بيت إلا وفيه عويل . وحين جاء الوحى إلى موسى خرجوا مسرعين ، فحملوا العجين قبل اختماره ، وحملوا الأزواد[٣] فى الأردية وألقوها على عواتقهم . وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً ، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذرارى بما معهم من الأنعام ، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة ، هذا نص كتابهم .

وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ ، وهذا العيد عيد الفسخ . ولهم عيد الفطير ، وعيد الحمل وهو أول السنة . وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم ، منصوص عليها فى كتابهم . ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام . وخرجوا على طريق بحر سوف ، وكانوا فى النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم — يسير أمامهم فيه عمود نور ، وبالليل أمامهم عمود نار ، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك ، وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين ، وهم هناك حلول على

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة الشعراء (٢) الآية : ٥ من سورة القصص (٣) جمع زاد وهو طعام يتخذ للسفر .

شاطىء اليم ، فقلق كثير من بنى إسرائيل ، حتى قال قائلهم : كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية . فقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة : لاتخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا . قالوا : وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل فى البحر واليبس . وصار الماء من هاهنا وهاهنا كالجبلين ، وصار وسطه يبساً ؛ لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم . فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده ، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه ، فرجع الماء كما كان عليهم لكن عند أهل الكتاب : أن هـذا كان فى الليل ، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح . وهذا من غلطهم وعدم فهمهم فى تعريبهم ، والله أعلم .

قالوا ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ ـ سبح موسى و بنو إسرائيل بهـذا التسبيح للرب ، وقالوا : « نسبح الرب البهى ، الذى قهر الجنود ، ونبذ فرسانها فى البحر المنيع المحمود » ، وهو تسبيح طويل . قالوا وأخذت مريم النبية ـ أخت هارون ـ دفاً بيدها ، وخرج النساء فى أثرها كلهن بدفوف وطبول . وجعلت مريم ترتل لهن وتقول : سبحان الرب القهار ، الذى قهر الخيول وركبانها إلقاء فى البحر . هكذا رأيته فى كتابهم . ولعل هذا هو من الذى حمل محمد بن كعب القرظى على زعمه : أن مريم بنت عمران أم عيسى ـ هى أخت هرون وموسى ، مع قوله : (ياأخت هرون) .

وقد بينا غلطه فى ذلك ، وأن هذا لا يمكن أن يقال ، ولم يتابعه أحد عليه ، بل كل واحد خالفه فيه . ولو قدر أن هذا محفوظ ، فهذه مريم بنت عمران ـ أخت موسى وهرون عليهما السلام . وأم عيسى عليها السلام وافقتها فى الاسم واسم الأب واسم الأخ ؛ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة ، لما سأله أهل نجران عن قوله : يا أخت هرون فلم يدر مايقول لهم ، حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم ؟ » ، رواه مسلم . وقولهم النبية ؛ كما يقال للمرأة من بيت الملك ـ ملكة ، ومن بيت الإمرة أميرة ، وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك . فكذا هذه استعارة لها ـ لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها . وضربها بالدف فى مثل هذا اليوم الذى هو أعظم الأعياد عندهم ـ دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف فى العيد . وهذا مشروع لنا أيضاً فى حق النساء ؛ لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف فى أيام منى ، ورسول الله ﷺ مضطجع مولى ظهره إليهم ، ووجهه إلى الحائط . فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال : أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : « دعهن ياأبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا » . وهكذا يشرع عندنا فى الأعراس ولقدوم الغياب ، كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

وذكروا أنهم لما جازوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام ـ مكثوا ثلاثة أيام لايجدون ماء ، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك ، فوجدوا ماء زعافاً أجاجاً لم يستطيعوا شربه ، فأمر الله موسى

فأخذ خشبة فوضعها فيه ، فحلا وساغ شربه . وعلمه الرب هنالك فرائض وسنناً ، ووصاه وصايا كثيرة .

وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز ، المهيمن على ماعداه من الكتب : (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوماً تجهلون ۞ إن هؤلاء متبر ماهم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون[١]) . قالوا هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ، مادلهم على صدق ماجاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام . وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً : قيل كانت على صور البقر ، فكأنهم سألوهم لم يعبدونها ؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ، ويسترزقون بها عند الضرورات . فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم ، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ، فقال لهم ـ مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون : (إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم ، فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع ، والرسول الذى بين أظهرهم ، وماأحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، وما كانوا يعرشون . وبين لهم أنه لاتصلح العبادة إلا لله وحده لاشريك له ؛ لأنه الخالق الرازق القهار ، وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال ، بل هذا الضمير عائد على الجنس فى قوله : (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) ـ أى قال بعضهم ، كما فى قوله : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ۞ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً[٢]) فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الديلى عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة[٣] فقلنا يارسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط[٤] وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبى الله ﷺ : « الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم » . ورواه النسائى عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به . ورواه الترمذى عن سعيد ابن عبد الرحمن المخزومى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى به ، ثم قال حسن صحيح . وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحق ومعمر وعقيل عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان

---

(١) الآيتان : ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الكهف (٣) السدرة : شجرة النبق .

(٤) النوط : كل ماعلق من شىء ، والأنواط — المعاليق . وذات أنواط : اسم شجرة كانت تعبد فى الجاهلية ، كان المشركون ينوطون سلاحهم بها — أى يعلقونه بها ويعكفون حولها .

عن أبى واقد الليثى : أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال : وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ، ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها « ذات أنواط » . قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال : فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال : « قلتم والذى نفسى بيده ، كما قال قوم موسى : (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ✻ إن هؤلاء متبرماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

والمقصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس — وجد فيها قوماً من الجبارين ، من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم ، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس ؛ فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل ، وموسى الكليم الجليل ، فأبوا ونكلوا عن الجهاد . فسلط الله عليهم الخوف ، وألقاهم فى التيه ، يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون ، فى مدة من السنين طويلة — هى من العدد أربعون كما قال الله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين ✻ ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ✻ قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ✻ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ✻ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ✻ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ✻ قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ✻ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين[١]) .

يذكرهم نبى الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد فى سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم) — أى تنكصوا على أعقابكم ، وتنكلوا[٢] عن قتال أعدائكم (فتنقلبوا خاسرين) أى فتخسروا بعد الربح ، وتنقصوا بعد الكمال . (قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين) أى عتاة كفرة متمردين ، (وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً ، وأكثر جمعاً وأعظم جنداً . وهذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة ، ومذمومون على هذه الحالة ؛ من الذلة عن مصاولة الأعداء ، ومقاومة المردة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة ، يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاماً جداً ، حتى إنهم ذكروا أن رسل بنى إسرائيل لما قدموا عليهم —

---

(١) الآيات : ٢٠ — ٢٦ من سورة المائدة (٢) أى تجبنوا .

تلقاهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ، ويلفهم فى أكمامه وحجرة سراويله — وهم اثنا عشر رجلا — فجاء بهم فنثرهم بين يدى ملك الجبارين ، فقال ما هؤلاء ؟ ولم يعرف أنهم من بنى آدم حتى عرفوه . وكل هذه هذيانات وخرافات لاحقيقة لها . وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفى الرجل ، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم ، وهذا ليس بصحيح .

وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بنى إسرائيل ليهلكهم ، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع . هكذا ذكره البغوى وغيره ، وليس بصحيح ، كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » . قالوا فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ، ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى ، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً فى عنق عوج بن عنق . ثم عمد موسى إليه فوثب فى الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع ، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله . يروى هذا عن عوف البكالى ، ونقله ابن جرير عن ابن عباس ، وفى إسناده إليه نظر . ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات ، وكل هذه من وضع جهال بنى إسرائيل ؛ فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ، ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين فى النكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم . وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإحجام . ويقال : إنهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدى والربيع بن أنس ، وغير واحد .

(قال رجلان من الذين يخافون) أى يخافون الله ، وقرأ بعضهم يُخافون — أى يهابون (أنعم الله عليهما) أى بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ۞ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى إذا توكلتم على الله ، واستعنتم به ولجأتم إليه — نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم . (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ، ووقع أمر عظيم ووهن كبير ، فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام — شقا ثيابهما ، و إن موسى وهرون سجدا — إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله عز وجل ، وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة ، (قال رب إنى لاأملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا و بين القوم الفاسقين) قال ابن عباس : اقض بينى وبينهم . (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) عوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض ؛ يسيرون إلى غير مقصد ، ليلا ونهاراً وصباحاً ومساء . و يقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله ، بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة ، ولم يبق إلا ذراريهم — سوى يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى ؛ بل لما استشارهم فى الذهاب إلى النفير[١] — تكلم الصديق فأحسن ، وتكلم غيره من المهاجرين . ثم جعل يقول : « أشيروا على » ، حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يارسول الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُر فى الحرب ، صُدُق[٢] فى اللقاء ، لعل الله أن يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحمسى عن طارق — هو ابن شهاب — أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يارسول الله إنا لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت ور بك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ، ولكن اذهب أنت ور بك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . وهذا إسناد جيد من هذا الوجه ، وله طرق أخرى .

قال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود : لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لأن أكون أنا صاحبه — أحب إلى مما عدل به . أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين ، فقال : والله يارسول الله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت ور بك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ، ولكننا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك . رواه البخارى فى التفسير ، والمغازى من طرق عن مخارق به . وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا على بن الحسين بن على ، حدثنا أبو حاتم الرازى ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنا حميد عن أنس : أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر ، استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يامعشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ ، قالوا : إذاً لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت ور بك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ، والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى بَرْك[٣] الغِماد لاتبعناك ، رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به . ورواه النسائى عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معمر عن حميد عن أنس به نحوه .

---

(١) هم الذين جاءوا لمنع العير التى كانت مع أبى سفيان ، وكانوا فى جمع بين التسعمائة والألف وهم على أتم الاستعداد كما ذكره المؤرخون .

(٢) صبر وصدق — بضمتين فيهما : جمعا صبور وصدوق .

(٣) قال فى القاموس : برك الغماد بالفتح والكسر — موضع باليمن ، أو وراء مكة بخمس ليال ، أو أقصى معمور الأرض ، ولعل هذا هو المراد هنا .

فصل فى دخول بنى إسرائيل التيه

وماجرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بنى إسرائيل عن قتال الجبارين ، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه ، وحكم بأنهم لايخرجون منه إلى أربعين سنة . ولم أر فى كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ، ولكن فيها : أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار ، وأن موسى وهرون وخور - جلسوا على رأس أكمة ، ورفع موسى عصاه ، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم ، وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه - غلبهم أولئك ، وجعل هرون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس ، فانتصر حزب يوشع عليه السلام . وعندهم أن « يثرون » كاهن مدين وختن موسى عليه السلام — بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون ، فقدم على موسى مسلماً ، ومعه ابنته « صفورا » زوجة موسى ، وابناها منه : جرشون ، وعازر ، فتلقاه موسى وأكرمه ، واجتمع به شيوخ بنى إسرائيل وعظموه وأجلوه .

وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بنى إسرائيل على موسى فى الخصومات التى تقع بينهم ، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالا أمناء أتقياء أعفاء ؛ يبغضون الرشاء والخيانة ، فيجعلهم على الناس رءوس ألوف ، ورءوس مئين ، ورءوس خمسين ، ورءوس عشرة - فيقضوا بين الناس ، فإذا أشكل عليهم أمر جاءوك ففصلت بينهم ماأشكل عليهم ، ففعل ذلك موسى عليه السلام .

قالوا : ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء - فى الشهر الثالث من خروجهم من مصر . وكان خروجهم فى أول السنة التى شرعت لهم — وهى أول فصل الربيع ، فكأنهم دخلوا التيه فى أول فصل الصيف ، والله أعلم . قالوا : ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء ، وصعد موسى الجبل فكلمه ربه ، وأمره أن يذكر بنى إسرائيل ماأنعم به عليهم ؛ من إنجائه إياهم من فرعون وقومه ، وكيف حملهم على مثل جناحى نسر من يده وقبضته ، وأمره أن يأمر بنى إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث ، فإذا كان فى اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ، ولا يقتربن أحد منهم إليه ؛ فمن دنا منه قتل ، حتى ولا شىء من البهائم - ماداموا يسمعون صوت القرن [1] فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه ، فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا .

فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة ، وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً . ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً ، وخرجوا فقاموا فى سفح الجبل ، وغشى الجبل دخان

---

(١) القرن : أعلى الجبل .

عظيم فى وسطه عمود نور زلزل الجبل كله زلزلة شديدة ، واستمر صوت الصور — وهو البوق — واشتد . وموسى عليه السلام فوق الجبل ، والله يكلمه و يناجيه . وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل ؛ فأمر بنى إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله ، وأمر الأحبار ـ وهم علماؤهم ـ أن يدنوا فيصعدوا الجبل ، ليتقدموا بالقرب . وهذا نص فى كتابهم على وقوع النسخ لا محالة . فقال موسى : يارب إنهم لايستطيعون أن يصعدوه ، وقد نهيتهم عن ذلك ، فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتى معه بأخيه هرون ، وليكن الكهنة وهم العلماء ، والشعب وهم بقية بنى إسرائيل — غير بعيد ، ففعل موسى وكلمه ربه عز وجل ، فأمره حينئذ بالعشر الكلمات .

وعندهم أن بنى إسرائيل سمعوا كلام الله ، ولكن لم يفهموا حتى فهمهم موسى . وجعلوا يقولون لموسى : بلغنا أنت عن الرب عز وجل ، فإنا نخاف أن نموت . فبلغهم عنه فقال : هذه العشر الكلمات وهى : الأمر بعبادة الله وحده لاشريك له ، والنهى عن الحلف بالله كاذباً . والأمر بالمحافظة على السبت ـ ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة ، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت ـ أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض . الذى يعطيك الله ربك . لاتقتل . لاتزن . لاتسرق . لاتشهد على صاحبك شهادة زور لاتمد عينك إلى بيت صاحبك ، ولا تشته امرأة صاحبك ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً من الذى لصاحبك — ومعناه النهى عن الحسد .

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم : مضمون هذه العشر الكلمات فى آيتين من القرآن ، وهما قوله تعالى فى سورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم و إياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ✱ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، و بعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ✱ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه . . . الآية[1]) . وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة ، كانت فزالت ، وعملت بها حيناً من الدهر . ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ، ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها . ثم بعد ذلك كله سلبوها ، فصارت منسوخة مبدلة ، بعدما كانت مشروعة مكملة . فلله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو الذى يحكم مايشاء و يفعل مايريد ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

---

(١) الآيات : ٥١ — ٥٣

وقد قال الله تعالى : (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات مارزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى * وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى[١]) يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بنى إسرائيل ؛ بما أنجاهم من أعدائهم ، وخلصهم من الضيق والحرج ، وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن — أى منهم ؛ لينزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم فى دنياهم وأخراهم . وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم فى الأرض التى ليس فيها زرع ولا ضرع — مَنًّا من السماء ، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم ، فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم إلى مثله من الغد ، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد ، ومن أخذ منه قليلا كفاه ، أو كثيراً لم يفضل عنه . فيصنعون منه مثل الخبز ، وهو فى غاية البياض والحلاوة ، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السَّلوى ، فيقتنصون منه بلا كلفة مايحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم .

وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام — وهو السحاب ، الذى يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر ؛ كما قال تعالى فى سورة البقرة : (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون[٢]) — إلى أن قال : (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون * وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون * وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات مارزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[٣]) — إلى أن قال : (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها

---

(١) الآيات : ٨٠ — ٨٢ من سورة طه . (٢) الآيتان : ٤٠ ، ٤١
(٣) الآيات : ٤٩ — ٥٧ .

و بصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصراً فإن لـكم ماسألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون[1]) .

فذكر تعالى إنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، بما يسر لهم من المن والسلوى ـ طعامين شهيين بلا كلفة ولاسعى لهم فيه ، بل ينزل الله المن باكراً ، ويرسل عليهم طير السلوى عشياً ، وأنبع الماء لهم ؛ يضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا ، فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ـ لـكل سبط عين منه تنبجس[2] . ثم تتفجر ماء زلالا فيستقون و يسقون دوابهم ، ويدخرون كفايتهم ، وظلل عليهم الغمام من الحر . وهذه نعم من الله عظيمة ، وعطيات جسيمة ، فما رعوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها . ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها ، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها ؛ مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها[3] وعدسها و بصلها . فقرعهم الـكليم ووبخهم ، وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا : (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لـكم ماسألتم) أى هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى أنتم فيها ـ حاصل لأهل الأمصار الصغار والـكبار موجود بها ، و إذا هبطتم إليها ـ أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها ـ تجدون بها ماتشتهون وماترومون مماذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ، ولـكنى لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا ، ولا أبلغكم ماتعنتم به من المنى . وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم ـ تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه ؛ كما قال تعالى : (ولا تطغوا فيه فيحل عليـكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى فقد هلك . وحق له والله الهلاك والدمار ، وقد حل عليه غضب الملك الجبار .

ولـكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد ، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد ، فقال : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) .

سؤال الرؤية

قال تعالى : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين ، ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ، ولـكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ☆ قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ☆ وكتبنا

---

(١) الآيتان : ٦٠ ، ٦١ (٢) أى تنشق . (٣) الفوم : الثوم والحنطة والحمص وسائر الحبوب التى تخبز .

له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين ✲ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ، و إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ✲ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون[١]) .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هى : شهر ذى القعدة بكماله ، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذى الحجة . فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر ، وفى مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه ، وأقام حجته وبراهينه . والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات ، وكان فيه صائماً ــ يقال إنه لم يستطعم الطعام ، فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه ، فأمره الله أن يمسك عشراً أخرى ، فصارت أربعين ليلة . ولهذا ثبت فى الحديث : أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بنى إسرائيل أخاه هرون ، المحبب المبجل الجليل ، وهو ابن أمه وأبيه ، ووزيره فى الدعوة إلى مصطفيه . فوصاه ، وأمره وليس فى هذا لعلو منزلته فى نبوته منافاة . قال الله تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا) أى فى الوقت الذى أمر بالمجىء فيه (وكلمه ربه) أى كلمه الله من وراء حجاب ، إلا أنه أسمعه الخطاب ، فناداه وناجاه ، وقربه وأدناه . وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ، ومنصب شريف ومنزل منيف ، فصلوات الله عليه تترى ، وسلامه عليه فى الدنيا والأخرى . ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية ، وسمع الخطاب ــ سأل رفع الحجاب ، فقال للعظيم الذى لاتدركه الأبصار القوى البرهان : (ربى أرنى أنظر إليك قال لن ترانى) . ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى ؛ لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان ــ لا يثبت عند التجلى من الرحمان ، ولهذا قال : (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) .

وفى الكتب المتقدمة : أن الله تعالى قال له : « ياموسى إنه لا يرانى حى إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده[٢] » . وفى الصحيحين عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «حجابه النور ــ وفى رواية النار ــ لوكشفه لأحرقت سبحات وجهه[٣] ما انتهى إليه بصره من خلقه» . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : (لاتدركه الأبصار) ــ ذاك نوره الذى هو نوره ؛ إذا تجلى لشىء لا يقوم له شىء ، ولهذا قال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) .

---

(١) الآيات : ١٤٢ ــ ١٤٧ من سورة الأعراف .
(٢) أى تدحرج وانقلب بعضه على بعض (٣) السبحات : مواضع السجود ، وسبحات وجه الله : أنواره .

قال مجاهد : (ولـكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ، (فلما تجلى ربه للجبل) فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فدك على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل نخر صعقاً . وقد ذكرنا فى التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذى ، وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت . زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال هكذا بإصبعه ، ووضع النبى ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل ، لفظ ابن جرير . وقال السدى عن عكرمة عن ابن عباس : ما تجلى — يعنى من العظمة — منه إلاقدر الخنصر فجعل الجبل دكا — قال : تراباً ، (وخر موسى صعقاً) أى مغشياً عليه . وقال قتادة : ميتاً . والصحيح الأول لقوله : (فلما أفاق) ؛ فإن الإفاقة إنما تـكون عن غشى ، قال : (سبحانك) — تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ، (تبت إليك) أى فلست أسأل بعد هذا — الرؤية ، (وأنا أول المؤمنين) أنه لا يراك حى إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده .

وقد ثبت فى الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبى حسن المازنى الأنصارى عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتخيرونى من بين الأنبياء ؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور ؟» لفظ البخارى . وفى أوله قصة اليهودى الذى لطم وجهه الأنصارى حين قال: لاوالذى اصطفى موسى على البشر . فقال رسول الله : « لا تخيرونى من بين الأنبياء » . وفى الصحيحين من طريق الزهرى عن أبى سلمة وعبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه . وفيه : « لا تخيرونى على موسى » وذكر تمامه . وهذا من باب الهضم والتواضع ، أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية ، أو ليس هذا إليكم بل الله هوالذى رفع بعضهم فوق بعض درجات ، وليس ينال هذا بمجرد الرأى بل بالتوقيف .

ومن قال إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم — ففى قوله نظر ؛ لأن هذا من رواية أبى سعيد وأبى هريرة ، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخراً ، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا ، والله أعلم . ولاشك أنه — صلوات الله وسلامه عليه — أفضل البشر بل الخليقة ، قال الله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وما كملوا إلا بشرف نبيهم .

وثبت بالتواتر عنه — صلوات الله وسلامه عليه — أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » . ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، الذى تحيد عنه الأنبياء والمرسلون ، حتى أولو العزم الأكملون : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وقوله ﷺ : « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش — أى آخذاً بها — فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » —

دليل على أن هـذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامة ، حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده ، فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال ، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ، ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء ، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش . قال الصادق المصدوق : «فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى ؟» أى كانت صعقته خفيفة ، لأنه قد ناله بهـذا السبب فى الدنيا صعق ، «أو جوزى بصعقة الطور ؟» يعنى فلم يصعق بالكلية . وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية ، ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه . ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة ؛ لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودى حين قال : لا والذى اصطفى موسى على البشر ـ قد يحصل فى نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام ، فبين النبى ﷺ فضيلته وشرفه .

وقوله تعالى : (قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) أى فى ذلك الزمان ، لا ما قبله ؛ لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك فى قصة إبراهيم ، ولا مابعده ؛ لأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء ، وكما ثبت أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم» . وقوله تعالى : (فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) ـ أى فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك .

قال الله تعالى : (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء) وكانت الألواح من جوهر نفيس . ففى الصحيح : أن الله كتب له التوراة بيده ، وفيها مواعظ عن الآثام ، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام . (فخذها بقوة) أى بعزم ونية صادقة قوية (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها . (سأريكم دار الفاسقين) أى سترون عاقبة الخارجين عن طاعتى ، المخالفين لأمرى ، المكذبين لرسلى . (سأصرف عن آياتى) أى عن فهمها وتدبرها ، وتعقل معناها الذى أريد منها ، ودل عليه مقتضاها ـ (الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها) أى ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات ـ لاينقادوا لاتباعها ، (وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا) أى لايسلكوه ولايتبعوه (وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أى صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا ، وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكر فى معناها ، وترك العمل بمقتضاها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) .

قصة عبادتهم العجل فى غيبة كليم الله عنهم

قال الله تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لايكلمهم ولايهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا لئن لم يرحمنا

ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلاتشمت بى الأعداء ولاتجعلنى مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولماسكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)[1] .

وقال تعالى : (وما أعجلك عن قومك ياموسى * قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى * قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها ، فكذلك ألقى السامرى * فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى * أفلايرون آن لايرجع إليهم قولا * ولايملك لهم ضراً ولا نفعاً * ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال ياهرون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا * أن لا تتبعن أفعصيت أمرى ؟ * قال يابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى * قال فما خطبك ياسامرى ؟ * قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى * قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس ، وإن لك موعداً لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً ، لنحرقنه ، ثم لننسفنه فى اليم نسفاً * إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً)[2] .

يذكر تعالى ماكان من أمر بنى إسرائيل ، حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه ، فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة ، وهو تعالى يجيبه عنها . فعمد رجل منهم يقال له هرون السامرى ، فأخذ ما كان استعاروه من الحلى ، فصاغ منه عجلا وألقى فيه قبضة من التراب ، كان أخذها من أثر فرس جبريل ، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه . فلما ألقاها فيه خار[3] كما يخور العجل الحقيقى . ويقال إنه استحال عجلا جسداً — أى لحماً ودماً حياً يخور ، قاله قتادة وغيره . وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون . (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى فنسى موسى ربه عندنا ، وذهب يتطلبه وهو ههنا . تعالى

---

(١) الآيات : ١٤٨ — ١٥٤ من سورة الأعراف (٢) الآيات : ٨٣ — ٩٨ من سورة طه .

(٣) الخوار : صوت البقر والغنم والظباء .

الله عما يقولون علواً كبيراً ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، وتضاعفت آلاؤه وهباته . قال الله تعالى مبيناً بطلان ماذهبوا إليه ، وماعولوا عليه من إلهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيواناً بهيماً ، وشيطاناً رجيماً : (أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟) وقال : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) . فذكر أن هذا الحيوان لايتكلم ولايرد جواباً ، ولا يملك ضراً ولانفعاً ، ولايهدى إلى رشد . اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم ، عالمون فى أنفسهم بطلان ماهم عليه من الجهل والضلال . (ولما سقط فى أيديهم) أى ندموا على ماصنعوا (ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين) .

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ، ورأى ماهم عليه من عبادة العجل ، ومعه الألواح المتضمنة التوراة – ألقاها ، فيقال إنه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب ، وإن الله أبدله غيرها ، وليس فى اللفظ القرآنى مايدل على ذلك ، إلا أنه ألقاها حين عاين ماعاين . وعند أهل الكتاب : أنهما كانا لوحين ، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة . ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل ، فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: « ليس الخبر كالمعاينة » . ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم ، وهجنهم فى صنيعهم هذا القبيح ، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ؛ (قالوا إنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى) تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار ، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار . ثم أقبل على أخيه هرون عليهما السلام قائلا له : (ياهرون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا أن لاتتبعن) أى هلا – لما رأيت ماصنعوا – اتبعتنى فأعلمتنى بما فعلوا . فقال : (إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل) أى تركتهم وجئتنى وأنت قد استخلفتنى فيهم . (قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) . وقد كان هرون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى ، وزجرهم عنه أتم الزجر .

قال الله تعالى : (ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به) أى إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ، (وإن ربكم الرحمن) أى لاهذا (فاتبعونى) أى فيما أقول لكم (وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) . يشهد الله لهرون عليه السلام (وكفى بالله شهيداً) – أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه . ثم أقبل موسى على السامرى (قال فما خطبك ياسامرى ؟) أى ماحملك على ماصنعت ؟ (قال بصرت بما لم يبصروا به) أى رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه

رآه ، وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه فى هذا العجل المصنوع من الذهب ــ كان من أمره ما كان . ولهذا قال : (فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ۞ قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس) وهذا دعاء عليه بأن لايمس أحداً ، معاقبة له على مسه مالم يكن له مسه . هذا معاقبة له فى الدنيا ، ثم توعده فى الأخرى فقال : (وإن لك موعداً لن تخلفه) وقرىء لن تُخلِفه (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً) . قال : فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل ، فحرقه بالنار ، كما قاله قتادة وغيره . وقيل بالمبارد ، كما قاله على وابن عباس وغيرهما ، وهو نص أهل الكتاب ، ثم ذراه فى البحر ، وأمر بنى إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه مايدل عليه ، وقيل بل اصفرت ألوانهم .

ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم : (إنما إلهكم الله الذى لاإله إلا هو وسع كل شىء علماً) . وقال تعالى : (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين) وهكذا وقع . وقد قال بعض السلف : (وكذلك نجزى المفترين) مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة .

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه ، وإحسانه على عبيده فى قبوله توبة من تاب إليه ــ بتوبته عليه ، فقال : (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل إلا بالقتل ؛ كما قال تعالى : (وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم [1]) فيقال إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف ، وألقى الله عليهم ضباباً حتى لايعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه . ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم ، فيقال إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة ــ سبعين ألفاً .

ثم قال تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) . استدل بعضهم بقوله : وفى نسختها ــ على أنها تكسرت ، وفى هذا الاستدلال نظر ، وليس فى اللفظ مايدل على أنها تكسرت ، والله أعلم .

وقد ذكر ابن عباس فى حديث الفتون كما سيأتى : أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر ، وما هو ببعيد ؛ لأنهم حين خرجوا (قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) . وهكذا عند أهل الكتاب ؛ فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس . وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل ــ قتلوا فى أول يوم ثلاثة آلاف ، ثم ذهب موسى يستغفر لهم ، فغفر لهم بشرط

---

(١) الآية : ٥٤ من سورة البقرة .

أن يدخلوا الأرض المقدسة . (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون[١]) .

ذكر السدى وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين : كانوا علماء بنى إسرائيل ، ومعهم موسى وهرون ويوشع وناداب وأبيهو ؛ ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بنى إسرائيل فى عبادة من عبد منهم العجل . وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا ، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع — صعد موسى الجبل ، فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله . وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين ، وحملوا عليه قوله تعالى : (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[٢]) . وليس هذا بلازم ؛ لقوله تعالى : (فأجره حتى يسمع كلام الله[٣]) أى مبلغاً ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام . وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله ، وهذا غلط منهم ؛ لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة ، كما قال تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) . وقال ههنا (فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ... الآية) .

قال محمد بن إسحق : اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا : الخير فالخير ، وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء ، لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم . فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله ، فقال أفعل . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل فى الغمام ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله ، وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى : يأمره وينهاه ـ افعل ولا تفعل . فلما فرغ الله من أمره ، وانكشف عن موسى الغمام — أقبل إليهم فقالوا : (يا موسى لن نؤمن لك حتى

---

(١) الآيات : ١٥٥ ـ ١٥٧ من سورة الأعراف (٢) الآية : ٧٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٦ من سورة التوبة .

نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة ـ وهى الصاعقة ، فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً . فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول : (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟) أى لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل . وقوله : (إن هى إلا فتنتك) أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . قاله ابن عباس وسعيد ابن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف . يعنى أنت الذى قدرت هذا ، وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما : (قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به) أى اختبرتم . ولهذا قال : (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) أى من شئت أضللته باختبارك إياه ، ومن شئت هديته . لك الحكم والمشيئة ، ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت . (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك) أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا . قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمى والضحاك والسدى وقتادة وغير واحد . وهو كذلك فى اللغة .

(قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء) أى أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها وأقدرها . (ورحمتى وسعت كل شىء) كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » . (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى فسأوجبها حتما لمن يتصف بهذه الصفات : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ... الآية) وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام ، فى جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها فى التفسير بما فيه كفاية ومقنع ، ولله الحمد والمنة .

وقال قتادة : قال موسى يارب إنى أجد فى الألواح أمة هى خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون فى الخلق ، السابقون فى دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها ، وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظراً ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، قال : رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب[1] ، فاجعلهم أمتى ،

---

(١) المراد بالأعور الكذاب ـ الدجال كما ورد فى صفته من طرق صحيحة .

قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ، ويؤجرون عليها . وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه — بعث الله عليها ناراً فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم ، قال : رب فاجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب فإنى أجد فى الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال : رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم ، فاجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلنى من أمة أحمد . وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام ، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها . ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه ، وحسن هدايته ومعونته وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان فى صحيحه : [ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة] . أخبرنا عمر بن سعيد الطائى بمنبج ، حدثنا حامد بن يحيى البلخى ، حدثنا سفيان ، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان ، قالا سمعنا الشعبى يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبى ﷺ : « إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل — أى أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل يحيا بعد مايدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له ادخل الجنة . فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا إخاذاتهم[1] ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم أى رب ، فيقال : لك هذا ومثله ومثله . فيقول : أى رب رضيت ، فيقال له : لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك . وسأل ربه : أى أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال سأحدثك عنهم ؛ غرست كرامتهم بيدى ، وختمت عليها ، فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . ومصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل : (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

وهكذا رواه مسلم والترمذى كلاهما عن ابن أبى عمر ، عن سفيان — وهو ابن عيينة — به . ولفظ مسلم : « فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب . فيقال له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول فى الخامسة : رضيت رب . فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول رضيت رب . قال رب فأعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر » .

---

(١) الإخاذة : أرض يعطيكها الإمام ليست ملكا لآخر . والمراد : أخذوا منازلهم التى أعدها الله لهم .

قال : ومصداقه من كتاب الله : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)
وقال الترمذى حسن صحيح . قال ورواه بعضهم عن الشعبى عن المغيرة فلم يرفعه ، والمرفوع أصح .

وقال ابن حبان : [ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع] . حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس ، حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها . قال : يارب أى عبادك أتقى ؟ قال الذى يذكر ولا ينسى . قال : فأى عبادك أهدى ؟ قال الذى يتبع الهدى . قال : فأى عبادك أحكم ؟ قال الذى يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال : فأى عبادك أعلم ؟ قال عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه . قال : فأى عبادك أعز ؟ قال الذى إذا قدر غفر . قال : فأى عبادك أغنى ؟ قال الذى يرضى بما يؤتى . قال : فأى عبادك أفقر ؟ قال صاحب منقوص » . وقال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن ظهر [1] إنما الغنى غنى النفس ، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه فى نفسه وتقاه فى قلبه ، وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه » . قال ابن حبان : قوله : صاحب منقوص — يريد به منقوص حالته ، يستقل ما أوتى ويطلب الفضل . وقد رواه ابن جرير فى تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب التميمى عن هٰرون بن هبيرة عن أبيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه . وفيه « قال : أى رب فأى عبادك أعلم ؟ قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه ، عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : أى رب فهل فى الأرض أحد أعلم منى ؟ قال : نعم ، الخضر . فسأل السبيل إلى لقيه » فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله ، وبه الثقة .

ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحق ، حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن موسى قال : أى رب عبدك المؤمن مقتر عليه فى الدنيا ، قال ففتح له باب من الجنة فنظر إليها ، قال : ياموسى هذا ما أعددت له . فقال موسى : يارب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه ، منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة ، وكان هذا مصيره — لم ير بؤساً قط . قال : ثم قال : أى رب عبدك الكافر موسع عليه فى الدنيا ، قال ففتح له باب إلى النار ، فيقول : ياموسى هذا ما أعددت له . فقال موسى : أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة ، وكان هذا مصيره — لم ير خيراً قط » ، تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وفى صحته نظر . والله أعلم .

---

(١) الظهر : المال الكثير .

وقال ابن حبان : [ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به] . حدثنا ابن سلمة حدثنا حرملة بن يحيي ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث أن دراجاً حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « قال موسى : يارب علمنى شيئاً أذكرك به وأدعوك به . قال : قل ياموسى : لاإله إلا الله . قال : يارب كل عبادك يقول هذا . قال : قل لاإله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصنى به . قال : ياموسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولاإله إلا الله فى كفة مالت بهم لاإله إلا الله » . ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة . وأقرب شىء إلى معناه الحديث المروى فى السنن عن النبى ﷺ أنه قال : « أفضل الدعاء دعاء عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى — لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » .

وقال ابن أبى حاتم عند تفسير آية الكرسى : حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسكى ، حدثنى أبى عن أبيه ، حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس : أن بنى إسرائيل قالوا لموسى : هل ينام ربك ؟ قال اتقوا الله . فناداه ربه عزوجل : ياموسى سألوك هل ينام ربك ؛ فخذ زجاجتين فى يديك فقم الليل ، ففعل موسى . فلما ذهب من الليل ثلثه نعس فوقع لركبتيه ، ثم انتعش فضبطهما . حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا ، فقال : ياموسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان فى يديك . قال : وأنزل الله على رسوله آية الكرسى .

وقال ابن جرير : حدثنا إسحق بن أبى إسرائيل ، حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال : « وقع فى نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله إليه ملكا فأرقه ثلاثاً ، ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان ، فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى ، حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان ، قال : ضرب الله له مثلا — أن لو كان ينام لم يستمسك السماء والأرض » ، وهذا حديث غريب رفعه . والأشبه أن يكون موقوفاً ، وأن يكون أصله إسرائيلياً . وقال الله تعالى : (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا مافيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين [1]) وقال تعالى : (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون [2]) قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة — أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم .

---

(١) الآيتان : ٦٣ ، ٦٤ من سورة البقرة (٢) الآية : ١٧١ من سورة الأعراف .

فقالوا : انشرها علينا ، فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها ، فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مراراً ، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رءوسهم حتى صار كأنه ظلة — أى غمامة — على رءوسهم. وقيل لهم إن لم تقبلوها بمافيها و إلا سقط هذا الجبل عليكم — فقبلوا ذلك ، وأمروا بالسجود فسجدوا ، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم ، فصارت سنة لليهود إلى اليوم . يقولون لاسجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد عن أبى بكر بن عبد الله قال : فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فليس على وجه الأرض يهودى صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه . قال الله تعالى : (ثم توليتم من بعد ذلك) أى ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم — نكثتم عهودكم ومواثيقكم (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) بأن تداركـكم بالإرسال إليكم و إنزال الكتب عليكم — (لكنتم من الخاسرين) .

قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى : (و إذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزواً ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ۞ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ماتؤمرون ۞ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ۞ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ إن البقر تشابه علينا ، و إنا إن شاء الله لمهتدون ۞ قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ۞ و إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ۞ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى و يريكم آياته لعلكم تعقلون[(١)]) .

قال ابن عباس وعبيدة السلمانى وأبو العالية ومجاهد والسدى ، وغير واحد من السلف : كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال ، وكان شيخاً كبيراً ، وله بنو أخ ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه ، فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطرق — ويقال على باب رجل منهم — فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم ، فقالوا : مالكم تختصمون ولا تأتون نبى الله ؟ فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى ﷺ . فقال موسى عليه السلام : « أنشد الله رجلا[(٢)] عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به » ، فلم يكن عند أحد منهم علم منه . وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز وجل فسأل ربه عز وجل فى ذلك ، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة . فقال : (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزواً ؟) يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل ، وأنت تقول هذا ؟ (قال أعوذ بالله أن

---

(١) الآيات : ٦٧ — ٧٣ من سورة البقرة (٢) أى أسأله بالله وأستحلفه به .

أكون من الجاهلين) أى أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلى ، وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى عنه أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدى وأبو العالية وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها ـ لحصل المقصود منها ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . وقد ورد فيه حديث مرفوع ، وفى إسناده ضعف . فسألوا عن صفتها ، ثم عن لونها ، ثم عن سنها ـ فأجيبوا بما عز وجوده عليهم . وقد ذكرنا تفسير ذلك كله فى التفسير .

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان ـ وهى الوسط بين النصف الفارض وهى الكبيرة ، والبكر وهى الصغيرة قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة . ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها ، فأمروا بصفراء فاقع لونها ـ أى مشرب بحمرة ـ تسر الناظرين ، وهذا اللون عزيز . ثم شددوا أيضاً (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون) ، ففى الحديث المرفوع الذى رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه : « لولا أن بنى إسرائيل استثنوا لما أعطوا » ، وفى صحته نظر . والله أعلم (قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) وهذه الصفات أضيق مما تقدم ؛ حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول ـ وهى المذللة بالحراثة وسقى الأرض بالساقية ، مسلمة ـ وهى الصحيحة التى لاعيب فيها ، قاله أبو العالية وقتادة . وقوله : (لاشية فيها) أى ليس فيها لون يخالف لونها ، بل هى مسلمة من العيوب ، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها . فلما حددها بهذه الصفات ، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف (قالوا الآن جئت بالحق) .

ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه ، فطلبوها منه فأبى عليهم ، فأرغبوه فى ثمنها حتى أعطوه ـ فيما ذكره السدى ـ بوزنها ذهباً فأبى عليهم ، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها منهم . فأمرهم نبى الله موسى بذبحها (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى وهم يترددون فى أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها ؛ قيل بلحم فخذها ، وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف ، وقيل بالبضعة التى بين الكتفين . فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى ، فقام وهو يشخب[1] أوداجه ، فسأله نبى الله من قتلك ؟ قال قتلنى ابن أخى ، ثم عاد ميتاً كما كان . قال الله تعالى : (كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) أى كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له ـ كذلك أمره فى سائر الموتى ؛ إذا شاء إحياءهم أحياهم فى ساعة ، واحدة كما قال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . الآية)[2] .

---

(١) الشخب : الدم ، وصوت اللبن عند الحلب . وشخب أوداجه دما : قطعها فسالت . والأوداج جمع ودج وهو عرق العنق .
(٢) الآية : ٢٨ من سورة لقمان .

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا * فلما جاوزا قال لفتاة آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً ؟ * قال إنك لن تستطيع معى صبراً * وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً * قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً * قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكرا * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً * قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً * وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنزلهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً[1]) .

قال بعض أهل الكتاب : إن موسى هذا الذى رحل إلى الخضر — هو موسى بن منسا بن يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم ؛ منهم نوف بن فضالة الحميرى الشامى البكالى . ويقال إنه دمشقى ، وكانت أمه زوجة كعب الأحبار . والصحيح الذى دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه — أنه موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل . قال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ابن دينار قال : أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البِكالى يزعم أن موسى صاحب

---

(٢) الآيات : ٦٠ ــ ٨٢ من سورة الكهف .

الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله ؛ حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب فكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سربا . وأمسك الله عن الحوت جِرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق . فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجباً) قال : فكان للحوت سربا ، ولموسى ولفتاه عجباً . فقال له موسى : (ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصاً) قال : فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ قال أنا موسى ، قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم ؛ أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً (قال إنك لن تستطيع معى صبراً) . يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) .

فقال له الخضر : (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا) يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخَضِر فحملوهم بغير نول[1] . فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها (لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمراً[2] * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً) قال : وقال رسول الله ﷺ : فكانت الأولى من موسى نسياناً . قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : (أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ؟) قال : وهذه أشد من الأولى : (قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما

---

(١) نول : أجر ، والنول أيضاً كالمنول والمنوال : الخشب الذى يلف عليه الحائك الثوب (٢) أى منكراً .

فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) قال : مائل . فقام الخضر (فأقامه) بيده ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بيني و بينك . . . إلى قوله : ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » . قال سعيد بن جبير : فكان ابن عباس يقرأ : (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً) ، وكان يقرأ : (وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين) . ثم رواه البخارى أيضاً عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه . وفيه : « فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام » . قال سفيان : وفى حديث غير عمرو قال : وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة ، لا يصيب من مائها شىء إلا حيي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ، فلما استيقظ (قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا . . . الآية) وساق الحديث . قال : ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر ، فقال الخضر لموسى : ما علمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره ، وذكر تمام الحديث .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف : أن ابن جريج أخبرهم ، قال : أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير — يزيد أحدهما على صاحبه — وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال : إنا لعند ابن عباس فى بيته إذ قال سلونى ، فقلت : أى أبا عباس — جعلنى الله فداك — بالكوفة رجل قاص يقال له نوف ، يزعم أنه ليس بموسى نبى إسرائيل . أما عمرو فقال لى ، قال : قد كذب عدو الله . وأما يعلى فقال لى ، قال ابن عباس : حدثنى أبى بن كعب قال قال رسول الله ﷺ موسى رسول الله ، قال : ذكّر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ، ورقت القلوب ولّى ، فأدركه رجل فقال : أى رسول الله ! هل فى الأرض أحد أعلم منك ؟ قال لا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله ، قيل بلى . قال أى رب فأين ؟ قال بمجمع البحرين ، قال أى رب ! اجعل لى علَماً أعلم ذلك به . قال لى عمرو : قال حيث يفارقك الحوت ، وقال لى يعلى : قال خذ نوناً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل ، فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال ما كلفت كثيراً ، فذلك قوله جل ذكره : (وإذ قال موسى لفتاه) يوشع بن نون ، ليست عن سعيد بن جبير[1] ، قال بينما هو فى ظل صخرة فى مكان ثَريان[2] إذ تضرّب[3] الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه لا أوقظه ، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره ، وتضرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره فى حجر . قال لى عمرو : هكذا ، كأن أثره فى حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما (لقد لقينا من

(١) القائل ليست عن سعيد بن جبير — هو ابن جريج ، والمراد أن تسمية الفتى ليست عنده فى رواية سعيد .

(٢) أى مبلول (٣) تحرك .

سفرنا هذا نصباً) . قال قد قطع الله عنك النصب ، ليست هذه عن سعيد أخبره[١] فرجعا فوجدا خضراً — قال لى عثمان بن أبى سليمان — على طنفسة[٢] خضراء على كبد البحر ، قال سعيد بن جبير : مسجى بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه ، وقال : هل بأرضى من سلام ؟ من أنت ؟ قال أنا موسى . قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . قال فما شأنك ؟ قال جئتك لتعلمنى مما علمت رشداً ، قال أما يكفيك أن التوراة بيديك ، وأن الوحى يأتيك ؟ ياموسى ! إن لى علماً لا ينبغى لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغى لى أن أعلمه . فأخذ طائر بمنقاره من البحر ، فقال : والله ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر .

(حتى إذا ركبا فى السفينة) وجدا معابر[٣] صغاراً تحمل أهل هذا الساحل ، إلى أهل هذا الساحل الآخر ، عرفوه فقالوا عبد الله الصالح . قال فقلنا لسعيد : خضر؟ قال نعم . لا نحمله بأجر ، نخرقها ووتد فيها وتداً (قال) موسى : (أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرا) قال مجاهد : منكرا . (قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً) كانت الأولى نسياناً ، والوسطى شرطاً ، والثالثة عمداً ، (قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ✲ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله) ، قال يعلى قال سعيد : وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ، ثم ذبحه بالسكين (قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس) لم تعمل بالحبث . وكان ابن عباس قرأها : زكية زاكية مسلمة ؛ كقولك غلاماً زكياً ، فانطلقا (فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه) قال سعيد بيده هكذا ، ورفع يده فاستقام . قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال فمسحه بيده فاستقام (قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً) قال سعيد : أجراً نأكله ، (وكان وراءهم) وكان أمامهم ، قرأها ابن عباس : أمامهم ملك ، يزعمون عن غير سعيد : أنه « هُدَد بن بُدَد[٤] » والغلام المقتول اسمه يزعمون « جَيسور » (ملك يأخذ كل سفينة غصباً) فأردت إذا هى مرت به أن يدعها لعيبها ، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها . ومنهم من يقول : سدوها بقارورة ، ومنهم من يقول بالقار (وكان أبواه مؤمنين) وكان كافراً (فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً) أى يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ، (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) لقوله : (أقتلت نفساً زكية . (وأقرب رحما) هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل خضر .

وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية ، وأما داود بن أبى عاصم فقال عن غير واحد : أنها جارية .

---

(١) أى أخبر الفتى موسى بالقصة (٢) قال فى القاموس : الطنفسة مثلثة الطاء والفاء ، وبكسر الطاء وفتح الفاء ، وبالعكس — واحدة الطنافس للبسط والثياب والحصير عرضه ذراع . والمراد هنا : فرش صغير .

(٣) معابر — جمع معبر بكسر الميم : ما يعبر به كالسفينة والقارب وغيرهما .

(٤) يقصد القائل وهو ابن جريج — أن اسم الملك الذى كان يأخذ السفن لم تقع فى رواية سعيد . وزعم ابن دريد أن هدد اسم ملك من ملوك حمير زوجه سيدنا سليمان بلقيس .

وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خطب موسى بنى إسرائيل ، فقال ما أحد أعلم بالله و بأمره منى ، فأمر أن يلقى هذا الرجل ، فذكر نحو ماتقدم . وهكذا رواه محمد بن إسحق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضاً ، ورواه العوفى عنه موقوفاً . وقال الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس : أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى ؛ فقال ابن عباس هو خضر ، فمر بهما أبى بن كعب فدعاه ابن عباس ، فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيه ، فهل سمعت من رسول الله فيه شيئاً ؟ قال نعم ، وذكر الحديث . وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه فى تفسير سورة الكهف ولله الحمد .

وقوله : (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) قال السهيلى : وهما أصرم وصريم ابنا كاشح (وكان تحته كنز لهما) قيل كان ذهباً ، قاله عكرمة . وقيل علماً ، قاله ابن عباس . والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم . قال البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، حدثنا بشر بن المنذر ، حدثنا الحرث بن عبد الله اليحصبى عن عياش بن عباس الغسانى عن ابن حجيرة عن أبى ذر رفعه قال : «إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من الذهب مصمت مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب ؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل ؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله» . وهكذا روى عن الحسن البصرى وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق نحو هذا ، وقوله : (وكان أبوهما صالحاً) ، قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر . وعلى كل تقدير : فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته ، فالله المستعان . وقوله : (رحمة من ربك) ـ دليل على أنه كان نبياً ، وأنه مافعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبى ، وقيل رسول ، وقيل ولى . وأغرب من هذا من قال إنه كان ملكاً ، قلت وقد أغرب جداً من قال هو ابن فرعون ، وقيل إنه ابن ضحاك الذى ملك الدنيا ألف سنة .

قال ابن جرير : والذى عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن « أفريدون » ، ويقال إنه كان على مقدمة ذى القرنين ـ الذى قيل إنه كان أفريدون ، وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل . وزعموا أنه شرب من ماء الحياة نخلد وهو باق إلى الآن . وقيل إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم ، وهاجر معه من أرض بابل . وقيل اسمه ملكان ، وقيل أرميا بن خلقيا ، وقيل كان نبياً فى زمن سباسب بن لهراسب . قال ابن جرير : وقد كان بين أفريدون وبين سباسب ـ دهور طويلة لايجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب . قال ابن جرير : والصحيح أنه كان فى زمن أفريدون ، واستمر حياً إلى أن أدركه موسى عليه السلام . وكانت نبوة موسى فى زمن « منوشهر » الذى هو من ولد أيرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس ، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده ، وكان عادلا . وهو أول من خندق الخنادق ، وأول

من جعل فى كل قرية دهقاناً[1] ، وكانت مدة ملكه قريباً من مائة وخمسين سنة . ويقال إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم . وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكلم البليغ النافع الفصيح — مايبهر العقل ، ويحير السامع ، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل . والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم . . الآية)[2] .

فأخذ الله ميثاق كل نبى على أن يؤمن بمن يجىء بعده من الأنبياء وينصره ، فلو كان الخضر حياً فى زمانه — لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر ؛ كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة . وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبياً وهو الحق ، أو رسولا كما قيل ، أوملكا فيما ذكر . وأياما كان فجبريل رئيس الملائكة ، وموسى أشرف من الخضر ، ولو كان حياً لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته ، فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيرون ؟ فأولى أن يدخل فى عموم البعثة وأحرى . ولم ينقل فى حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد — أنه جاء يوماً واحداً إلى رسول الله ﷺ ، ولا اجتمع به . وما ذكر من حديث التعزية فيه ، وإن كان الحاكم قد رواه — فإسناده ضعيف ، والله أعلم وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا .

ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون

المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائى فى كتاب التفسير من سننه ، عند قوله تعالى فى سورة طه : (وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً) — ﴿ حديث الفتون ﴾ . حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا أصبغ بن زيد ، حدثنا القاسم بن أبى أيوب ، أخبرنى سعيد بن جبير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى : (وفتناك فتوناً) فسألته عن الفتون ماهى ؟ فقال استأنف النهار يابن جبير ؛ فإن لها حديثاً طويلا . فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ماوعدنى من حديث الفتون ، فقال : تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكا ، فقال بعضهم : إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك مايشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترون ؟

---

(١) قال فى القاموس : الدهقان بالكسر والضم — القوي على التصرف مع حدة ، والتاجر ، وزعيم فلاحي العجم ، ورئيس الإقليم ، والجمع دهاقنة ودهاقين ، والاسم الدهقنة .

(٢) الآية : ٨١ من سورة آل عمران .

فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار[1] ، يطوفون فى بنى إسرائيل ، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، ففعلوا ذلك . فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون – قالوا : توشكون أن تفنوا بنى إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى كانوا يكفونكم ؛ فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم ، فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم . فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لاتقتل فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة .

فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام ، فوقع فى قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون يابن جبير ، مادخل عليه فى بطن أمه مما يراد به . فأوحى الله إليها :أن (لاتخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) . فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت وتلقيه فى اليم ، فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان ، فقالت فى نفسها : مافعلت بابنى ؟ لو ذبح عندى فواريته وكفنته – كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه ؟ فانتهى الماء به حتى أوفى عند فُرضة[2] تستقى منها جوارى امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه ، فهممن أن يفتحن التابوت ، فقال بعضهن : إن فى هذا مالا ، و إنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى دفعنه إليها . فلما فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط . (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً) من ذكر كل شىء – إلا من ذكر موسى . فلما سمع الذباحون بأمره ، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ، وذلك من الفتون يابن جبير .

فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل ، حتى آتى فرعون فاستوهبه منه ؛ فإن وهبه منى كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألمكم . فأتت فرعون فقالت : (قرة عين لى ولك) ، فقال فرعون : يكون لك ، فأما لى فلا حاجة لى فيه . فقال رسول الله ﷺ : « والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له ، كما أقرت امرأته – لهداه الله كما هداها ، ولكن حرمه ذلك » .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار له ظئراً[3] ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه . لم يقبل على ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك . فأمرت به

---

(١) الشفار – جمع شفرة وهى : السكين العظيم ، وما عرض من الحديد وحدد .

(٢) الفرضة : ثلمة من النهر يستقى منها ، ومن البحر — محط السفن ، ومن الدواة — محل النقس « المداد » .

(٣) قال فى القاموس : الظئر :العاطفة على ولد غيرها المرضعة له ؛ فى الناس وغيرهم ، للذكر والأنثى .

فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها ، فلم يقبل . وأصبحت أم موسى والها[1] ، فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكراً ؟ أحيّ ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه (فبصرت به) أخته (عن جنب وهم لا يشعرون) ، والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به . فقالت من الفرح — حين أعياهم الظؤرات : أنا (أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) . فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم له ؟ هل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه — رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك . فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر ، فجاءت أمه ، فلما وضعته في حجرها نزا[2] إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا ، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً ، فأرسلت إليها فأتت بها وبه .

فلما رأت مايصنع بها ـ قالت امكثي ترضعي ابني هذا ؛ فإني لم أحب شيئاً حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه ، فأذهب به إلى بيتي ، فيكون معي لا آلوه خيراً ـ فعلت ؛ فإني غير تاركة بيتي وولدي . وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز موعوده ، فرجعت إلى بيتها من يومها ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما قد قضى فيه . فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ـ ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أريني ابني ، فوعدتها يوماً تريها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة ، لأرى ذلك فيه . وأنا باعثة أميناً يحصى كل ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه — إلى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به ، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه . ثم قالت : لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ماوعد الله إبراهيم نبيه ؟ إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به ، وأريد به فتوناً .

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون ، فقالت مابدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني ؟ فقالت اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق ؛ ائت بجمرتين

(١) الوله : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، والتوليه : أن يفرق بين المرأة وولدها ؛ يقال : رجل واله وامرأة واله ووالهة . (٢) أي وثب وهجم .

ولؤلؤتين فقربهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين — عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين — علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل . فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به ، وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده وكان من الرجال ـ لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة ، حتى امتنعوا كل الامتناع . فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة ، إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلى ، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فغضب موسى غضباً شديداً ؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل ، وحفظه لهم ما لم يطلع عليه غيره . فوكز موسى الفرعونى فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلى ، فقال موسى حين قتل الرجل : (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) ثم قال : (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ۞ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين ۞ فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب) الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له : إن بنى إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون ، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم ، فقال ابغونى قاتله ومن يشهد عليه ؛ فإن الملك وإن كان صفوه من قومه — لا ينبغى له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم . فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة ـ إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلا من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه ، وكره الذى رأى . فغضب الإسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى ، فقال للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم : (إنك لغوى مبين) ، فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ماقال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى ، فخاف أن يكون بعد ماقال له : إنك لغوى مبين ـ أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده ؛ إنما أراد الفرعونى . فخاف الإسرائيلى وقال : (يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟) وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول : (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس) . فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم ، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم . فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فإنه قال : (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ۞ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان) يعنى بذلك حابستين غنمهما ، فقال لهما : (ماخطبكما) ...

الناس قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم و إنما ننتظر فضول حياضهم . فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى فاستظل بشجرة ، وقال : (رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) . واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفّلا[1] بطانا[2] فقال إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته . فلما كلمه (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان ولسنا فى مملكته[3] ، فقالت إحداهما : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى فى ذلك السقى منه . وأما الأمانة فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أنى امرأة ـ صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك . ثم قال لى : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسرى عن أبيها وصدقها ، وظن به الذى قالت . فقال له : هل لك (أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) ففعل ، فكانت على نبى الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت السنتان عدة منه ، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً . قال سعيد ـ وهو ابن جبير ـ لقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، فقال هل تدرى أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت لا ، وأنا يومئذ لا أدرى . فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له ، فقال : أما علمت أن ثمانية كانت على نبى الله واجبة ، لم يكن نبى الله لينقص منها شيئاً ؟ وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التى وعده ؛ فإنه قضى عشر سنين . فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك ، فقال الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصى ويده — ما قص الله عليك فى القرآن . فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه ؛ فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هرون ؛ يكون له رداءً ، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه . فآتاه الله عز وجل سؤاله ، وحل عقدة من لسانه ، وأوحى الله إلى هرون فأمره أن يلقاه . فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هرون ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما . ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا : (إنا رسولا ربك) قال : (فمن ربكما ؟) فأخبراه بالذى قص الله عليك فى القرآن . قال فما تريدان ؟ ـ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت ـ قال أريد أن تؤمن بالله وترسل معى بنى إسرائيل ، فأبى عليه وقال : (ائت بآية إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه

(١) حفلا — جمع حافل . يقال ضرع حافل ـ كثير لبنه (٢) عظيمة البطن من الشبع .

(٣) ذلك لأن مدين بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية ، شمال الحجاز وجنوب فلسطين ، فلم تكن تابعة لملك مصر . وتنتسب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام .

فإذا هى) حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم[1] عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء — يعنى من غير برص — ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ من حوله فيما رأى فقالوا له : (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) يعنى ملكهم الذى هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير ، حتى تغلب بسحرك سحرهما . فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا بم يعمل هذا الساحر ؟ قالوا يعمل بالحيات . قالوا فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصى — الذى نعمل . فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربى وخاصتى ، وأنا صانع إليكم كل شىء أحببتم . فتواعدوا (يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) .

قال سعيد : فحدثنى ابن عباس أن يوم الزينة — اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة — هو يوم عاشوراء . فلما اجتمعوا فى صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) يعنون موسى وهرون استهزاء بهما ، فقالوا ياموسى بعد تريثهم بسحرهم : (إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) قال بل ألقوا ، (فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه : (أن ألق عصاك) فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها ، فجعلت العصى تلتبس بالحبال ، حتى صارت جرزاً[2] إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلا إلا ابتلعته ، فلما عرف السحرة ذلك ، قالوا لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكنه أمر من الله تعالى . آمنا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه . فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق (وبطل ما كانوا يعملون ❊ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) . وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ؛ وإنما كان حزنها وهمها لموسى . فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ؛ كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا مضت أخلف موعده وقال هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ — أرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ؛ ليوافقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده ، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه ، فخرج بهم ليلا .

فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا — أرسل فى المدائن حاشرين ، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة

---

(١) اقتحم : رمى بنفسه بلا روية (٢) الجرزة بالضم : الحزمة من القت ونحوه . والجرز بالضم أيضاً — عمود من حديد .

وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك موسى عبدى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقى بعد من فرعون وأشياعه . فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصى وانتهى إلى البحر وله قصيف[1] مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله عز وجل . فلما ترآء الجمعان وتقاربا (قال أصحاب موسى : إنا لمدركون) افعل ماأمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال وعدنى ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى . فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه ـ التقى عليهم البحر كما أمره ، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم (قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ✲ إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ؛ ومضى فأنزلهم موسى منزلا وقال : أطيعوا هرون فإن الله قد استخلفه عليكم ؛ فإنى ذاهب إلى ربى ، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها . فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه فى ثلاثين يوماً ، وقد صامهن ليلهن ونهارهن ـ كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ ـ وهو أعلم بالذى كان ـ قال يارب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح . قال : أو ماعلمت ياموسى أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، ارجع فصم عشراً ثم ائتنى ، ففعل موسى ماأمره به ربه . فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ـ ساءهم ذلك ، وكان هرون قد خطبهم فقال : إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع ، ولكم فيها مثل ذلك ، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ، ولسنا رادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا . فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية ـ أن يقذفوه فى ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقه ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر ـ جيران لبنى إسرائيل ، ولم يكن من بنى إسرائيل ـ فاحتمل[2] مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هرون : ياسامرى ألا تلقى مافى يديك ؟ وهو قابض عليه لايراه أحد طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها لشىء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون

---

(١) القصيف : هشيم البحر ـ أى تكسر أمواجه حتى يسمع لها صوت كالرعد (٢) أى ارتحل .

ماأريد ، فألقاها ودعا له هرون . فقال أريد أن تكون عجلا ، فاجتمع ما كان فى الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد — فصار عجلا أجوف ، ليس فيه روح وله خوار . قال ابن عباس : لا والله ماكان فيه صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه ، فكان ذلك الصوت من ذلك . فتفرق بنو إسرائيل فرقاً ؛ فقالت فرقة : ياسامرى ماهذا وأنت أعلم به ؟ قال هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق . وقالت فرقة : لانكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ؛ فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعكفنا عليه حين رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى . وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق وأشرب فرقة فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل وأعلنوا عدم التكذيب به ، فقال لهم هرون عليه السلام : (ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن) ليس هذا . قالوا فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا ؟ هذه أربعون يوماً قد مضت ، وقال سفهاؤهم أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه . فلما كلم الله موسى وقال له ماقال — أخبره بما لقى قومه من بعده ، (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) فقال لهم ماسمعتم مما فى القرآن (وأخذ برأس أخيه يجره إليه) وألقى الألواح من الغضب . ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له ، وانصرف إلى السامرى فقال له : ماحملك على ماصنعت ؟ قال قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم (فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ۞ قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس ، وإن لك موعداً لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً) ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه ، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هرون ، فقالوا لجماعتهم : ياموسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ماعملنا . فاختار موسى من قومه سبعين رجلا لذلك ، لايألو الخير من خيار بنى إسرائيل ومن لم يشرك فى الحق ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبى الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم مافعل . فقال : (ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟) وفيهم من كان الله اطلع منه على ماأشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال : (ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ۞ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) ، فقال يارب سألتك التوبة لقومى ، فقلت : إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى ، فليتك أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحوم . فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقى من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن . وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهرون ، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ماأمروا وغفر الله للقاتل والمقتول . ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض

المقدسة . وأخذ الألواح بعد ماسكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذى أمر به من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ، فنتق[1] الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل ، والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم . ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون ؛ خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجباً من عظمها ، فقالوا : (ياموسى إن فيها قوماً جبارين) لاطاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ماداموا فيها ، (فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ۞ قال رجلان من الذين يخافون) . قيل ليزيد هكذا قرأه ؟ قال نعم ؛ من الجبارين آمنا بموسى وخرجا إليه ، فقالوا نحن أعلم بقومنا : إن كنتم إنما تخافون مارأيتم من أجسامهم وعددهم ـ فإنهم لاقلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . ويقول أناس إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون من بنى إسرائيل . (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسماهم فاسقين . ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذ فاستجاب الله له ، وسماهم ـ كما سماهم موسى ـ فاسقين ، وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار . ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لاتبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً . وأمر موسى فضربه بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فى كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها ، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس[2] .

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ ، وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل . فقال كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولاظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك ؟ فغضب ابن عباس ، فأخذ بيده معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى ، فقال له : ياأبا إسحق ، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه ـ أم الفرعونى ؟ قال إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد ذلك وحضره . هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائى ، وأخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيرهما من حديث يزيد بن هرون . والأشبه والله أعلم أنه موقوف ، وكونه مرفوعاً فيه نظر . وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شىء يسير مصرح برفعه فى أثناء الكلام . وفى بعض مافيه نظر ونكارة ، والأغلب أنه كلام كعب الأحبار . وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك ، والله أعلم .

---

(١) أى رفع . والنتق : الزعزعة والنقض (٢) هذا آخر الحديث الذى رواه سعيد عن ابن عباس .

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام ، وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة ؛ على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ، ولها عشر سرادقات ؛ طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع . ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ، ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة ، وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره . وبعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفاً ، وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعا ونصفاً ، ويكون مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه ، وله أربع حلق فى أربع زواياه ، ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب — يعنون صفة ملكين بأجنحة — وهما متقابلان ، صنعه رجل اسمه : « بصليال » .

وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراع وعرضها ذراع ونصف ، لها ضباب ذهب وإكليل ذهب — بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب ، وأربع حلق من نواحيها من ذهب ، مغرزة فى مثل الرمان من خشب ملبس ذهباً . وأن يعمل صحافاً ومصافى وقصاعا على المائدة ، ويصنع منارة من الذهب دلى فيها ست قصبات من ذهب ، من كل جانب ثلاثة ، على كل قصبة ثلاث سرج . وليكن فى المنارة أربع قناديل ، ولتكن هى وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب . صنع ذلك « بصليال » أيضاً ، وهو الذى عمل المذبح أيضاً . ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم ، وهو أول يوم من الربيع . ونصب تابوت الشهادة ، وهو — والله أعلم — المذكور فى قوله تعالى : (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) .

وقد بسط هذا الفصل فى كتابهم مطولا جداً ، وفيه شرائع لهم وأحكام ، وصفة قربانهم ، وكيفيته . وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدم على مجىء بيت المقدس ، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ، ويتقربون عندها . وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها ، وينزل عمود الغمام على بابها ، فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل . ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذى هو نور ، ويخاطبه ويناجيه ، ويأمره وينهاه ، وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبيين فإذا فصل الخطاب يخبر بنى إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه ، من الأوامر والنواهى . وإذا تحاكموا إليه فى شىء ليس عنده من الله فيه شىء — يجىء إلى قبة الزمان ، ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين ، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة . وقد كان هذا مشروعاً لهم فى زمانهم — أعنى استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلىء فى معبدهم وعند

مصلاهم – فأما فى شريعتنا فلا . بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها ؛ لئلا تشغل المصلين ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما وسع فى مسجد رسول الله ﷺ – للذى وكله على عمارته : ابن للناس ما يكنهم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس . وقال ابن عباس : لانزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم ، وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه ، فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم ؛ إذ جمع الله همهم فى صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه ، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر فى غير ما هم بصدده ؛ من العبادة العظيمة . فلله الحمد والمنة .

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بنى إسرائيل فى التيه ، يصلون إليها وهى قبلتهم وكعبتهم ، وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام . فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام – استمرت بنو هارون فى الذى كان يليه أبوهم ؛ من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن . وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده – فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، وهو الذى دخل بهم بيت المقدس كما سيأتى بيانه . والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس ، فكانوا يصلون إليها . فلما بادت صلوا إلى محلتها وهى الصخرة ؛ فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ . وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه ، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر – وقيل سبعة عشر – شهراً . ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهى قبلة إبراهيم فى شعبان سنة ثنتين فى وقت صلاة العصر وقيل الظهر ، كما بسطنا ذلك فى التفسير عند قوله تعالى : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . . . إلى قوله : قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام . . . الآيات) .

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى : (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، ياليت لنا مثل ماأوتى قارون ؛ إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له

من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين ✽ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ، يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لايفلح الكافرون ✽ اتلك لدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين[١]) .

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قارون ابن عم موسى ، وكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج ، وزاد فقال : هو قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث . قال ابن جريج : وهذا قول أكثر أهل العلم ـ أنه كان ابن عم موسى ، ورد قول ابن إسحاق إنه كان عم موسى . قال قتادة : وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى ، فأهلكه البغى لكثرة ماله . وقال شهر بن حوشب : زاد فى ثيابه شبرا طولا ترفعاً على قومه . وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه ؛ حتى إن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام[٢] من الرجال الشداد ، وقد قيل إنها كانت تحمل على ستين بغلا ، فالله أعلم .

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين : (لاتفرح) أى لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ؛ (إن الله لا يحب الفرحين ✽ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) يقولون : لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة ، فإنه خير وأبقى ؛ ومع هذا (لا تنس نصيبك من الدنيا) أى وتناول منها بمالك ما أحل الله لك ، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ، (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارءهم إليك ، (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى ولا تسىء إليهم ولا تفسد فيهم ، فيتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك ؛ (إن الله لا يحب المفسدين) فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن (قال إنما أوتيته على علم عندى) يعنى أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ، ولا إلى ما إليه أشرتم ؛ فإن الله إنما أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه ، وأنى أهل له ، ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده ـ لما أعطانى ما أعطانى . قال الله تعالى ردًّا عليه وما ذهب إليه : (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) أى قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم ـ من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولاداً ؛ فلو كان ماقال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالا منه ، ولم يكن ماله دليلا على محبتنا له واعتنائنا به ، كما قال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً[٣]) ، وقال تعالى : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ✽

---

(١) الآيات : ٧٦ ـ ٨٣ من سورة القصص (٢) الفئام ككتاب : الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه .

(٣) الآية : ٣٧ من سورة سبأ .

نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون[1]) وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : (إنما أوتيته على علم عندى) .

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء ، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله فى جمع الأموال ـ فليس بصحيح ؛ لأن الكيمياء تخييل وصنعة ـ لا تحيل الحقائق ، ولا تشابه صنعة الخلاق . والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به ، وقارون كان كافراً فى الباطن منافقاً فى الظاهر . ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ، ولا يبقى بين الكلامين تلازم ، وقد وضحنا هذا فى كتابنا التفسير ، ولله الحمد .

قال الله تعالى : (فخرج على قومه فى زينته) ذكر كثير من المفسرين أنه خرج فى تجمل عظيم ؛ من ملابس ومراكب وخدم وحشم . فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا ـ تمنوا أن لو كانوا مثله ، وغبطوه بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ، ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء ، قالوا لهم : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) أى ثواب الله فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى . قال الله تعالى : (ولايلقاها إلا الصابرون) أى ومايلقى هذه النصيحة وهذه المقالة ، وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية ، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية ـ إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده ، وأيد لبه وحقق مراده . وما أحسن ماقال بعض السلف : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، والعقل الكامل عند حلول الشهوات .

قال الله تعالى : (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) . لما ذكر تعالى خروجه فى زينته واختياله فيها ، وفخره على قومه بها قال : فخسفنا به وبداره الأرض ، كما روى البخارى من حديث الزهرى عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » . ثم رواه البخارى من حديث جرير ابن زيد عن سالم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . وقد ذكر ابن عباس والسدى : أن قارون أعطى امرأة بغياً مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو فى ملأ من الناس : إنك فعلت بى كذا وكذا ، فيقال إنها قالت له ذلك ، فأرعد من الفرق وصلى ركعتين ، ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك ، وماحملك عليه ، فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك ، واستغفرت الله وتابت إليه . فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ، ودعا الله على قارون . فأوحى الله إليه : أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره ، فكان ذلك ، فالله أعلم . وقد قيل إن قارون لما خرج على قومه فى زينته

---

(١) الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون .

مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام ، وهو يذكر قومه بأيام الله . فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير منهم ينظرون إليه ، فدعاه موسى عليه السلام فقال له : ماحملك على هذا ؟ فقال : ياموسى ! أما لئن كنت فضلت على بالنبوة ــ فلقد فضلت عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون على ولأدعون عليك . فخرج موسى وخرج قارون فى قومه ، فقال له موسى : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : أدعو أنا ، فدعى قارون فلم يجب له فى موسى ، فقال موسى : أدعو ؟ قال نعم . فقال موسى : اللهم مر الأرض فلتطعنى اليوم ، فأوحى الله إليه إنى قد فعلت . فقال موسى : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثم قال خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى منا كبهم . ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها ، ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بنى لاوى فاستوت بهم الأرض .

وقد روى عن قتادة أنه قال : يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة ، وعن ابن عباس أنه قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة ، أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً .

وقوله تعالى : (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال : (فماله من قوة ولا ناصر[1]) . ولما حل به ماحل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ــ ندم من كان تمنى مثل ماأوتى ، وشكروا الله تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ، ولهذا قالوا : (لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون) وقد تكلمنا على لفظ ويكأن فى التفسير[2] ، وقد قال قتادة : ويكأن ــ بمعنى ألم تر أن ، وهذا قول حسن من حيث المعنى ، والله أعلم .

ثم أخبر تعالى : أن (الدار الآخرة) ــ وهى دار القرار ، وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها ــ إنما هى معدة (للذين لايريدون علواً فى الأرض ولا فساداً) . فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر ، والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية ؛ من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم ، والإساءة إليهم وعدم النصح لهم . ثم قال تعالى : (والعاقبة للمتقين) . وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر ، لقوله : (فخسفنا به وبداره الأرض) فإن الدار ظاهرة فى البنيان ، وقد تكون بعد ذلك فى التيه ، وتكون الدار عبارة عن المحلة التى تضرب فيها الخيام ؛ كما قال عنترة :

يادار عبلة بالجواء تكلمى   وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

والله أعلم . وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون فى غير ما آية من القرآن ، قال الله : (ولقد أرسلنا

---

(١) سورة الطارق (٢) مما قيل : إن « وى » حرف للتعجب أو للتنبيه ، و « كأن » ــ بمعنى أظن وأحسب أو كأن للتشبيه . وقيل : « ويكأن » مركبة من : ويك ــ بمعنى ويلك ، وأن ، وتقديره : أعلم أن الله .

موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب[١]) وقال تعالى فى سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود : (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين * فكلا أخذنا بذنبه ؛ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[٢]) . فالذى خسف به الأرض قارون كما تقدم ، والذى أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا كعب بن علقمة ، عن عيسى بن هلال الصدفى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » . انفرد به أحمد رحمه الله .

باب ذكر فضائل موسى عليه السلام ، وشمائله ، وصفاته ، ووفاته

قال الله تعالى : (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً[٣]) . وقال تعالى : (قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى[٤]) . وتقدم فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلونى على موسى ؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى ؟ أم جوزى بصعقة الطور ؟ » . وقدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهو — صلوات الله وسلامه عليه — خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة ، قطعاً جزماً لايحتمل النقيض . وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق و يعقوب والأسباط) إلى أن قال : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما[٥]) وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيهاً[٦]) . قال الإمام أبو عبدالله البخارى : حدثنا إسحق بن إبراهيم بن روح بن عبادة ، عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن موسى كان رجلا حيياً ستيراً[٧] لايرى جلده شىء استحياء منه . فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا مايستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ؛ إما برص ، وإما أدرة[٨] و إما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه

---

(١) الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة غافر .
(٢) الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) الآيات : ٥١ — ٥٣ من سورة مريم .
(٤) الآية : ١٤٤ من سورة الأعراف .
(٥) الآية : ١٦٤ من سورة النساء .
(٦) الآية : ٦٩ من سورة الأحزاب .
(٧) أى من طبعه حب الستر .
(٨) انتفاخ الخصية .

مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا[1] بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ماخلق الله ، وبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً[2] من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله عز وجل : (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) » . وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق وهمام بن منبه عن أبى هريرة به . وهو فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به . ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلى عنه .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع فى أخيه عند الله ، وطلب منه أن يكون معه وزيراً ، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً ، كما قال : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) . ثم قال البخارى : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن الأعمش ، قال سمعت أبا وائل ، قال سمعت عبد الله ، قال : قسم رسول الله ﷺ قسماً ، فقال رجل إن هذه قسمة ماأريد بها وجه الله ، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فغضب ، حتى رأيت الغضب فى وجهه ، ثم قال : « يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » . وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به . وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبى هاشم مولى لهمدان ، عن زيد بن أبى زائد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «لايبلغنى أحد عن أحد شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » . قال : وأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ماأراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، فتثبتّ حتى سمعت ماقالا ، ثم أتيت رسول الله ، فقلت يارسول الله ! إنك قلت لنا لايبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئاً ، وإنى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه ، ثم قال : « دعنا منك فقد أوذى موسى أكثر من ذلك فصبر » . وهكذا رواه أبو داود والترمذى من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبى هاشم به . وفى رواية للترمذى ولأبى داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السدى عن الوليد به . وقال الترمذى غريب عن هذا الوجه .

وقد ثبت فى الصحيحين فى أحاديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلى فى قبره ، ورواه مسلم عن أنس . وفى الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبى ﷺ أنه مر ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة ، فقال له جبريل هذا موسى ، فسلم

---

(١) مضى به مسرعا . (٢) اى أثراً ، والندب : اثر الجرح .

عليه قال : « فسلمت عليه فقال مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح ، فلما تجاوزت بكى . قيل له مايبكيك؟ قال أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى » . وذكر إبراهيم فى السماء السابعة ، وهذا هو المحفوظ . وما وقع فى حديث شريك بن أبى نمر عن أنس من أن إبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة ، بتفضيل كلام الله — فقد ذكر غير واحد من الحفاظ : أن الذى عليه الجادة — أن موسى فى السادسة وإبراهيم فى السابعة ، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ماعليهم . واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة فى اليوم والليلة — مر بموسى ، فقال ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة . فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ، ويخفف عنه فى كل مرة ، حتى صارت إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة . وقال الله تعالى : هى خمس وهى خمسون أى بالمضاعفة ، فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً ، وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخارى : حدثنا مسدد ، حدثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « عرضت على الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق ، فقيل هذا موسى فى قومه » ، هكذا روى البخارى هذا الحديث ههنا مختصراً .

وقد رواه الإمام أحمد مطولا فقال : حدثنا شريح ، حدثنا هشام ، حدثنا حصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة ؟ قلت أنا ، ثم قلت : إنى لم أكن فى صلاة ولكن لدغت . قال وكيف فعلت ؟ قلت استرقيت . قال وما حملك على ذلك ؟ قال قلت : حديث حدثناه الشعبى عن بريدة الأسلمى أنه قال : « لا رقية إلا من عين أو حمة » ، فقال سعيد — يعنى ابن جبير — قد أحسن من أنهى إلى ماسمع .

ثم قال : حدثنا ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط ، والنبى معه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد ، إذ رفع لى سواد عظيم فقلت هذه أمتى ، فقيل هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق ، فإذا سواد عظيم ، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب ، فإذا سواد عظيم ، فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل ، نخاض القوم فى ذلك ، فقالوا : من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فقال بعضهم : لعلهم الذين صحبوا النبى ﷺ ، وقال بعضهم : لعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط ، وذكروا أشياء . نخرج إليهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذا الذى كنتم تخوضون فيه ؟ فأخبروه بمقالتهم فقال: «هم الذين لايكتوون[١] ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محيصن الأسدى فقال : أنا منهم يارسول الله ؟ قال أنت منهم . ثم قام آخر فقال : أنا منهم يارسول الله ؟ فقال سبقك بها عكاشة » .

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو فى الصحاح والحسان وغيرهما . وسنوردها إن شاء الله تعالى فى باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها .

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام فى القرآن كثيراً ، وأثنى عليه وأورد قصته فى كتابه العزيز مراراً ، وكررها كثيراً ـ مطولة ومبسوطة ومختصرة ، وأثنى عليه بليغاً . وكثيراً مايقرنه الله ويذكره ، ويذكر كتابه مع محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه ، كما قال فى سورة البقرة : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون[٢]) .

وقال تعالى : (الم الله لاإله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام[٣]) ، وقال تعالى فى سورة الأنعام : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون[٤]) . فأثنى الله تعالى على التوراة ، ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيما . وقال تعالى فى آخرها : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء ، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون[٥]) . وقال تعالى فى سورة المائدة : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتى ثمناًقليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[٦]) إلى أن قال : (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه . . . الآية) ، فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره ، وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل ؛ فإن أهل

---

(١) أى لايتمدحون بما ليس فيهم
(٢) الآية : ١٠١ من سورة البقرة .
(٣) أول سورة آل عمران .
(٤) الآيتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة الأنعام .
(٥) الآيتان : ١٥٤ ، ١٥٥
(٦) الآية : ٤٤

الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب ، فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها ، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم ؛ لسوء فهمهم وقصورهم فى علومهم ، ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ولهذا يوجد فى كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ـ مالا يحد ولا يوصف ، ومالا يوجد مثله ولا يعرف .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء : (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون[1])

وقال الله تعالى فى سورة القصص : (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ، أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين[2]) . فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام . وقالت الجن لقومهم : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى[3]) . وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحى وتلا عليه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم)[4] قال : سبوح سبوح ، هذا الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران . وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة ، وأمته كانت أمة كثيرة ، ووجد فيها أنبياء وعلماء ، وعباد وزهاد وألباء ، وملوك وأمراء ، وسادات وكبراء ، لكنهم كانوا فبادوا ، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ، ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم ، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها . ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر حجته عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا داود بن أبى هند عن أبى العالية عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : « أى واد هذا ؟ » قالوا : وادى الأزرق ، قال : « كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية ، وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية » ، حتى أتى على ثنية هرشاء فقال : « أى ثنية هذه ؟ » قالوا هذه ثنية هرشاء ، قال : « كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء ، عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خلبة » ـ قال هشيم : يعنى ليفاً ـ وهو يلبى . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هند به . وروى الطبرانى عن ابن عباس مرفوعاً : « إن موسى حج على ثور أحمر » ، وهذا غريب جداً . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عون عن مجاهد قال : كنا عند ابن

---

(١) الآيات : ٤٨ ـ ٥٠ (٢) الآيتان : ٤٨ ، ٤٩
(٣) الآية : ٣٠ من سورة الأحقاف (٤) سورة العلق .

عباس فذكروا الدجال ، فقال : إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال : ما يقولون ؟ قال يقولون مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عباس : لم أسمعه . قال ذلك ولكن قال : « أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخُلبة ، كأنى أنظر إليه وقد انحدر من الوادى يلبى » ، قال هشيم : الخلبة — الليف. ثم رواه الإمام أحمد عن أسود عن إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم : فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم [1] جسيم سبط ، قالوا فإبراهيم؟ قال : انظروا إلى صاحبكم » . وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا شيبان قال : حدث قتادة عن أبى العالية ، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال : قال نبى الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلا طوالا جعداً ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس . وأخرجاه من حديث قتادة به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر قال الزهرى وأخبرنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ حين أسرى به : « لقيت موسى ، قال فنعته ، فإذا رجل — حسبته قال — مضطرب [2] ، رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة ، ولقيت عيسى — فنعته رسول الله ﷺ فقال : ربعة [3] أحمر كأنما خرج من ديماس — يعنى الحمام [4] ، قال ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به ... الحديث » . وقد تقدم غالب هذه الأحاديث فى ترجمة الخليل .

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخارى فى صحيحه : [وفاة موسى عليه السلام] حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل ، فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت ، قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال أى رب ؟ ثم ماذا ؟ قال ثم الموت ، قال فالآن ، قال فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر [5] . قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ : « فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب [6] الأحمر » . قال وأنبأنا معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به . ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريرة مرفوعاً وسيأتى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس — يعنى سليم بن جبير — عن

---

(١) أى أسمر (٢) المضطرب : الطويل غير الشديد ، وقيل الخفيف اللحم (٣) أى وسط : ليس بطويل جداً ولا قصير جداً (٤) قال شارح البخارى : المراد وصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه حتى كأنه كان فى موضع كن فخرج منه وهو عرقان (٥) أى مقدار رمية بحجر (٦) الكثيب : الرمل المجتمع .

أبى هريرة ، قال الإمام أحمد لم يرفعه ـ قال : « جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فقال أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها ، فرجع الملك إلى الله فقال : إنك بعثتنى إلى عبد لك لا يريد الموت ، قال وقد فقأ عينى . قال فرد الله عينه ، وقال : ارجع إلى عبدى فقل له : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة . قال ثم مه ، قال ثم الموت . قال فالآن يارب من قريب » . تفرد به أحمد ، وهو موقوف بهذا اللفظ .

وقد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة ، قال معمر : وأخبرنى من سمع الحسن عن رسول الله فذكره . ثم استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله : أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه ؛ لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام ، كما جاء جبريل فى صورة أعرابى ، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط فى صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولا . وكذلك موسى لعله لم يعرفه ؛ لذلك لطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه ، وهذا موافق لشر يعتنا فى جواز فقء عين من نظر إليك فى دارك بغير إذن . ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه ، قال له أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه » . وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخارى . ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه ـ قال له أجب ربك ، وهذا التأويل لايتمشى على ماورد به اللفظ ؛ من تعقيب قوله أجب ربك ـ بلطمه . ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له ، وكأنه لم يعرفه فى تلك الصورة . ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق ؛ إذ لم يتحقق فى الساعة الراهنة أنه ملك كريم ، لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها فى حياته ؛ من خروجه من التيه ، ودخولهم الأرض المقدسة . وكان قد سبق فى قدرة الله أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هرون أخيه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وقد زعم بعضهم : أن موسى عليه السلام هو الذى خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة ، وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدننى إلى الأرض المقدسة رمية حجر ، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك . ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام ـ أحب أن يتقرب إلى الأرض التى هاجر إليها ، وحث قومه عليها . ولكن حال بينهم و بينها القدر رمية بحجر . ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر : « فلوكنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر » . وقال الإمام : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، حدثنا ثابت وسليمان التيمى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر » . ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به ، وقال السدى

عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إنى متوف هرون فائت به جبل كذا وكذا ، فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل ، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها ، وإذا هم ببيت مبنى ، وإذا هم بسرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة . فلما نظر هرون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه — أعجبه ، قال ياموسى : إنى أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى : فنم عليه ، قال إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب علىّ ، قال له : لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم . قال : ياموسى نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب علىّ وعليك جميعاً ، فلما ناما أخذ هرون الموت ، فلما وجد حسه قال ياموسى خدعتنى ، فلما قبض رفع ذلك البيت ، وذهبت تلك الشجرة ، ورفع السرير به إلى السماء . فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هرون — قالوا إن موسى قتل هرون ، وحسده على حب بنى إسرائيل له ، وكان هرون أكف عنهم وألين لهم من موسى ، وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم . فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحكم ! كان أخى أفترونى أقتله ؟ . فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض .

ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشى ويوشع فتاه — إذ أقبلت ريح سوداء ، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة ، فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبى الله ؟ فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص فى يدى يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص آخذته بنو إسرائيل وقالوا قتلت نبى الله . فقال لا — والله ماقتلته ، ولكنه استل منى ، فلم يصدقوه وأرادوا قتله . قال : فإذا لم تصدقونى فأخرونى ثلاثة أيام ، فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه فى المنام — فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى ، وإنا قد رفعناه إلينا ، فتركوه . ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى — إلا مات ولم يشهد الفتح . وفى بعض هذا السياق نكارة وغرابة ، والله أعلم . وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى — سوى يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا — وهو زوج مريم أخت موسى وهرون ، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم ، اللذان أشارا على ملأ بنى إسرائيل بالدخول عليهم .

وذكر وهب بن منبه : أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبراً ، فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج ، فقال ياملائكة الله : لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر ، وتمدد فيه وتوجه إلى ربك ، وتنفس أسهل تنفس ، ففعل ذلك ، فمات صلوات الله وسلامه عليه ، فصلت عليه الملائكة ودفنوه . وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ويونس قالا ، حدثنا حماد ابن سلمة عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبى

ﷺ قال : « كان ملك الموت يأتى الناس عياناً ، قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه ، فأتى ربه فقال يارب ! عبدك موسى فقأ عينى ، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه ـ وقال يونس لشققت عليه ـ قال له اذهب إلى عبدى ، وقل له فليضع يده على جلد ـ أو مَسْكَ ـ ثور ، فله بكل شعرة وارت يده سنة ، فأتاه فقال له ، فقال مابعد هذا ؟ قال الموت . قال فالآن . قال فشمه شمة فقبض روحه » . قال يونس فرد الله عليه عينه وكان يأتى الناس خفية . وكذا رواه ابن جرير عن أبى كريب عن مصعب ابن المقدام عن حماد بن سلمة به ، فرفعه أيضاً .

ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بنى إسرائيل
بعد موسى وهرون عليهما السلام

هو يوشع بن نون بن أفرائيم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ، وأهل الكتاب يقولون : يوشع ابن عم هود . وقد ذكره الله تعالى فى القرآن غير مصرح باسمه فى قصة الخضر كما تقدم من قوله : (وإذ قال موسى لفتاه — فلما جاوزا قال لفتاه) ، وقدمنا ماثبت فى الصحيح من رواية أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ : من أنه يوشع بن نون .

وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب ؛ فإن طائفة منهم وهم السامرة ـ لايقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون ، لأنه مصرح به فى التوراة ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق من ربهم ؛ فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

وأما ماحكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحق : من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع فى آخر عمر موسى ، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله من الأوامر والنواهى ، حتى قال له : ياكليم الله إنى كنت لاأسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرنى أنت ابتداء من تلقاء نفسك ، فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت ـ ففى هـذا نظر ؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحى والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله ، حتى توفاه الله عز وجل . ولم يزل معززاً مكرماً مدللا وجيهاً عند الله ، كما قدمنا فى الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال ثم ماذا ؟ قال الموت ، قال فالآن يارب . وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه . فهذا الذى ذكره محمد بن إسحق إن كان ـ إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ؛ ففى كتابهم الذى يسمونه التوراة : أن الوحى لم يزل ينزل على موسى فى كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة فى قبة الزمان .

ولقد ذكروا فى السفر الثالث : أن الله أمر موسى وهرون أن يعدا بنى إسرائيل على أسباطهم[١] ، وأن يجعلا على كل سبط من الاثنى عشر أميراً وهو النقيب ، وما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه ، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة . ولهذا قال بعضهم : إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت ؛ لأنه لم يعرفه فى صورته تلك ، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه فى زمانه ، ولم يكن فى قدر الله أن يقع ذلك فى زمانه ، بل فى زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام . كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أراد غزو الروم بالشام ، فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك فى سنة تسع ثم حج فى سنة عشر ، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالا لقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[٢]) ولما جهز رسول الله جيش أسامة ، توفى عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيم بالجرف ، فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم لما لَمّ شعث جزيرة العرب ، وما كان دهى من أمر أهلها ، وعاد الحق إلى نصابه — جهز الجيوش يمنة و يسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس ، و إلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ، ففتح الله لهم ومكن لهم و بهم ، وملكهم نواصى أعدائهم ، كما سنورده عليك فى موضعه إذا انتهينا إليه — مفصلا إن شاء الله ، بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده .

وهكذا موسى عليه السلام : كان الله قد أمره أن يجند بنى إسرائيل ، وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل و بعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيآتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل[٣]) . يقول لهم : لئن قمتم بما أوجبت عليكم ، ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة — لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك ، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الحديبية : (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، و إن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً[٤]) . وهكذا قال تعالى لبنى إسرائيل : (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) . ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم ، كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم فى دينهم وأديانهم . وقد ذكرنا ذلك فى التفسير مستقصى ولله الحمد .

---

(١) أى قبائلهم ، ففى القاموس : السبط — القبيلة من اليهود وجمعه أسباط (٢) الآية : ٢٩ من سورة التوبة .
(٣) الآية : ١٢ من سورة المائدة . (٤) الآية : ١٦ من سورة الفتح .

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بنى إسرائيل – ممن يحمل السلاح ويقاتل – ممن بلغ عشرين سنة فصاعدا ، وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم . السبط الأول : سبط روبيل ؛ لأنه بكر يعقوب – وكان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم منهم وهو اليصور بن شديئورا . السبط الثانى : سبط شمعون – وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة ، ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداى . السبط الثالث : سبط يهوذا – وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمائة ، ونقيبهم نحشون بن عميناذاب . السبط الرابع : سبط إيساخر – وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم نشائيل بن صوغر . السبط الخامس : سبط يوسف عليه السلام – وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم يوشع بن نون . السبط السادس : سبط ميسا – وكانوا أحداً وثلاثين ألفاً ومائتين ، ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور . السبط السابع : سبط بنيامين – وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم أبيدن بن جدعون. السبط الثامن : سبط حاد – وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمائة وخمسين رجلا ، ونقيبهم الياساف ابن رعوئيل . السبط التاسع : سبط أشير – وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن . السبط العاشر : سبط دان – وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة ، ونقيبهم أخيعزر بن عمشداى . السبط الحادى عشر : سبط نفتالى – وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم الباب بن حيلون . هذا نص كتابهم لذى بأيديهم ، والله أعلم[1] .

وليس منهم « بنو لاوى » فقد أمر الله موسى أن لا يعدهم معهم ؛ لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا – وهم سبط موسى وهرون عليهما السلام – وكانوا اثنين وعشرين ألفاً ، من ابن شهر فما فوق ذلك ، وهم فى أنفسهم قبائل ، عهد إلى كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ، ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها ، وهم كلهم حولها ؛ ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها . وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بنى لاوى – خمسمائة ألف وأحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون . لكن قالوا : فكان عدد بنى إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ؛ ممن حمل السلاح – ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلا ، سوى بنى لاوى ، وفى هذا نظر ؛ فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا فى كتابهم – لا تطابق الجملة التى ذكروها ، والله أعلم . فكان بنو لاوى الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون فى وسط بنى إسرائيل – وهم القلب ، ورأس الميمنة بنو روبيل ، ورأس الميسرة بنو دان ، وبنو نفتالى يكونون ساقة . وقرر موسى عليه السلام – بأمر الله تعالى له – الكهانة فى بنى هرون ؛ كما كانت لأبيهم من قبلهم ، وهم : ناداب وهو بكره ، وأبيهو والعازر ، ويثمر . والمقصود أن بنى إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين

---

(١) ذكر ابن إسحاق وغيره : أسماء النقباء مخالفة لما ذكر ، والله أعلم .

الذين قالوا : (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون) قاله الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس ، وقاله قتادة وعكرمة ، ورواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف : ومات موسى وهٰرون قبله كلاهما فى التيه جميعاً .

وقد زعم ابن إسحق أن الذى فتح بيت المقدس هو موسى ، وإنما كان يوشع على مقدمته . وذكر فى مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذى قال تعالى فيه : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون[1]) . وقد ذكرنا قصته فى التفسير ، وأنه كان — فيما قاله ابن عباس وغيره — يعلم الاسم الأعظم ، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه — فامتنع عليهم ، ولما ألحوا عليه ركب حمارة له ، ثم سار نحو معسكر بنى إسرائيل ، فلما أشرف عليهم — ربضت به حمارته فضربها حتى قامت ، فسارت غير بعيد وربضت ، فضربها ضرباً أشد من الأول فقامت ثم ربضت ، فضربها فقالت له يابلعام : أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا ؟ أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها ، فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل « حسبان » ، ونظر إلى معسكر موسى و بنى إسرائيل فأخذ يدعو عليهم ، فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ، ويدعو على قوم نفسه ، فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجرى على لسانه إلا هذا ، واندفع لسانه حتى وقع على صدره ، فقال لقومه : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة .

ثم أمر قومه أن يزينوا النساء و يبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم لعلهم يقعون فى الزنا ، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا وزينوا نساءهم و بعثوهن إلى المعسكر ، فمرت امرأة منهم اسمها « كسبتى »[2] ، برجل من عظماء بنى إسرائيل ، وهو « زمرى » بن شلوم — يقال إنه كان رأس سبط بنى شمعون بن يعقوب — فدخل بها قبته ، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بنى إسرائيل ، فجعل يجوس فيهم ، فلما بلغ الخبر إلى « فنحاص »[3] بن العيزار بن هٰرون — أخذ حربته وكانت من حديد ، فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها ، ثم خرج بهما على الناس والحربة فى يده ، وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ، ورفعهما نحو السماء وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون . فكان جملة من مات فى تلك الساعة سبعين ألفاً ، والمقلل يقول عشرين ألفاً ،

---

(١) الآيات : ١٧٥ — ١٧٧ من سورة الأعراف (٢) قيل كانت ابنة « صور » الملك ، وكانت غاية فى الجمال .
(٣) كان صاحب أمر موسى ، وكان غائباً حين صنع زمرى ما صنع .

وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هرون ؛ فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة — الليلة والذراع واللحى ، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسها .

وهذا الذى ذكره ابن إسحق من قصة بلعام صحيح ، وقد ذكره غير واحد من علماء السلف ، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ، ولعله مراد ابن إسحاق ، ولكنه غير مافهمه بعض الناقلين عنه ، وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا ، والله أعلم .

ولعل هذه قصة أخرى كانت فى خلال سيرهم فى التيه ؛ فإن فى هذا السياق ذكر « حسبان » وهى بعيدة عن أرض بيت المقدس ، أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون ، حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس ، كما صرح به السدى ، والله أعلم .

وعلى كل تقدير فالذى عليه الجمهور : أن هرون توفى بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين ، وبعده موسى فى التيه أيضاً ، كما قدمنا . وأنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك ، فكأن الذى خرج بهم من التيه ، وقصد بهم بيت المقدس — هو يوشع بن نون عليه السلام . فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ — أنه قطع ببنى إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً ، وأكثرها أهلا ، فحاصرها ستة أشهر . ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون — يعنى الأبواق — وكبروا تكبيرة رجل واحد ، فتفسخ سورها وسقط وجبة[1] واحدة ، فدخلوها وأخذوا ماوجدوا فيها من الغنائم ، وقتلوا اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء ، وحاربوا ملوكا كثيرة . ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكا من ملوك الشام . وذكروا أنه انتهى محاصرته إلى يوم جمعة بعد العصر ، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ، ويدخل عليهم السبت الذى جعل عليهم لها وشرع لهم ذلك الزمان — قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علىّ ، فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد ، وأمر القمر فوقف عند الطلوع ، وهذا يقتضى أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر الأول وهو قصة الشمس المذكورة فى الحديث الذى سأذكره . وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ، ولا ينافى الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب . ولكن ذكرهم أن هذا فى فتح أريحا — فيه نظر ، والأشبه — والله أعلم — أن هذا كان فى فتح بيت المقدس الذى هو المقصود الأعظم ، وفتح أريحا كان وسيلة إليه ، والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس» . انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخارى . وفيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع ابن نون عليه السلام — لا موسى ، وأن حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا . وفيه

---

(١) المراد : سقط دفعة واحدة ، يقال : وجب يجب وجبة — كوثب يثب وثبة — سقط ووقع .

أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام ، فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه : أن الشمس رجعت حتى صلى على بن أبى طالب صلاة العصر ، بعد مافاتته بسبب نوم النبى ﷺ على ركبته ، فسأل رسول الله أن يردها عليه حتى يصلى العصر فرجعت . وقدصححه على بن أبى صالح المصرى ولكنه ليس فى شىء من الصحاح ولا الحسان ، وهو مما تتوافر الدواعى على نقله . وتفردت بنقله مرأة من أهل البيت مجهولة لايعرف حالها ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق ، حدثنامعمر عن همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبى من الأنبياء[١] فقال لقومه : لايتبعنى رجل قد ملك بُضع امرأة ، وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن ، ولا آخرُ قد بنى بنياناً ولم يرفع سُقفها ، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خَلِفات[٢] وهو ينتظر أولادها . قال : فغزا فدنا من القرية حين صُلى العصر أو قريباً من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور . اللهم احبسها على شيئاً فحبست عليه حتى فتح الله عليه ، قال : فجمعوا ماغنموا ، فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه ، فقال فيكم غلول[٣] ، فليبايعنى من كل قبيلة رجل ، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده ، فقال فيكم الغلول فلتبايعنى قبيلتك ، فبايعته قبيلته ، قال فلصت بيد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغلول أنتم غللتم . قال : فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب ، قال : فوضعوه بالمال وهو بالصعيد ، فأقبلت النار فأكلته ، فلم تحلّ الغنائم لأحد من قبلنا ؛ ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا » . انفرد به مسلم من هذا الوجه . وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . قال : ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى ، قال : ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجداً ؛ أى ركعاً متواضعين شاكرين لله عز وجل على مامن به عليهم من الفتح العظيم ، الذى كان الله وعدهم إياه ، وأن يقولوا حال دخولهم : (حِطّة) أى حط عنا خطايانا التى سلفت ؛ من نكولنا الذى تقدم منا . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها ــ دخلها وهو راكب ناقته ، وهو متواضع حامد شاكر ، حتى إن عُثنونه ــ ــ طرف لحيته ــ ليمس مَوْرِكَ[٤] رحله ؛ مما يطأطىء رأسه خضعاناً لله عز وجل ، ومعه الجنود والجيوش ممن لايرى منه إلا الحدق ، ولا سيما الكتيبة الخضراء التى فيها رسول الله ﷺ . ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثمانى ركعات وهى صلاة الشكر على النصر ، على المشهور من قول العلماء . وقيل إنها صلاة

---

(١) قيل هذا النبى هو يوشع بن نون . (٢) الخلفات : الحوامل من النوق ــ الواحدة خلفة بوزن نكرة .
(٣) أى خيانة : يقال غل من المغنم غلولاً ــ أى خان . قال أبو عبيدة . الغلول من المغنم خاصة .
(٤) مورك الرحل : الموضع الذى يجعل عليه الراكب رجله .

الضحى ، وما حمل هذا القائل على قوله هذا ـ إلا لأنها وقعت وقت الضحى . وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولا وفعلا ؛ فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم [١] يقولون : حبة فى شعرة ، وفى رواية : حنطة فى شعرة .

وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزءوا به ؛ كما قال تعالى حا كياً عنهم فى سورة الأعراف وهى مكية : (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ، وقولوا حطة ، وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون [٢]) . وقال فى سورة البقرة وهى مدنية مخاطباً لهم : (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، نغفر لكم خطايا كم وسنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون [٣]) . وقال الثورى عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (وادخلوا الباب سجداً) قال : ركعاً من باب صغير . رواه الحا كم وابن جرير وابن أبى حاتم ، وكذا روى العوفى عن ابن عباس ، وكذا روى الثورى عن ابن إسحاق عن البراء . قال مجاهد والسدى والضحاك : والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس . قال ابن مسعود : فدخلوا مقنعى رءوسهم ضد ما أمروا به ، وهذا لا ينافى قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم . وهكذا فى الحديث الذى سنورده بعد ، فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رءوسهم . وقوله : (وقولوا حطة) الواو هنا حالية لا عاطفة ؛ أى ادخلوا سجداً فى حال قولكم حطة . قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع : أمروا أن يستغفروا .

قال البخارى : حدثنا محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « قيل لبنى إسرائيل : (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، نغفر لكم خطايا كم) ـ فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة فى شعرة [٤] » . وكذا رواه النسائى من حديث ابن المبارك ببعضه ، ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدى به موقوفاً . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « قال الله لبنى إسرائيل : (ادخلوا الباب سجداً ـ وقولوا حطة نغفر لكم خطايا كم) فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة فى شعرة » . ورواه البخارى ومسلم والترمذى من حديث عبد الرزاق ، وقال الترمذى حسن صحيح . وقال محمد بن إسحاق كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى

---

(١) جمع إست ، وهو العجز ـ أو حلقة الدبر .

(٢) الآيتان : ١٦١ ، ١٦٢ — (٣) الآيتان : ٥٨ ، ٥٩

(٤) وفى رواية : فى شعيرة .

التوأمة عن أبى هريرة وعمن لا أتهم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ. قال : « دخلوا الباب ـ الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجداً ـ يزحفون على أستاههم ، وهم يقولون حنطة فى شعيرة » . وقال أسباط عن السدى عن مرة عن ابن مسعود قال فى قوله : (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم) قال قالوا : (هطى سقاثا أزمة مزبا) ، فهى فى العربية : « حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء » ، وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة ؛ بإرسال الرجز الذى أنزله عليهم ـ وهو الطاعون ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن عامر بن سعد ، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبى النضر عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ : أنه قال : « إن هذا الوجع أو السقم ـ رجز عذب به بعض الأمم قبلكم » . وروى النسائى وابن أبى حاتم وهذا لفظه من حديث الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه ، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم » . وقال الضحاك عن ابن عباس : الرجز العذاب ، وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدى والحسن وقتادة . وقال أبو العالية : هو الغضب ، وقال الشعبى : الرجز إما الطاعون وإما البرد ، وقال سعيد بن جبير هو الطاعون . ولما استقرت يد بنى إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه ، وبين أظهرهم نبى الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه ، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة ، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة .

ذكر قصتى الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر : فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه فى طلب ما عنده من العلم اللدنى ، وقص الله من خبرهما فى كتابه العزيز فى سورة الكهف ، وذكرنا فى تفسير ذلك هنالك ، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام ، وأن الذى رحل إليه هو موسى بن عمران نبى بنى إسرائيل عليه السلام ؛ الذى أنزلت عليه التوراة . وقد اختلف فى الخضر ؛ فى اسمه ، ونسبه ، ونبوته ، وحياته إلى الآن ـ على أقوال . سأذكرها لك ههنا إن شاء الله وبحوله وقوته .

قال الحافظ ابن عساكر : يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه ، ثم روى من طريق الدارقطنى : حدثنا محمد بن الفتح القلانسى ، حدثنا العباس بن عبد الله الرومى ، حدثنا رواد بن الجراح ، حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : الخضر ابن آدم لصلبه ، ونسىء له فى أجله حتى يكذب الدجال ، وهذا منقطع وغريب . وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا : إن أطول بنى آدم عمراً الخضر ، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم . قال

وذكر ابن إسحق : أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة ـ أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس ، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم فى السفينة ، وأن يدفنوه فى مكان عينه لهم . فلما كان الطوفان حملوه معهم ، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى . فقالوا إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة ، فحرضهم وحثهم على ذلك . وقال إن آدم دعا لمن يلى دفنه بطول العمر ، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع فى ذلك الوقت ، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذى تولى دفنه ، وأنجز الله ما وعده ، فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا .

وذكر ابن قتيبة فى المعارف عن وهب بن منبه : أن اسم الخضر « بليا » ، ويقال بليا بن ملكان ابن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرنخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . وقال إسماعيل بن أبى أويس : اسم الخضر ـ فيما بلغنا والله أعلم ـ المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن لازد . وقال غيره : هو خضرون ابن عمايابيل بن اليفز بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو أرميا بن خلقيا ، فالله أعلم . وقيل إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر ، وهذا غريب جداً . قال ابن الجوزى : رواه محمد ابن أيوب عن ابن لهيعة وهما ضعيفان . وقيل : إنه ابن مالك وهو أخو إلياس ، قاله السدى كما سيأتى . وقيل إنه كان على مقدمة ذى القرنين . وقيل كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه . وقيل كان نبياً فى زمن بشتاسب بن لهراسب . قال ابن جرير : والصحيح أنه كان متقدماً فى زمن أفريدون ابن اثفيان حتى أدركه موسى عليهما السلام . وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال : الخضر أمه رومية وأبوه فارسى .

وقد ورد مايدل على أنه كان من بنى إسرائيل فى زمان فرعون أيضاً ، قال أبو زرعة فى دلائل النبوة : حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى ، حدثنا الوليد ، حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ : أنه ليلة أسرى به وجد رائحة طيبة ، فقال ياجبريل ماهذه الرائحة الطيبة ؟ قال هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها . وقال : وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بنى إسرائيل ، وكان ممره براهب فى صومعته ، فتطالع عليه الراهب فعلمه الإسلام . فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لاتعلم أحداً ، وكان لايقرب النساء ثم طلقها . ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لاتعلم أحداً ثم طلقها ، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى ، فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة فى البحر ، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر . قال قد رأيت العز ، قيل ومن رآه معك ؟ قال فلان ، فسئل فكتم . وكان من دينهم أنه من كذب قتل فقتل ، وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة . قال فبينما هى تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت تعس فرعون ، فأخبرت أباها ، وكان للمرأة ابنان وزوج ،

فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما — فأبيا ، فقال : إنى قاتلكما ، فقالا إحسان منك إلينا — إن أنت قتلتنا — أن تجعلنا فى قبر واحد ، فجعلهما فى قبر واحد ، فقال وما وجدت ريحاً أطيب منهما ، وقد دخلت الجنة . وقد تقدمت قصة مائلة بنت فرعون ، وهذا المشط فى أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أبى بن كعب أو عبد الله بن عباس والله أعلم . وقال بعضهم : كنيته أبو العباس ، والأشبه والله أعلم . أن الخضر لقب غلب عليه .

قال البخارى رحمه الله : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى ، حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء[1] » . تفرد به البخارى ، وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به . ثم قال عبدالرزاق : الفروة — الحشيش الأبيض وما أشبهه — يعنى الهشيم اليابس . وقال الخطابى وقال أبو عمر : الفروة الأرض البيضاء التى لا نبات فيها . وقال غيره : هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ، ومنه قيل فروة الرأس — وهى جلدته بما عليها من الشعر ؛ كما قال الراعى[2] .

وقد ترى الحبشى حول بيوتنا   جذلا إذا مانال يوماً ماكلا[3]
جعداً أصك كأن فروة رأسه   بذرت فأنبت جانباه فلفلا

قال الخطابى : إنما سمى الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه ، قلت : وهذا لاينافى ماثبت فى الصحيح ؛ فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما — فما ثبت فى الصحيح أولى وأقوى ، بل لايلتفت إلى ماعداه . وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأيلى : حدثنا عثمان وأبو جزى وهمام بن يحيى عن قتادة عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « إنما سمى الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء » . وهذا غريب من هذا الوجه . وقال قبيصة عن الثورى عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ماحوله . وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر ، وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر ، وهو مسجى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه ، فسلم عليه السلام فكشف عن وجهه فرد ، وقال : أنى بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال أنا موسى . قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . فكان من أمرهما ماقصه الله فى كتابه عنهما . وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه :

---

(١) قال العينى : الفروة هى جلدة وجه الأرض جلس عليها الخضر ، فأنبتت وصارت خضراء . وقيل : أراد الهشيم من نبات الأرض — اخضر بعد يبسه (٢) شاعر من فحول الشعراء فى عصر بنى أمية كان يقضى للفرزدق على جرير ويفضله (٣) المكل : اجتماع الماء فى البئر . يقال مكلت البئر — إذا اجتمع الماء فى وسطها وكثر ، ولعله يريد يوماً مطيراً .

أحدها : قوله تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) .

الثانى : قول موسى له : (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا * قال إنك لن تستطيع معى صبرا * وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا * قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً * قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) ، فلو كان ولياً وليس بنبى — لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ماعنده من العلم الذى اختصه الله به دونه . فلو كان غير نبى — لم يكن معصوماً ، ولم تكن لموسى — وهو نبى عظيم ورسول كريم واجب العصمة — كبير رغبة ولا عظيم طلبة فى علم ولى غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عنه ، ولو أنه يمضى حقباً من الزمان ، قيل ثمانين سنة . ثم لما اجتمع به — تواضع له وعظمه ، واتبعه فى صورة مستفيد منه . فدل على أنه نبى مثله يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم ، نبى بنى إسرائيل الكريم . وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرمانى[1] على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام ، وما ذاك إلا للوحى إليه من الملك العلام . وهذا دليل مستقل على نبوته ، و برهان ظاهر على عصمته ؛ لأن الولى لايجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد مايلقى فى خلده ؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم ، علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه ، ففى قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته ، صيانة لأبويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته — دل ذلك على نبوته ، وأنه مؤيد من الله بعصمته . وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزى طرق هذا المسلك بعينه فى الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه . وحكى الاحتجاج عليه الرمانى أيضاً .

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ، ووضح له عن حقيقة أمره وجلى — قال بعد ذلك كله : (رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى) يعنى مافعلته من تلقاء نفسى ، بل أمرت به وأوحى إلى فيه ؛ فدلت هذه الوجوه على نبوته . ولا ينافى ذلك حصول ولايته ، بل ولا رسالته — كما قاله آخرون . وأما كونه ملكا من الملائكة فغريب جداً ، و إذا ثبتت نبوته — كما ذكرناه ، لم يبق لمن قال بولايته — وأن الولى قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر — مستند يستندون إليه ، ولا معتمد يعتمدون عليه .

وأما الخلاف فى وجوده إلى زماننا هذا ؛ فالجمهور على أنه باق إلى اليوم ؛ قيل لأنه دفن آدم بعد

---

(١) فى نسخة (البرقانى) .

خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة ، وقيل لأنه شرب من عين الحياة فحيي . وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن . وسنوردها إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وهذه وصيته لموسى حين (قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً) . روى فى ذلك آثار منقطعة كثيرة ؛ قال البيهقى : أنبأنا أبو سعيد بن أبى عمرو ، حدثنا أبو عبد الله الصفار ، حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا جرير ، حدثنى أبو عبد الله الملطى قال : لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى أوصنى ، قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً ، كن بشاشاً ولا تكن غضبان ، ارجع عن اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة . وفى رواية من طريق أخرى زيادة : ولا تضحك إلا من عجب . وقال وهب بن منبه قال الخضر : ياموسى إن الناس معذبون فى الدنيا على قدر همومهم بها ، وقال بشر بن الحارث الحافى : قال موسى للخضر أوصنى ، فقال : يسر الله عليك طاعته .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكرياء بن يحيى الوقاد — إلا أنه من الكذابين الكبار — قال قرىء على عبدالله بن وهب وأنا أسمع ، قال الثورى ، قال مجالد ، قال أبو الوداك قال أبو سعيد الخدرى ، قال عمر بن الخطاب ، قال رسول الله ﷺ : « قال أخى موسى يارب وذكر كلمته ، فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها ، فقال السلام عليك ورحمة الله ياموسى بن عمران ، إن ربك يقرأ عليك السلام . قال موسى هو السلام وإليه السلام ، والحمد لله رب العالمين ، الذى لا أحصى نعمه ، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته . ثم قال موسى : أريد أن توصينى بوصية ينفعنى الله بها بعدك ، فقال الخضر : ياطالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع ، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم ، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك ، واغرف من الدنيا وانبذها وراءك ؛ فإنها ليست لك بدار ولالك فيها محل قرار ، وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد ، ورض نفسك على الصبر تخلص من الإثم . ياموسى تفرغ للعلم إن كنت تريده ؛ فإنما العلم لمن تفرغ له ، ولا تكن مكثاراً للعلم مهذاراً ؛ فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدى مساوى السخفاء . ولكن عليك بالاقتصاد ، فإن ذلك من التوفيق والسداد . وأعرض عن الجهال وماطلهم ، واحلم عن السفهاء ؛ فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء . وإذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلماً ، وجانبه حزماً ؛ فإن ما بقى من جهله عليك وسبه إياك أكثر وأعظم . ياابن عمران ولاترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلا ؛ فإن الاندلاث[1] والتعسف من الاقتحام والتكلف . ياابن عمران لا تفتحن باباً لا تدرى ما غلقه ، ولا تغلقن باباً لاتدرى مافتحه . ياابن عمران من لاتنتهى من الدنيا نهمته[2] ، ولا تنقضى منها رغبته ، ومن يحقر حاله ، ويتهم الله فيما قضى له — كيف يكون زاهداً ؟ هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه ؟ أو ينفعه طلب

(٢) أى التقدم بلا فكرة ولا روية (٢) النهمة : الحاجة وبلوغ الهمة والشهوة فى الشىء .

العلم والجهل قد حواه ؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه. ياموسى تعلم ما تعلمت لتعمل به ، ولا تعلمه لتحدث به ، فيكون عليك بواره ، ولغيرك نوره . ياموسى بن عمران ، اجعل الزهد والتقوى لباسك ، والعلم والذكر كلامك ، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات ، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضى ربك ، واعمل خيراً فإنك لابد عامل سوءاً ، قد وعظتُ إن حفظتَ . قال فتولى الخضر وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكي . لا يصح هذا الحديث ، وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصري ، وقد كذبه غير واحد من الأئمة . والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه .

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، حدثنا عمرو بن إسحاق ابن إبراهيم بن العلاء الحمصي ، حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي ، حدثنا بقية بن الوليد عن محمد ابن زياد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « ألا أحدثكم عن الخضر ! قالوا : بلى يارسول الله ، قال : بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل ، أبصره رجل مكاتب ، فقال تصدق عليّ بارك الله فيك . فقال الخضر : آمنت بالله ، ما شاء الله من أمر يكون ، ما عندي من شيء أعطيكه . فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت عليّ ؛ فإني نظرت إلى السماء في وجهك ، ورجوت البركة عندك . فقال الخضر : آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه ، إلا أن تأخذني فتبيعني ، فقال المسكين : وهل يستقيم هذا ؟ قال نعم . الحق أقول لك ، لقد سألتني بأمر عظيم ، أما إني لا أخيبك بوجه ربي ، بعني . قال فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم ، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء ، فقال له : إنك ابتعتني التماس خير عندي فأوصني بعمل ، قال أكره أن أشق عليك ، إنك شيخ كبير ضعيف . قال ليس تشق عليّ ، قال فانقل هذه الحجارة — وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم — فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة ، فقال أحسنت وأجملت وأطقت مالم أرك تطيقه . ثم عرض للرجل سفر ، فقال إني أحسبك أميناً فاخلفني في أهلي خلافة حسنة ، قال فأوصني بعمل ، قال : إني أكره أن أشق عليك ، قال ليس تشق عليّ ، قال : فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك . فمضى الرجل لسفره ، فرجع وقد شيد بناؤه ، فقال أسألك بوجه الله ماسبيلك وما أمرك ؟ فقال سألتني بوجه الله ، والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية ، سأخبرك من أنا ؟ . أنا الخضر الذي سمعت به ؛ سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي من شيء أعطيه ، فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتي ، فباعني . وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر — وقف يوم القيامة جلده لالحم له ولا عظم يتقعقع[1] فقال الرجل : آمنت بالله ، شققت عليك يانبي الله ولم أعلم ، فقال لابأس أحسنت وأبقيت . فقال الرجل بأبي وأمي يانبي الله ، احكم في أهلي ومالي بما أراك الله ، أو أخيرك فأخلي سبيلك ، فقال أحب أن تخلي

---

(١) القعقعة : حكاية صوت السلاح ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت .

سبيلى ، فأعبد ربى ، نخلى سبيله . فقال الخضر : الحمد لله الذى أوقعنى فى العبودية ثم نجانى منها . وهذا حديث رفعه خطأ ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، وفى رجاله من لا يعرف ، فالله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزى فى كتابه : [عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر] من طريق عبد الوهاب ابن الضحاك وهو متروك عن بقية . وقدروى الحافظ ابن عساكر بإسناد إلى السدى : أن الخضر وإلياس كانا أخوين ، وكان أبوهما ملكا ، فقال إلياس لأبيه : إن أخى الخضر لا رغبة له فى الملك ، فلو أنك زوجته لعله يجىء منه ولد يكون الملك له ، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لا حاجة لى فى النساء ؛ فإن شئت أطلقت سراحك ، وإن شئت أقمت معى تعبدين الله عز وجل وتكتمين على سرى . فقالت نعم ، وأقامت معه سنة . فلما مضت السنة دعاها الملك ، فقال إنك شابة وابنى شاب فأين الولد ؟ فقالت إنما الولد من عند الله ؛ إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن . فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيباً قد ولد لها ، فلما زفت إليه قال لها كما قال للتى قبلها ، فأجابت إلى الإقامة عنده . فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد ، فقالت : إن ابنك لا حاجة له بالنساء ، فتطلبه أبوه فهرب ، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه . فيقال إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره ، فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأخرى ، فأقامت تعبد الله فى بعض نواحى تلك المدينة ، فمر بها رجل يوماً فسمعته يقول : بسم الله ، فقالت له أنى لك هذا الاسم ؟ فقال إنى من أصحاب الخضر ، فتزوجته فولدت له أولاداً . ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون ، فبينما هى يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت : بسم الله . فقالت ابنة فرعون : أبى ، فقالت — لا . ربى وربك ورب أبيك — الله . فأعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس فأحميت ، ثم أمر بها فألقيت فيها . فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها ، فقال لها ابن معها صغير : يا أمه اصبرى فإنك على الحق . فألقت نفسها فى النار فماتت رحمها الله .

وقد روى ابن عساكر عن أبى داود الأعمى نفيع — وهو كذاب وضاع — عن أنس بن مالك ، ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف — وهو كذاب أيضاً — عن أبيه عن جده : أن الخضر جاء ليلة فسمع النبى ﷺ وهو يدعو ويقول : « اللهم أعنى على ماينجينى مما خوفتنى ، وارزقنى شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه » . فبعث إلى رسول الله أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام وقال قل له : إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور ، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره . . . الحديث ، وهو مكذوب لايصح سنداً ولا متناً ؛ فكيف لايتمثل بين يدى رسول الله ﷺ ويجىء بنفسه مسلماً ومتعلماً ؟ وهم يذكرون فى حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم : أن الخضر يأتى إليهم و يسلم عليهم ، ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم ، وهو مع هذا لايعرف موسى بن عمران كليم الله ، الذى اصطفاه الله فى ذلك الزمان على من سواه ، حتى يتعرف إليه بأنه موسى بنى إسرائيل .

وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادى ــ بعد إيراده حديث أنس هذا ــ وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد سقيم المتن ، يتبين فيه أثر الصنعة .

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى قائلا : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر ابن بالويه ، حدثنا محمد بن بشر بن مطر ، حدثنا كامل بن طلحة ، حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك قال : لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه ، فبكوا حوله واجتمعوا . فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى . ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضاً من كل فائت ، وخلفاً من كل هالك ، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ، وقد نظر إليكم فى البلاء فانظروا ؛ فإن المصاب من لم يجبر ، وانصرف . فقال بعضهم لبعض : أتعرفون الرجل ؟ فقال أبو بكر وعلى : نعم ؛ هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام . وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن كامل بن طلحة به . وفى متنه مخالفة لسياق البيهقى . ثم قال البيهقى : عباد بن عبد الصمد ضعيف ــ فهذا منكر بمرة[1] . قلت عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصرى ، روى عن أنس نسخة ، قال ابن حبان والعقيلى أكثرها موضوع ، وقال البخارى منكر الحديث ، وقال أبو حاتم ضعيف الحديث جداً منكره ، وقال ابن عدى : عامة ما يرويه فى فضائل على ــ وهو ضعيف غال فى التشيع .

وقال الشافعى فى مسنده : أخبرنا القاسم بن عبد الله بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده على بن الحسين قال : لما توفى رسول الله ﷺ وجاءت التعزية ــ سمعوا قائلا يقول : إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركا من كل فائت . فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ؛ فإن المصاب من حرم الثواب . قال على بن الحسين أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر . شيخ الشافعى القاسم العمرى متروك . قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يكذب ، زاد أحمد : ويضع الحديث . ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه هٰهنا والله أعلم . وقد روى من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن أبيه عن على ولا يصح . وقد روى عبد الله بن وهب عمن حدثه ، عن محمد بن عجلان عن محمد بن المنكدر : أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلى على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول : لا تسبقنا يرحمك الله ، فانتظره حتى لحق بالصف ، فذكر دعاءه للميت : إن تعذبه فكثيراً عصاك ، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك . ولما دفن قال : طوبى لك يا صاحب القبر ، إن لم تكن عريفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً . فقال عمر : خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو ؟ قال فتوارى عنهم ، فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع . فقال عمر : هذا والله الخضر الذى حدثنا عنه رسول الله ﷺ . وهذا الأثر فيه مبهم ، وفيه انقطاع ولا يصح مثله .

---

(١) قوله : فهذا منكر بمرة ــ جواب قوله : فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثورى عن عبد الله بن محرز عن يزيد بن الأصم عن على بن أبى طالب قال : دخلت الطواف فى بعض الليل ، فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يمنعه سمع عن سمع ، ويا من لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين ـ ارزقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك . قال : فقلت أعد علىّ ما قلت ، فقال لى أو سمعته ؟ قلت نعم . فقال لى : والذى نفس الخضر بيده ـ قال : وكان هو الخضر ـ لايقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلاغفر الله له ذنوبه ، ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم ـ لغفرها الله له . وهذا ضعيف من جهة عبدالله بن محرز ؛ فإنه متروك الحديث ، ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً ، ومثل هذا لايصح والله أعلم .

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذى : حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا صالح بن أبى الأسود عن محفوظ بن عبدالله الحضرمى عن محمد بن يحيى قال : بينما على بن أبى طالب يطوف بالكعبة ، إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يامن لايشغله سمع عن سمع ، ويامن لايغلطه السائلون ، ويامن لايتبرم بإلحاح الملحين ارزقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك قال : فقال له على : ياعبد الله أعد دعاءك هذا ، قال أوقد سمعته ؟ قال نعم . قال فادع به فى دبر كل صلاة ، فوالذى نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها ، وحصباء الأرض وترابها ـ لغفر لك أسرع من طرفة عين . وهذا أيضاً منقطع ، وفى إسناده من لايعرف ، والله أعلم .

وقد أورد ابن الجوزى من طريق أبى بكر بن أبى الدنيا : حدثنا يعقوب بن يوسف ، حدثنا مالك ابن إسماعيل فذكر نحوه . ثم قال : وهذا إسناد مجهول منقطع ، وليس فيه مايدل على أن الرجل الخضر .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : أنبأنا أبو القاسم ابن الحصين ، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد ، أنبأنا أبو إسحق المزكى ، حدثنا محمد بن إسحق بن خزيمة ، حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان ، أنبأنا عمرو بن عاصم ، حدثنا الحسن بن زريق عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال ـ ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبى ﷺ ـ قال : « يلتقى الخضر وإلياس كل عام فى الموسم فيحلق كل منهما رأس صاحبه ، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات : بسم الله ماشاء الله ، لايسوق الخير إلا الله ، ماشاء الله لايصرف الشر إلا الله ، ماشاء الله ما كان من نعمة فمن الله ، ماشاء الله لاحول ولا قوة إلا بالله » . قال وقال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسى ثلاث مرات ـ آمنه الله من الغرق والحرق والسرق . قال وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب .

قال الدارقطنى فى الإفراد : هذا حديث غريب من حديث ابن جريج ، لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه ـ يعنى الحسن بن زريق هذا . وقد روى عنه محمد بن كثير العبدى أيضاً ، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى : ليس بالمعروف ، وقال الحافظ أبو جعفر العقيلى : مجهول وحديثه غير محفوظ .

وقال أبو الحسن بن المنادى : هـو حديث واه بالحسن بن زريق . وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق على بن الحسن الجهضمى ـ وهو كذاب ـ عن ضمرة بن حبيب المقدسى عن أبيه عن العلاء بن زياد القشيرى عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب مرفوعاً قال : يجتمع كل يوم عرفة بعرفات ـ جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر . وذكر حديثاً طويلا موضوعاً تركنا إيراده قصداً ولله الحمد . وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشنى عن ابن أبى رواد قال : إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويحجان فى كل سنة ، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل .

وروى ابن عساكر : أن الوليد بن عبد الملك بن مروان ـ بانى جامع دمشق ـ أحب أن يتعبد ليلة فى المسجد ، فأمر القومة[1] أن يخلوه له ففعلوا ، فلما كان من الليل جاء فى باب الساعات فدخل الجامع ، فإذا رجل قائم يصلى فيما بينه و بين باب الخضراء ، فقال للقومة : ألم آمركم أن تخلوه ؟ فقالوا ياأمير المؤمنين هذا الخضر يجىء كل ليلة يصلى هاهنا . وقال ابن عساكر أيضاً : أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد أنبأنا أبو بكر بن الطبرى ، أنبأنا أبو الحسين ابن الفضل ، أنبأنا عبدالله بن جعفر ، حدثنا يعقوب ـ هو ابن سفيان الفسوى ـ حدثنى محمد بن عبد العزيز ، حدثنا حمزة عن السرى بن يحيى عن رباح بن عبيدة قال : رأيت رجلا يماشى عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه ، فقلت فى نفسى : إن هذا الرجل حافى ، قال فلما انصرف من الصلاة ـ قلت من الرجل الذى كان معتمداً على يدك آنفاً ؟ قال وهل رأيته يارباح ؟ قلت نعم . قال ماأحسبك إلا رجلا صالحاً ، ذاك أخى الخضر بشرنى أنى سألى وأعدل . قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزى الرملى : مجروح عند العلماء . وقد قدح أبو الحسين بن المنادى فى ضمرة والسرى ورباح . ثم أورد من طرق أخر عن عمر بن عبد العزيز ـ أنه اجتمع بالخضر ، وضعفها كلها . وروى ابن عساكر أيضاً ـ أنه اجتمع بإبراهيم التيمى وبسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم . وهذه الروايات والحكايات هى عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم . وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمثلها حجة فى الدين ، والحكايات لايخلوا أكثرها عن ضعف الإسناد . وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابى أو غيره ؛ لأنه يجوز عليه الخطأ ، والله أعلم .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الزهرى ، أخبرنى عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، أن أبا سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلا عن الدجال وقال فيما يحدثنا : « يأتى الدجال ـ وهو محرم عليه أن يدخل نقاب[2] المدينة ـ فيخرج إليه يومئذ رجل هوخير الناس أو من خيرهم ، فيقول أشهد أنك أنت الدجال الذى حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته

---

(١) القومة : الجماعة ـ كالقوم . (٢) أي مداخلها وأفواه طرقها ، جمع نقب وهو الطريق فى الجبل .

أتشكون فى الأمر ؟ فيقولون لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحيا : والله ما كنت أشد بصيرةً فيك منى الآن . قال فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه » قال معمر : بلغنى أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس ، وبلغنى أنه الخضر الذى يقتله الدجال ثم يحييه . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى به . وقال أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوى عن مسلم : الصحيح أن يقال إن هذا الرجل الخضر ، وقول معمر وغيره : بلغنى — ليس فيه حجة . وقد ورد فى بعض ألفاظ الحديث : فيأتى بشاب ممتلئ شباباً فيقتله . وقوله : الذى حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا يقتضى المشافهة ، بل يكفى التواتر .

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله فى كتابه : [عجالة المنتظر فى شرح حالة الخضر] للأحاديث الواردة فى ذلك من المرفوعات ؛ فبين أنها موضوعة ، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها وقد أجاد فى ذلك وأحسن الانتقاد .

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات — ومنهم البخارى وإبراهيم الحربى وأبو الحسين بن المنادى والشيخ أبو الفرج بن الجوزى ، وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً أسماه [عجالة المنتظر فى شرح حالة الخضر] — فيحتج لهم بأشياء كثيرة : منها قوله : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) ؛ فالخضر إن كان بشراً فقد دخل فى هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح انتهى . والأصل عدمه حتى يثبت . ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله . ومنها أن الله تعالى قال : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين[1]) . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه . وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ؛ لئن بعث محمد — وهم أحياء — ليؤمنن به وينصرنه ، ذكره البخارى عنه . فالخضر إن كان نبياً أو ولياً — فقد دخل فى هذا الميثاق ، فلو كان حياً فى زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه ؛ يؤمن بما أنزل الله عليه ، و ينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه ؛ لأنه إن كان ولياً فالصديق أفضل منه ، وإن كان نبياً فموسى أفضل منه .

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا هشيم ، أنبأنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله — أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى » . وهذا الذى يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة ، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة : أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون فى زمن رسول الله ﷺ — لكانوا كلهم أتباعاً له ، وتحت

---

(١) الآية : ٨١ من سورة آل عمران .

أوامره وفى عموم شرعه . كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء – رفع فوقهم كلهم . ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة – أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم ، فصلى بهم فى محل ولايتهم ودار إقامتهم . فدل على أنه الإمام الأعظم ، والرسول الخاتم المبجل المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

فإذا علم هذا – وهو معلوم عند كل مؤمن – علم أنه لو كان الخضر حياً لـكان من جملة أمة محمد ﷺ ، وممن يقتدى بشرعه ، لايسعه إلا ذلك . هذا عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة ، لايخرج منها ولا يحيد عنها ، وهو أحد أولى العزم الخمسة المرسلين – وخاتم أنبياء بنى إسرائيل . والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه – أنه اجتمع برسول الله ﷺ فى يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالا فى مشهد من المشاهد . وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل ، واستنصره واستفتحه على من كفره : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد بعدها فى الأرض » ، وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ ، وسادة الملائـكة حتى جبريل عليه السلام ؛ كما قال حسان بن ثابت فى قصيدة له فى بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب :

وثبير بدر إذ يرد وجوههم   جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حياً – لـكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته . قال القاضى أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلى : سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات ؟ فقال نعم : قال وبلغنى مثل هذا عن أبى طاهر بن الغبارى قال : وكان يحتج بأنه لو كان حياً لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزى فى العجالة .

فإن قيل : فهل يقال إنه كان حاضراً فى هذه المواطن كلها ولـكن لم يكن أحد يراه ؟ فالجواب : أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذى يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات . ثم ما الحاصل له على هذا الاختفاء ؟ وظهوره أعظم لأجره وأعلى فى مرتبته وأظهر لمعجزته ؟ ثم لو كان باقياً بعده ، لـكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المـكذوبة ، والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية ، وقتاله مع المسلمين فى غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم ، وتسديده العلماء والحكام ، وتقريره الأدلة والأحـكام – أفضل ما يقال عنه من كنونه فى الأمصار ، وجوبه الفيافى والأقطار ، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم ، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذى ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

ومن ذلك ماثبت فى الصحيحين وغيرهما – عن عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء

ثم قال : « أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد » . وفى رواية « عين تطرف » . قال ابن عمر فوَهِلَ الناس[1] فى مقالة رسول الله ﷺ هذه ، وإنما أراد اخترام قرنه[2] قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق ، أنبأنا معمر عن الزهرى قال : أخبرنى سالم بن عبدالله وأبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة ، أن عبد الله بن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء فى آخر حياته ، فلما سلم قام فقال : « أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد » ، وأخرجه البخارى ومسلم من حديث الزهرى . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى عدى عن سليمان التيمى عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : « ما من نفس منفوسة ـ أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة[3] ـ يأتى عليها مائة سنة وهى يومئذ حية » . وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة عن أبى الزبير عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر : « يسألوننى عن الساعة وإنما علمها عند الله ، أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة » . وهكذا رواه مسلم من طريق أبى نضرة وأبى الزبير : كل منهما عن جابر بن عبد الله بنحوه . وقال الترمذى حدثنا عباد ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما على الأرض من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة » . وهذا أيضاً على شرط مسلم .

قال ابن الجوزى : فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر . قالوا : فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذى يترقى فى القوة إلى القطع ـ فلا إشكال ، وإن كان قد أدرك زمانه ـ فهذا الحديث يقتضى أنه لم يعش بعد مائة سنة ، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً ؛ لأنه داخل فى هذا العموم ، والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله ، والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلى فى كتابه : [التعريف والإعلام] عن البخارى وشيخه أبى بكر ابن العربى : أنه أدرك حياة النبى ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث . وفى كون البخارى رحمه الله يقول بهذا وأنه بقى إلى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ـ نظر . ورجح السهيلى بقاءه ، وحكاه عن الأكثرين . قال : وأما اجتماعه مع النبى ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده ـ فروى من طرق صحاح ، ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه ولم يورد أسانيدها ، والله أعلم .

إلياس عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهرون من سورة الصافات : (وإن إلياس لمن المرسلين * إذ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين * فكذبوه فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلصين * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إلياسين * إنا كذلك

---

(١) أى فزعوا (٢) أى استئصاله ذهاب أهله (٣) أى مولودة .

نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين[1]) قال علماء النسب هو : إلياس التشبى ، ويقال : ابن ياسين ابن فنحاص ابن العيزار بن هرون ، وقيل : إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران . قالوا وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق ، فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه « بعلا[2]» . وقيل كانت امرأة اسمها « بعل » ، والأول أصح . ولهذا قال لهم : (ألا تتقون * أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين) فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله . فيقال : إنه هرب منهم واختفى عنهم . قال أبو يعقوب الأذرعى عن يزيد بن عبد الصمد، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه فى الغار الذى تحت الدم عشر سنين ، حتى أهلك الله الملك وولى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم ، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقى ، حدثنا سعيد ابن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة — أو قال أربعين ليلة — تأتيه الغربان برزقه . وقال محمد بن سعد كاتب الواقدى : أنبأنا هشام ابن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال : أول نبى بعث إدريس ، ثم نوح ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل وإسحق ، ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ، ثم موسى وهارون ابنا عمران ، ثم إلياس التشبى بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، هكذا قال . وفى هذا الترتيب نظر . وقال مكحول عن كعب : أربعة أنبياء أحياء ؛ اثنان فى الأرض : إلياس والخضر ، واثنان فى السماء : إدريس وعيسى . وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان فى كل عام فى شهر رمضان ببيت المقدس ، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل . وأوردنا الحديث الذى فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة ، وبينا أنه لم يصح شىء من ذلك وأن الذى يقوم عليه الدليل : أن الخضر مات ، وكذلك إلياس عليهما السلام . وماذكره وهب بن منبه وغيره : أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه ، فجاءته دابة لونها لون النار فركبها ، وجعل الله له ريشاً وألبسه النور ، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكياً بشرياً سماوياً أرضياً ، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب — ففى هذا نظر . وهو من الإسرائيلات التى لا تصدق ولا تكذب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة ، والله أعلم .

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنى أبو العباس أحمد ابن سعيد المعدانى ببخارى ، حدثنا عبد الله بن محمود ، حدثنا عبدان بن سنان ، حدثنى أحمد بن عبد الله

---

(١) الآيات : ١٢٣-١٣٢ (٢) قيل كان من ذهب ، طوله عشرون ذراعاً وله أربعة أجنحة ، وقد فتنوا به .

البرقى ، حدثنا يزيد بن يزيد البلوى ، حدثنا أبو إسحاق الفزارى عن الأوزاعى عن مكحول عن أنس ابن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فنزلنا منزلا فإذا رجل فى الوادى يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها ، قال: فأشرفت على الوادى فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع ، فقال لى من أنت ؟ فقلت ، أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، قال فأين هو ؟ قلت هوذا يسمع كلامك ، قال : فأته فأقرئه السلام ، وقل له أخوك إلياس يقرئك السلام . قال فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم ، ثم قعدا يتحادثان ، فقال له : يارسول الله إنى ما آكل فى السنة إلا يوماً ، وهذا يوم فطرى فآكل أنا وأنت . قال:فنزلت عليهما مائدة من السماء، عليها خبز وحوت وكرفس ، فأكلا وأطعمانى وصلينا العصر ، ثم ودعه ورأيت مره فى السحاب نحو السماء — فقد كفانا البيهقى أمره ، وقال :حديث ضعيف بمرة .

والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابورى أخرجه فى مستدركه على الصحيحين ، وهذا مما يستدرك به على المستدرك ؛ فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه . ومعناه لا يصح أيضاً ؛ فقد تقدم فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً فى السماء . . . إلى أن قال : ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » . وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذى ذهب إليه ، وهذا لا يصح ؛ لأنه كان أحق بالسعى إلى بين يدى خاتم الأنبياء . وفيه أنه يأكل فى السنة مرة ، وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب ، وفيما تقدم عن بعضهم : أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر ، وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شىء منها .

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها ؛ وهذا عجب منه ؛ كيف تكلم عليه ؟ فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة عن هانىء بن الحسن عن بقية عن الأوزاعى عن مكحول عن واثلة عن ابن الأسقع ، فذكر نحو هذا مطولا . وفيه أن ذلك كان فى غزوة تبوك،وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان، قالا : فإذا هو أعلى جسما بذراعين أوثلاثة ، واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الإبل . وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة ، وقال : إن لى فى كل أربعين يوماً أكلة ، وفى المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب و بقل — ما عدا الكراث . وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال عهدى به عام أول ، وقال لى: إنك ستلقاه قبلى فأقرئه منى السلام . وهذا يدل على أن الخضر و إلياس — بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث — لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة ، وهذا لايسوغ شرعاً ؛وهذا موضوع أيضاً .

وقد أورد ابن عساكر طرقاً فيمن اجتمع بإلياس من العباد ، وكلها لايفرح بها ؛ لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها . ومن أحسنها ماقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى بشر بن معاذ ، حدثنا حماد

ابن واقد عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أصلى فيه ركعتين فافتتحت : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب * ذى الطول) — فإذا رجل من خلفى على بغلة شهباء ، عليه مقطعات يمنية فقال لى : إذا قلت غافر الذنب — فقل ياغافر الذنب اغفر لى ذنبى ، وإذا قلت قابل التوب — فقل ياقابل التوب تقبل توبتى ، وإذا قلت شديد العقاب — فقل ياشديد العقاب لاتعاقبنى ، وإذا قلت ذى الطول — فقل ياذا الطول تطول علىّ برحمة ، فالتفت فإذا لاأحد . وخرجت فسألت : مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ؟ فقالوا مامر بنا أحد ، فكانوا لايرون إلا أنه إلياس .

وقوله تعالى : (فكذبوه فإنهم لمحضرون) أى للعذاب ؛ إما فى الدنيا والآخرة ، أو فى الآخرة . والأول أظهر على ماذكره المفسرون والمؤرخون . وقوله : (إلا عباد الله المخلصين) أى إلا من آمن منهم . وقوله : (وتركنا عليه فى الآخرين) أى أبقينا بعده ذكراً حسناً له فى العالمين، فلا يذكر إلا بخير ، ولهذا قال : (سلام على إلياسين) أى سلام على إلياس . والعرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها[1] كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين . وقد قرئ : سلام على آل ياسين — أى على آل محمد ، وقرأ ابن مسعود وغيره : سلام على إدراسين ، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم ، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق . والصحيح أنه غيره كما تقدم ، والله أعلم .

وبتوفيق الله تعالى قد تم الجزء الأول من كتاب : « البداية والنهاية » ويليه الجزء الثانى وأوله :

(باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام)

---

(١) قيل : إنها لغة فى إلياس ، وقد اختيرت هنا رعاية للفواصل ، ولعل لزيادة الياء والنون معنى فى السريانية .

فهرس الجزء الأول
من « البداية والنهاية » لابن كثير

« تنبيه » : حدثت أخطاء مطبعة يستطع القارىء إدراكها بيسر ونحن نثبت أهمها فيمايلى:

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	٢٣	وذر كلاكم	وذكر كلام	١٤٧	٥	جميعهعم	جميعهم
٤١	٢	القاسه	القاسم	١٦٦	١٨	مشاقها	مشارقها
٤١	٢	حدمنا	حدثنا	١٦٨	تعليق ٣	يضرب بلبه	يضرب بنفسه
٥٥	٤	ولا تمثال.	ولا تمثال	٢٦٢	تعليق ٢	المقتو	المقتول
٦٥	٢٤	وتفسه	وتفسيره	٢٩٣	تعليق ٢	فى السير الآسيوى	فى البر الآسيوى
١١٧	١٢	يوم الثقيفة	يوم السقيفة	٢٩٨	٦	مصرى	مصر



مطبعة الفجالة الجديدة

شارع الشيخ القويسنى رقم ٣٨ ب بالظاهر





